



من الشرق إلى الاستشراق

محمد م. الأرناؤوط

البلقان .. من الشرق إلى الاستشراق

صدر هذا الكتاب بمناسبة الندوة الدولية الأولى التي عقدها منتدى العلاقات العربية والدولية عن العلاقات العربية - البلقانية في الدوحة خلال ١٩-٢٠ نوفمبر ٢٠١٤ ، وهو يستعرض جانبًا من هذه العلاقات على مستويين تاريخيين متداخلين: حين كان البلقان يعتبر جزءًا من الشرق، وكانت بلغراد تعتبر "بوابة الشرق" حتى القرن التاسع عشر نتيجة للفتح العثماني وانتشار الإسلام وامتداداته الثقافية والحضارية في المنطقة، وحين استمرت العلاقات بين دول المنطقة التي ورثت المجال العثماني السابق مع الشرق من خلال الاستشراق بتلوناته المختلفة التي عكست التطورات السياسية في القرن العشرين.



منتدى العلاقات العربية والدولية

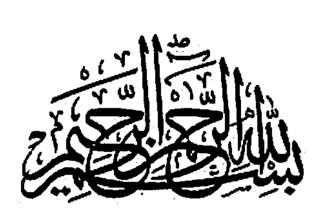
السعر: 12 دولاراً

ISBN: 978-9927-103-27-8

9 789927 103278

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

البلقان
من الشرق إلى الاستشراق



البلقان

من الشرق إلى الاستشراق

محمد م. الأرناؤوط



عنوان الكتاب: البلقان.. من الشرق إلى الاستشراق.
المؤلف: محمد م. الأرناؤوط.
تنفيذ: أمل الغانم.
٢٢٤ صفحة - ١٦,٥× ٢٤ سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٣٩٦/ ٢٠١٤.
الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978 - 9927 - 103 - 27 - 8

الطبعة الأولى ٢٠١٤.

الإهـــداء

إلى حفيدتي تليدة

التي تمثّل خرافة الحدود بين الشرق والغرب

المحتويات

مقدمـــة

يتناول هذا الكتاب تطوراً تاريخياً معيناً يربط بين التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر للبلقان، ويتعلّق بالمجال الجيوسياسي والثقافي والمعرفي، على الرغم من الالتباس الذي يحوم حول المصطلحات الواردة في العنوان (البلقان والشرق والاستشراق). وربما يكون بهذا الشكل مجرد إسهام متواضع لفك الالتباس في وقت يحتاج فيه العرب إلى فهم أدق للبلقان ومكوّناته ومخرجاته (التبلقن والبلقنة) وعلاقته مع الشرق في الماضي القريب والحاضر.

وعلى نمط شبه جزيرة البيرينيه في جنوب غرب أوروبا لدينا هنا في جنوب شرق أوروبا شبه جزيرة أيضاً عرفت بأسماء مختلفة إلى أن أطلق عليها الجغرافي الألماني أ. زيون A.Zeun في ١٨٠٩م، اسم «شبه جزيرة البلقان» استناداً إلى سلسلة الجبال العالية التي تمتد في وسطها من شرق صربيا إلى شرق بلغاريا. وكانت هذه الجبال عرفت بأسماء مختلفة حسب تعاقب الشعوب التي سكنت المنطقة، حيث عُرفت عند الإغريق القدماء باسم جبال هيموس Haemus أو ايموس Emus بالاستناد إلى الاسم الذي أطلقه عليها التراقيون القدماء، ثم حلّ في القرن السادس البلغار القدامى من ذوي الأصول التركية في المنطقة وأعطوها اسمهم (بلغاريا) وأطلقوا عليها «جبال البلقان»

لأن «بلقان» في التركية تعني المكان العالي أو المرتفع، وهو اسم على مسمى لأن هذه الجبال ترتفع في بلغاريا إلى أعلى قمة (٢٣٧٦)، ثم جاءها سلاف الجنوب الذين أطلقوا عليها «ستارا زاغورا» Stara Zagora بمعنى «الجبال القديمة»، ومع الحكم العثماني الطويل للمنطقة الذي قارب الـ ٥٠٠ عام أخذ اسم «جبال البلقان» يترسّخ أكثر فأكثر. وبسبب التطورات السياسية التي ارتبطت بالحكم العثماني فقد أطلق عليها العثمانيون أيضا «الرومللي» أو بلاد الروم، على حين أن الأوروبيين أطلقوا عليها «تركيا الأوروبية» إلى أن جاء الجغرافي الألماني أ. زيون الذي أراد أن يعطيها اسماً من طبيعة المنطقة وليس من التبعية السياسية للمنطقة.

ومع هذا الاسم الجديد بقيت حدود المنطقة مفتوحة بشكل ما، إذ إنه لا يوجد تطابق في تحديد شبه الجزيرة هذه بالمقارنة مع شبه جزيرة البيرينيه. فمع التسليم بالحدود البحرية الثلاثة لشبه الجزيرة (البحر الأسود في الشرق وبحر إيجه والبحر المتوسط في الجنوب والبحر الأدرياتيكي في الغرب) إلا أن الحد الشمالي يبقى مفتوحاً أو لا يوجد حوله اتفاق بين الباحثين. ومع ذلك فالرأي الغالب أن الحد الشمالي تشكّله الأنهار الثلاثة (الدانوب والسافا Sava وكوبا Kupa) التي تقطع شبه الجزيرة من الشرق إلى الغرب. وبالاستناد إلى ذلك يدخل في شبه جزيرة البلقان اليوم بلغاريا وصربيا وكرواتيا والبوسنة والجبل الأسود وألبانيا وكوسوفا ومكدونيا واليونان وجزء من تركيا وجزء من رومانيا، بينما يدخل فيه بالمعنى الأوسع مولدافيا ورومانيا وسلوفينيا أيضا، ليشكّل بهذا مساحة تفوق نصف مليون كم يعيش فيها اليوم أكثر من خمسين مليون نسمة.

وبحكم موقعها بين البحار الثلاثة وغناها بالأراضي الزراعية والرعوية والموارد الطبيعية فقد شكّلت شبه جزيرة البلقان جاذباً للشعوب؛ للاستقرار فيها وتأسيس دول جديدة، وللدول؛ للتوسع والسيطرة عليها بالاستناد إلى خرائط كانت موجودة في فترة ما، وهو ما أسّس أحد مكوّنات «البلقنة» أو

النزاع المتواصل حول الحدود وتقسيم الدول الموجودة فيها إلى دول صغيرة كما هو الأمر مع يوغسلافيا السابقة التي تأسست في ١٩١٨م، وأضحت بعد عدة حروب سبع دول (صربيا وكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة ومكدونيا وكوسوفا والجبل الأسود). ومع الشعوب القديمة التي كانت موجودة من التاريخ القديم (التراقيون في الشرق والمقدونيون في الوسط والإليريون في الغرب والإغريق في الجنوب والفلاشيون Vlaches الذين ذابوا بينهم) تعرّضت شبه جزيرة البلقان منذ القرن السادس الميلادي إلى اكتساح سلاف الجنوب أو اليوغسلاف الذين انتشروا في مناطق واسعة من الشرق إلى الغرب ليشكلوا لاحقاً دولهم الخاصة بهم (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود وكرواتيا وسلوفينيا) التي أصبحت من المكونات الأساسية للبلقان والبلقنة.

وعلى الرغم من هذا التنوّع الإثني، الذي سيتّسم لاحقاً بتنوّع أكبر ديني وثقافي مع انتشار المسيحية والإسلام، تمكّنت روما من توحيد شبه جزيرة البلقان سياسياً لأول مرة في القرن الثاني قبل الميلاد حينما لجأت للسيطرة على البحر الأدرياتيكي بطرفيه للتخلص من القرصنة المنتشرة فيه فقضت أولاً على الدولة الإليرية في ١٦٨ ق.م. ثم سيطرت على مقدونيا في ١٤٦ ق م. ومع ذلك فإن الامتداد الواسع للإمبراطورية هو الذي حتَّم تقسيم الدولة إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية والإمبراطورية الرومانية الغربية في ٣٩٥م، حيث دخلت شبه جزيرة البلقان ضمن «الشرق» بالمعنى الإداري والسياسي أولاً ثم بالمعنى الثقافي والحضاري بعدما انقسمت الكنيسة الواحدة أيضا في ١٠٥٤م إلى كنيسة شرقية وكنيسة غربية. وفي هذا السياق كانت بيزنطة التي استمرت حوالى ألف عام مع بعض الانقطاعات هي المحدّد الأساسي لتاريخ وثقافة وحضارة شبه جزيرة البلقان بحكم سيادتها ورعايتها لنشر المسيحية الشرقية سواء بين الشعوب القديمة أو بين سلاف الجنوب الذين أصبحوا يمثلون غالبية السكان في المنطقة. وبشكل مشابه يمكن اعتبار الدولة العثمانية التي حكمت

المنطقة حوالى ٥٠٠ سنة بدون انقطاع هي المحدّد الآخر المهم في تاريخ وثقافة وحضارة المنطقة. فمع الفتح العثماني للمنطقة ابتداءً من منتصف القرن الرابع عشر وحتى سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣م، وتحوّلها إلى «إسلام بول» أو استانبول أخذ «الشرق» الآن معنى جديداً ضمن الصراع المتواصل بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الذي أصبح بمثابة صراع بين الإسلام والمسيحية، وكذلك مع انتشار الإسلام وثقافته وحضارته في المنطقة خلال الحكم العثماني الطويل، امتدت حدود «الشرق» بالمعنى الجديد لتصل إلى الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي.

وإلى تلك الفترة يعود مصطلح «تركيا الأوروبية» في الأدبيات الأوروبية وفي دوائر صنع القرار بأوروبا الغربية، التي أشاعت أيضاً مصطلح «المسألة الشرقية» الذي كان يعني كيفية التعامل مع الوجود العثماني في «الشرق» بما في ذلك شبه جزيرة البلقان. وبهذا المعنى بقيت شبه جزيرة البلقان تدخل في الخرائط الأوروبية ضمن المصطلح الجديد «الشرق الأوسط» Middle East أو «الشرق الأدنى» Near East حتى نهاية الوجود العثماني هناك في ١٩١٣م وحتى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى في ١٩١٨م، التي انهارت فيها الدولة العثمانية وتمخّضت بعدها تركيا الجمهورية في حدودها الحالية التي احتفظت بجيب صغير في البلقان ضمّ عاصمتها البلقانية الأولى أدرنة.

وعلى حين أن النصف المسلم من سكان البلقان كانوا يعتبرون أنفسهم في دولتهم أو في «دار الإسلام» وكانوا بعيون الآخرين لا يختلفون عن «الأتراك» أو «العثمانيين» كان النصف الآخر المسيحي لا يشعر أن الدولة العثمانية دولته بل كان ينتظر الفرصة المناسبة للتخلص منها بالاستناد إلى وعود الدول الكبرى المجاورة (روسيا القيصرية والنمسا الهابسبرغية) التي كانت تسعى إلى التغلغل والتوسع في شبه جزيرة البلقان للوصول إلى بحر إيجه في الجنوب وإلى البحر الأدرياتيكي في الغرب.

ومن هنا بدأت تتشكل منذ مطلع القرن التاسع عشر أفكار ومشاريع «بلقانية» تدور حول «بلقان متحرر من العثمانيين» وتقوم على تقارب أو تحالف الكيانات الجديدة البلقانية (صربيا والجبل الأسود وبلغاريا واليونان) للتخلص من الحكم العثماني وتقاسم التركة العثمانية فيما بينها. وبعبارة أخرى أصبح الانتماء إلى البلقان الجديد والتفكير بأي تقارب أو اتحاد بلقاني بين هذه الكيانات يحمل في جوهره دافعاً للتخلص من الحكم العثماني وحتى من الوجود العثماني بالمعنى البشري والحضاري على اعتبار أن المسلمين في البلقان هم جزء من «التركة العثمانية»، وهو ما جعل المسلمين المدنيين الضحية الأولى لكل «حرب تحررية» منذ الثورة اليونانية في ١٨٢١م، وحتى الحرب البلقانية في ١٩١٢-١٩١٣م[1].

وفي هذا السياق بدأ الحديث في مطلع القرن التاسع عشر عن «فدرالية بلقانية» بعد التخلص من الحكم العثماني، وهي الفكرة التي أطلقها في نهاية ١٨٠٤م وزير الخارجية الروسي آدم تسارتوريسكي A.Czartoryski لتكون غطاء لهيمنة روسيا القيصرية على المنطقة، ثم حظيت بتأييد الشخصيات الديمقراطية المعروفة في أوروبا الغربية مثل فيكتور هوغو وغاريبالدي ومازيني وغيرهم، وأصبحت في نهاية القرن التاسع عشر شعاراً للحركة الاشتراكية الصاعدة «فدرالية الجمهوريات الاشتراكية البلقانية». وخلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر اتّبع أمير صربيا (التي كانت لاتزال اسمياً تابعة للدولة العثمانية) ميخائيل أوبرنوفيتش M.Obrenovic خلال سنوات ١٨٦٦-١٨٦٨م، سياسة «التحالف البلقاني» التي كانت تعني التواصل مع حكّام الكيانات الموجودة للعمل على التخلص من الحكم العثماني في البلقان. وفي هذا السياق عقد اتفاقية مع إمارة الجبل الأسود في ١٨٦٦م، للعمل على تحرير الصرب من الحكم العثماني

---

(١) للمزيد حول ذلك انظر الترجمة العربية التي صدرت مؤخراً لكتاب الباحث الأمريكي جستن مكارثي الذي يعتمد على الوثائق الروسية والعثمانية والأوروبية: جستن مكارثي، الطرد والإبادة - مصير المسلمين العثمانيين ١٨٢١-١٩٢٢م، ترجمة فريد الغزي، دمشق (دار قدمس) ٢٠٠٥م.

والنمساوي، بينما عقد اتفاقية سياسية مع اليونان في ١٨٦٧م، ثم اتفاقية عسكرية في ١٨٦٨م، وعقد اتفاقية صداقة مع رومانيا في ١٨٦٧م، لتسهيل وصول السلاح والعتاد إلى صربيا. ولكن إعلان صربيا والجبل الأسود للحرب على الدولة العثمانية في ١٨٧٦م، جاء مبكراً وعرّضهما للهزيمة مما اضطر روسيا إلى الدخول في حرب ١٨٧٧م، مع الدولة العثمانية أسفرت في مؤتمر برلين ١٨٧٨م، عن توسّع بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان على حساب الدولة العثمانية والاعتراف بالاستقلال الكامل لصربيا والجبل الأسود.

ومع هذا الانتصار نمت «الروح البلقانية» بين هذه الدول (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان) التي أصبحت تحمل روحاً معادية لكل ما هو عثماني في البلقان، وأخذت تستعد لجولة حاسمة تقضي فيها على الوجود العثماني في البلقان. وكما هو الأمر في ١٨٠٤م، فقد تدخلت روسيا في ١٩١٢م، لحضّ هذه الدول على «تحالف بلقاني» سياسي وعسكري ينهي الحكم العثماني في البلقان. وبعد التوصل إلى اتفاق أوّلي حول تقاسم التركة العثمانية اندلعت «حرب البلقان الأولى» في تشرين الأول ١٩١٢م، التي أدت إلى انتصار سريع لدول التحالف البلقاني (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان) على الدولة العثمانية، ولكن هذه الدول اختلفت حول تقاسم التركة العثمانية فاندلعت في كانون الثاني ١٩١٣م «حرب البلقان الثانية» بين بلغاريا من ناحية وصربيا واليونان من ناحية أخرى وانضمت إليها الدولة العثمانية لتستعيد بعض ما خسرته وكذلك رومانيا لتتوسع قليلا على حساب بلغاريا، وهو ما كرّسته معاهدة بوخارست ١٩١٣م[1].

وقد أثارت هذه الحرب المزدوجة اهتمام العالم لأسباب متعددة وكان من نتائجها تشكّل صورة نمطية عن البلقان استمرت حتى نهاية القرن العشرين.

---

(١) للمزيد حول الحرب البلقانية ونتائجها انظر ما صدر في ذكراها المئوية: توفيق طنوس، تاريخ الحرب البلقانية١٩١٢-١٩١٣م، تقديم وتعليق: محمد م.الأرناؤوط، بيروت (دار جداول) ٢٠١٣م.

فقد جاء إلى ميدان المعارك الصحفي الروسي الشاب ليون تروتسكي (قائد الجيش الأحمر بعد ثورة ١٩١٧م) ضمن الحماس السلافي في أوروبا الشرقية لـ «الحرب التحررية» التي يخوضها سلاف الجنوب للتخلص من الحكم العثماني، ولكنه صُدم هناك بالجانب المأساوي فيها بعدما شاهد المجازر التي ترتكب ضد المدنيين المسلمين في مكدونيا[1]. وقد دفعت هذه المآسي التي واكبت الحرب مؤسسة كارنيجي للسلام العالمي، التي كانت قد تأسست لتوها في ١٩١٠م، إلى إرسال لجنة لتقصي الحقائق مؤلفة من شخصيات بارزة في ١٩١٣م، جالت في البلقان ووضعت تقريراً مهمّاً نشر في ١٩١٤م، حين كان العالم قد انشغل بالحرب العالمية الأولى. ومن ناحية أخرى فقد أثارت هذه الحرب المزدوجة اهتمام بعض الكتّاب والصحفيين بعدما تحوّلت من حرب بلقانية- عثمانية نادت بتحرير «الأخوة الأرثوذكس من النير العثماني» إلى حرب بلقانية - بلقانية ارتكبت فيها مجازر بين «الأخوة الأرثوذكس» ضمن الصراع على تقاسم التركة العثمانية في البلقان، وهو ما أدى إلى تقسيم المقسّم والاستعداد لجولة أخرى في أول فرصة قادمة. ومن هنا فقد برز مع حرب البلقان المزدوجة في الصحافة العالمية تعبير «البلقنة» **Balkanization** الذي كان يُقصد منه الصراع على تقسيم منطقة متنوعة إثنياً وما يصاحب ذلك من مظاهر عنف بين الإثنيات أصبحت تعتبر من طبيعة المنطقة. صحيح أن مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩-١٩١٢٠م، رسم خريطة جديدة لدول البلقان (بلغاريا واليونان وألبانيا ويوغسلافيا ورومانيا) إلا أن هذه الحدود المفروضة كانت تؤجّج رفض بعض الدول لها (بلغاريا وألبانيا)، وهو ما سمح لقوى كبرى (إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية) بتأجيج هذه المشاعر لرسم خريطة جديدة للبلقان تنسجم مع مصالحها.

(1) The War Correspondence of Leon Trotsky- The Balkan Wars 1912 - 1913,New York-London (Pathfinder) 2001.

ومع اكتشاف تروتسكي لطبيعة هذه الحرب فقد برزت بعد ثورة ١٩١٧م في روسيا نزعة قوية لتشكيل صورة أخرى عن البلقان مع تأسيس الأممية الثالثة في موسكو ١٩١٩م، التي ضمّت الأحزاب الشيوعية في المنطقة. وهكذا فقد اجتمعت الأحزاب الشيوعية في بلغاريا واليونان ويوغسلافيا في صوفيا في ١٩٢٠م، لتؤسّس «الفدرالية الشيوعية البلقانية» وذلك للعمل على تحقيق «الجمهورية البلقانية الاشتراكية السوفييتية الفدرالية». وهكذا برزت «روح بلقانية» أخرى وأخذت هذه «الفدرالية البلقانية» تنشر الحماس لفكرتها بعقد المؤتمرات السنوية ونشر دوريتها «الفدرالية البلقانية الشيوعية» حتى عام ١٩٣٣م، حين جاء التوجيه من موسكو بحلّها لأجل تحالف أوسع مع القوى الديمقراطية في المنطقة لمواجهة خطر الفاشية والنازية.

وبالفعل، فقد انتقلت «الروح البلقانية» في تلك السنوات من المجال الإيديولوجي إلى المجال السياسي، حيث برزت نزعة جديدة بين الدول القائمة على تعزيز العلاقات بينها في مختلف المجالات تعبيراً عن الشعور بالخطر من تدخلات إيطاليا وألمانيا لرسم خريطة جديدة للبلقان. فخلال المؤتمر الدولي السابع للسلم في أثينا ١٩٢٩م، برزت الدعوة إلى عقد مؤتمر بلقاني للنظر في توحيد الشعوب البلقانية. وبالفعل انعقد المؤتمر الأول في أثينا خلال ١٩٣٠م، الذي بحث في توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية والمواصلات والسياحة بين دول البلقان وانتهى إلى وضع قانون أساسي للمؤتمر البلقاني الذي أخذ شكلاً تنظيمياً مشابهاً لعصبة الأمم. وقد انعقد هذا المؤتمر في السنوات اللاحقة بانتظام (استانبول ١٩٣١م، وبوخارست ١٩٣٢م، وسالونيك ١٩٣٣م) ليتوّج في ١٩٣٤م، بعقد «الحلف البلقاني» بين اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا الذي هدف إلى الحفاظ على الحدود القائمة. ومن الواضح هنا أن غياب بلغاريا وألبانيا كان يشير إلى عدم تسليمهما بالحدود الموجودة، وهو ما سمح لإيطاليا وألمانيا بالتغلغل في المنطقة. ومع صمت دول «الحلف

البلقاني» على الاحتلال الإيطالي لألبانيا في نيسان ١٩٣٩م، جاءت الحرب العالمية الثانية لتطيح بدول «الحلف البلقاني» وترسم خريطة جديدة للبلقان ظهرت فيها «بلغاريا الكبرى» و«ألبانيا الكبرى» و«كرواتيا الكبرى» على حساب مملكة يوغسلافيا (١٩١٨-١٩٤١م).

ولكن «الروح البلقانية» ظهرت من جديد خلال «حروب التحرير» التي قادتها الأحزاب الشيوعية التي حظيت بدعم موسكو الإيديولوجي ودعم الحلفاء بالسلاح لمقاومة الاحتلال الألماني الإيطالي للبلقان. فقد أظهر تيتو بعدما تولّى قيادة الحزب الشيوعي اليوغسلافي في ١٩٣٦م، تفهّماً أكبر للمكوّنات الإثنية ليوغسلافيا وانفتاحاً على علاقة أوسع مع ألبانيا وبلغاريا واليونان، وهو ما بعث الحديث ثانية عن «الفدرالية البلقانية» بين الأحزاب الشيوعية في المنطقة. ومع انبعاث «جمهورية يوغسلافيا الفدرالية» في ١٩٤٥م، توثّقت العلاقات مع ألبانيا وبلغاريا وكادت ألبانيا أن تنضم إلى الفدرالية اليوغسلافية في ربيع ١٩٤٨م، لولا تدخل الاتحاد السوفييتي نظراً لأن ستالين أصبح يرى في «الفدرالية البلقانية» غطاء لدور متزايد لتيتو في البلقان، وهو ما أدى في صيف ١٩٤٨م، إلى شن حرب إيديولوجية ضد «التيتوية» أدت إلى عزل يوغسلافيا عن جوارها البلقاني حتى وفاة ستالين في ١٩٥٣م.

إلا أن «الروح البلقانية» التي ظهرت في أثينا عام ١٩٢٩م، كانت قد أعطت ثمرة متواصلة بقيت تمثّل هذه الروح على الرغم من التقلبات السياسية، ألا وهي «الألعاب البلقانية» التي هدفت إلى تعزيز العلاقة بين شعوب البلقان. ففي ذلك العام عقدت في أثينا أول دورة للألعاب البلقانية شارك بها رياضيون من اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا وتركيا، وقد استمرت هذه الألعاب بشكل سنوي إلى ١٩٤٠م، حين امتدت عمليات الحرب العالمية الثانية إلى البلقان إثر الهجوم الإيطالي على اليونان عبر ألبانيا. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية واستقرار الحدود من جديد عادت «الألعاب البلقانية»

تجمع شعوب المنطقة منذ ١٩٤٦م، واستمرت حتى مطلع ثمانينيات القرن العشرين، حين توترت الأوضاع في يوغسلافيا بعد وفاة تيتو في ١٩٨٠م وانتهت إلى انهيارها.

وقد أثارت حروب يوغسلافيا (١٩٩١-١٩٩٩م) اهتمام العالم من جديد بالبلقان والبلقنة نظراً لما صاحب ذلك من عنف متبادل ومجازر بين الأطراف المتنازعة وما انتهى إليه ذلك من تقسيم يوغسلافيا إلى سبع دول جديدة. وبالمقارنة مع حروب ١٩١٢-١٩١٣م، التي كانت فيها أوروبا منقسمة فكرياً وسياسياً فقد اندلعت حروب البلقان الجديدة ١٩٩١-١٩٩٩م، في الوقت الذي كان فيه الغرب يتحوّل إلى منظمة سياسية وقيمية جديدة بعد نهاية الحرب الباردة، ويتردد في التدخل بحجج مختلفة. وهكذا على حين أن مؤسسة كارنيجي سارعت في ١٩١٣م، إلى إرسال بعثة تقصي للحقائق نجد أنه في هذه المرة اكتفت بإعادة نشر ما أصدرته عن حرب البلقان في ١٩١٢-١٩١٣م، مع مقدمة جديدة للدبلوماسي الأمريكي المخضرم جورج كينان ترسّخ الصورة النمطية عن الطبيعة الخاصة للبلقان التي تجعله «مختلفاً» عن بقية الغرب[١]. وبالاستناد إلى ذلك أمكن لصحفي أمريكي معروف مثل روجر كوهن R.Cohen أن يعلّق على القتل المتبادل في البلقان بالقول «إنّ فكرة قتل الناس لأمر ما حدث في ١٤٩٥م، غير واردة في الغرب ولكنها واردة في البلقان»[٢].

إن هذه الصورة النمطية عن البلقان التي هي جزء من المعرفة الموجودة في الغرب عن البلقان تقودنا إلى التبلقن Balkanism الذي يعدّه البعض جزءاً

---

(1) The Other Balkan Wars, A 1913 Carnegie Endowment Inquiry in Retrospect with a New Introduction and Reflections on the Present Conflict by George F. Kenan, Washington (Carnegie Endowment) 1993.

(2) Roger Cohen, «A Balkan Gyre of War, Spining Onto Film», New York Times, 12.03.1995, p.4.

من الاستشراق Orientalism الذي هدف أيضاً إلى خلق عالم متخيّل عن البلقان لخدمة سياسات معينة. وفي الواقع لقد بدأت المعرفة الأورربية الجديدة بشبه جزيرة البلقان، وبالتحديد بتاريخه وشعوبه ولغاته وثقافاته، في الوقت الذي كان فيه البلقان جزءاً من الشرق وفي الوقت الذي بدأ فيه تطور الاستشراق في أوروبا الغربية. ومن هنا قد يكون لدينا نوع من التداخل بين هذين الحقلين المعرفيين. وفي الوقت الذي يميّز فيه البعض الاستشراق الألماني أو الاستشراق النمساوي باعتباره أقل تسيّساً من الاستشراق الفرنسي والهولندي والبريطاني باعتباره يخلق معرفة معينة عن الشرق تخدم مراكز القرار في تلك الدول، فإن الاهتمام النمساوي- المجري بالبلقان أو التبلقن لم يكن مختلفاً عن ذلك إذ إنه كان يساعد مراكز القرار في فيينا على سياستها الجديدة للسيطرة على غرب البلقان. وليس أدلّ على ذلك من ريادة فيينا في الدراسات الألبانية Albanology، وهي فرع من التبلقن، التي أدت إلى اعتبار خلق دولة أوروبية بغالبية مسلمة (ألبانيا) مصلحة استراتيجية عليا لفيينا حتى إنها كانت على استعداد لخوض حرب أوروبية في ١٩١٣م، لفرض ذلك[1].

ومن هنا، ومع تردّد الغرب في التدخل لإيقاف المجازر في حرب البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥م، بحجج تقوم على «بلقان متخيل» تقرّ باختلافه عن بقية أوروبا/ الغرب لم تتردد الباحثة اليوغسلافية الأمريكية ميليتسا باكيتش- هايدن عن القول في دراسة لها نشرت في ١٩٩٥م، بعنوان «تفريخ الاستشراق: حالة يوغسلافيا السابقة» بأن الخطاب الغربي المتعلق بالبلقان ماهو إلا وجه آخر للاستشراق «لأنّ ما يجعل التبلقن والاستشراق وجهين لعملة واحدة هو

(١) للمزيد حول ذلك انظر مقالتنا «تشكّل أول دولة أوروبية بغالبية مسلمة كاد أن يؤدي إلى حرب أوروبية في ١٩١٢-١٩١٣م» المنشورة على الموقع الإلكتروني لمنتدى العلاقات العربية والدولية بتاريخ: ١٨/ ٦/ ٢٠١٤م.

أسلوب إعادة إنتاج المعرفة الذي يشكّل الأساس المشترك لهما»[1]. ومع ذلك ترفض الباحثة البلغارية الأمريكية ماريا تودوروفا في كتابها القيّم «البلقان المتخيل»، الذي تقرّ في مقدمته بتأثرها الكبير بإدوارد سعيد، التطابق بين التبلقن والاستشراق على اعتبار أن البلقان له تاريخ مشترك وحدود ملموسة أكثر من الشرق المختلف في تاريخه والمختلف في حدوده[2].

إنّ هذا الكتاب يصدر الآن في لحظة مهمّة بالنسبة للعرب وشعوب البلقان. فخلال السنوات الأخيرة «نضج» البلقان بما فيه الكفاية ليتخلص من البلقنة بمساعدة الاتحاد الأوروبي الذي أصبح يرى أن من مصلحته دمج دول البلقان بالتدريج في الاتحاد الأوروبي تبعاً لما تنجزه من تقدم في الإصلاحات التي تقرّبها من معايير الاتحاد في الديمقراطية والأقليات وحل النزاعات بالحوار والتفاوض وليس بالحروب، وأصبحت معظم دول البلقان إما عضوًا (اليونان وسلوفينيا وبلغاريا ورومانيا) أو مرشحة للعضوية (تركيا ومكدونيا وصربيا والجبل الأسود وألبانيا). وليس بالصدفة أن منح ألبانيا وضعية «دولة مرشحة» جاء بالإجماع في حزيران ٢٠١٤م، أي في الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى التي كانت ألبانيا من أسبابها. ولكن في الوقت الذي يبدو فيه البلقان قد تخلص من البلقنة تبدو المنطقة العربية أكثر من أي وقت مضى ضحية للبلقنة بشكل أسوأ مما حدث في بلاد المنشأ لهذا المصطلح (البلقان). ومن هنا يأمل المؤلف أن يفيد هذا الكتاب بشيء.

وأخيراً، لابد هنا من توضيح أن فكرة هذا الكتاب ولدت ضمن التحضير لأول ندوة دولية عن العلاقات العربية البلقانية بمبادرة من منتدى العلاقات

(1) Milica Bakic - Hayden, «Nesting Orientalism: The Case of Former Yugoslavia», Slavic Review 54, 1995, pp.917 - 931.

(2) Maria Totodorova,Imagining the Balkan, Oxford (Oxford University Press) 1997, pp.25 - 38.

العربية والدولية في الدوحة (١٩-٢٠ تشرين الأول ٢٠١٤م)، وسعت لتقديم مادة مفيدة عن المنطقة في تحولها من الشرق إلى الاهتمام في دولها الجديدة بالشرق بواسطة تكوين معرفة جديدة تفيد بتعزيز العلاقات البلقانية العربية الجديدة التي تنامت في القرن العشرين لاعتبارات عديدة وأثمرت علاقات جديدة بعد انتهاء الحرب الباردة. ولا بدّ لي هنا من أن أشكر الصديق د. محمد الأحمري مدير المنتدى على اهتمامه بالكتاب وملاحظاته على التصوّر الأوّلي ليكون الكتاب أكثر فائدة للقارئ العربي.

والله من وراء القصد.

ميشن فييهو

كاليفورنيا

٥ آب ٢٠١٤م

القسم الأول

الشـــــرق

بلغراد «بوابة الشرق» في أوروبا
حتى نهاية القرن التاسع عشر

مع اجتياح القوات العثمانية لشبه جزيرة البلقان منذ منتصف القرن الرابع عشر بدأت تتداعى الدول البلقانية من الشرق إلى الغرب تباعا (بلغاريا وصربيا والبوسنة) حتى أصبحت الدولة العثمانية في مواجهة دولة المجر القوية التي كانت تمتد حدودها حتى قلب البلقان. وضمن هذا الامتداد فقد جدّدت المجر في الموقع الاستراتيجي حيث يصب نهر السافا في نهر الدانوب القلعة الضخمة التي اشتهرت باسم بيوغراد أو بلغراد (القلعة البيضاء) منذ الحكم البلغاري للمنطقة في القرن التاسع، ولكن مع الزمن عُرفت أيضاً باسم «مفتاح المجر» دلالة على أهميتها. وقد أدرك العثمانيون أهميتها هذه فقام السلطان سليمان القانوني إثر وصوله إلى العرش بتنظيم حملة قوية لحصار بلغراد بالجيوش والأساطيل استمرت أكثر من شهر حتى تمكّن منها في ٢٩ آب ١٥٢١م. وقد أكد الفتح العثماني دلالة لقب القلعة «مفتاح المجر» لأنه بعد هذا الفتح اندفعت الجيوش العثمانية نحو العمق المجري لتنتصر في معركة موهاتش ١٥٢٦م وتفتح العاصمة المجرية بودا نفسها. والمهم هنا أن بلغراد تحولت بسرعة من قلعة حدودية إلى مدينة شرقية وإلى واحدة من أكبر المدن في البلقان[1].

(1) B. Djurdjev, ‹Belgrade›, Encyclopadedia of Islam, new edition, vol. II, Leiden 1995, pp.11631165-.

وللمزيد حول ذلك انظر كتابنا: تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) ١٩٨٧م.

كان لمركز بلغراد، الذي يقع في أهم تقاطع للطرق البرية والنهرية، دور كبير في نموّها السريع كمركز تجاري وثقافي وعمراني. فعبر هذا المركز كانت تنطلق الطرق البرية إلى الشرق باتجاهين مختلفين: كان الأول ينطلق من بلغراد إلى سالونيك ومن هنا عبر البحر إلى الموانئ المصرية والسورية، بينما كان الثاني ينطلق إلى صوفيا ومنها إلى استانبول التي كانت توصل بدورها إلى دمشق والحجاز. ومن ناحية أخرى كان يلتقي في بلغراد نهر السافا مع الشريان الحيوي لأوروبا الشرقية (نهر الدانوب) الذي كان يصبّ في البحر الأسود مما كان يتيح لبلغراد أن تتواصل مع عدد كبير من الموانئ والمدن. ومن بلغراد كانت تنطلق الطرق شمالاً إلى النمسا وبولونيا وغرباً إلى موانئ البحر الأدرياتيكي ومنها إلى غرب أوروبا وشمال أفريقيا. وبفضل هذا الموقع تحولت بلغراد إلى مركز تجاري إقليمي ودولي مهم بعد قرن واحد من الفتح العثماني. فقد ذكر الرحالة العثماني المعروف أوليا جلبي خلال زيارته في ١٦٦٠م، أنه كان يأتي كل سنة إلى بلغراد خمسة إلى ستة آلاف حمل من البضائع على الجمال والعربات من مصر ودمشق وصيدا وبيروت وبلاد فارس إلخ[1].

كانت بلغراد حين فتحها العثمانيون في ١٥٢١م قلعة ضخمة في ذروة تل تشتمل على ثكنة للجيش وبعض البيوت لإقامة القادة والمسؤولين المجريين، بينما كانت في الأسفل ضمن السور ضاحية تشتمل على سكان من المجر والصرب. ومع الفتح العثماني سمح السلطان سليمان للمجر بالرحيل إلى بلادهم بينما أمر بترحيل الصرب مع ثرواتهم وكنوزهم الدينية إلى استانبول. وكان من عادة العثمانيين عندما يفتحوا مدينة في البلقان أن يحوّلوا إحدى الكنائس فيها إلى جامع، وهو ما فعلوه يوم الفتح (الخميس ٢٩ آب ١٥٢١م) مع كنيسة الصرب «مريم العذراء» التي حُوّلت بسرعة إلى «جامع السلطان سليمان» ليتم فيها صلاة الجمعة في اليوم التالي، وهو ما يظهر في اللوحة الأولى التي

(1) Evlija Celebi, Putopis, prevod i komentar Hazim Sabanovic, Sarajevo (V. Maslesa) 1979, p.93.

لدينا عن بلغراد في ١٥٢١م[1]. ومن ناحية أخرى فقد أسهم الوضع الإداري في التطور السريع لبلغراد كمدينة، حيث كانت أولاً مركزاً لسنجق سمدرفو الذي يتبع باشوية بودا ثم أصبح بعد سقوط بودا في ١٦٨٦م مركزاً لباشوية تحمل اسمها: باشوية بلغراد[2].



بلغراد كما تبدو في العام الأول تحت الحكم العثماني (١٥٢١م)

وهكذا يمكن القول إن التطور العمراني الجديد بدأ في ١٥٢٣-١٥٢٤م حين بُني في ضاحية القلعة جامع فرهاد باشا، ثم بُني سنة ١٥٢٨م جامعان آخران: جامع أحمد آغا وجامع زين الدين آغا، كما بني قبل ١٥٣٦م جامع علي طيره. ونظراً لأن هذه الجوامع بنيت كأوقاف، فقد كان كل واقف حريصاً على

(١) جاء ذكر هذا الأمر في «يوميات حملة السلطان سليمان على بلغراد» حيث ورد فيها بتاريخ ٢٦ رمضان ٩٢٧هـ «بعون الله تمّ فتح قلعة بلغراد.. ومن القلعة رفع المؤذن الأذان»، وبتاريخ ٢٧ رمضان ٩٢٧ هـ «الجمعة دخل السلطان إلى بلغراد.. وتحولت الكنيسة التحتا إلى جامع»:
Ljubomir Nikcic, «Dzamije u Beogradu», Godisnjak grada Beograda 4, Beograd 1958, p.151.

(2) Dr Dusan J. Popovic, Beograd kroz vekove, Beograd 1964, p.62.

استمرار وقفه، على اعتبار أن التأبيد من شروط الوقف، ولذلك كان يُبنى عادة مع الجامع مدرسة وحمام وتقام إلى جوانبها دكاكين لكي تغطي الواردات منها نفقات المنشآت الأولى. ومن هنا كانت مثل هذه المنشآت الوقفية تشكل عادة نواة محلة تأخذ اسم الجامع. وهكذا يكشف إحصاء ١٥٣٦م عن وجود أربعة محلات للمسلمين تضم ٧٩ أسرة تحت القلعة بينما نجد ١٣٩ أسرة للمسيحيين موزعة على ١٥ محلة صغيرة، بينما انقلب الوضع في إحصاء ١٥٦٦م، حيث أصبح المسلمون يشكلون غالبية السكان في المدينة الجديدة المتنامية بسرعة: ٣٨٥ أسرة للمسلمين مقابل ٩٣ أسرة للمسيحيين. وفي هذا الإحصاء برز لدينا لأول مرة عنصر سكاني جديد (الغجر) الذين أخذوا ينتشرون في البلقان، حيث نجد هنا ٢٩ أسرة من الغجر[1]. وفي إحصاء ١٥٦٠م نجد أنه أصبح للغجر محلتان تقطنهما ٥٥ أسرة، كما برز اليهود لأول مرة كعنصر سكاني في المدينة ولو بشكل متواضع (٧) أفراد، بينما كشف إحصاء ١٥٧٢م عن وجود ١٩٢ أسرة للغجر و٢٠ أسرة لليهود، مـما كان يجعل بلغراد تتميز بكونها مفتوحة للأعراق والأديان[2].

كان المسلمون من مناطق مختلفة، ومن هؤلاء كان الأتراك لا يشكّلون إلا أقلية تتميز عن بقية المسلمين. وفي المقابل كانت أغلبية المسلمين من سلاف الجنوب (الذين يأتون في المرتبة الأولى) ومن الألبان. وإلى جانب هؤلاء نجد بين مسلمي بلغراد بعض العرب من المشرق وبعض المغاربة من شمال أفريقيا والشركس. ومع أن غالبية المسلمين كانوا من سكان البلقان الذين لا يربطهم بالأتراك إلا الدين فقد درجت العادة في الأدبيات الأوروبية على وصف كل

---

(1) Istorrija Beograda - Grad i njegovo staninstvo u XVI - XVII veku, knj.I, Beograd 1974, pp.380, 386.

وللمزيد عن هجرة الغجر إلى البلقان وصربيا انظر عرضنا لكتاب الباحث الصربي رايكو جوريتش «هجرة الغجر»: رحلة الغجر عبر التاريخ، مجلة «العربي»، عدد ٣٦٤، الكويت، ١٩٨٩م، ص١٨٣-١٨٩.

(2) Ibid., p.388.

مسلمي البلقان بـ«الأتراك» لكونهم «على دين الأتراك»، ولكن هذا المصطلح أسيء استخدامه لاحقاً للتخلص من المسلمين بحجة أنهم من الأتراك[1].

ويبدو أن الطاعون الذي أصاب بلغراد عدة مرات خلال النصف الثاني للقرن السادس عشر، وخاصة سنة ١٥٧٩م، قد حدّ من نمو عدد السكان فيها خلال تلك الفترة. وفيما بعد، مع بداية القرن السابع عشر، ازداد عدد السكان بسرعة مع النمو الجديد لبلغراد بملامح مدينة شرقية حتى أصبحت تشبه دمشق أو غيرها من مدن الشرق كما يقول المؤرخ الصربي د.بوبوفيتش[2].

ونظراً لأن هذا التمركز السكاني كان يمثّل أغلبية مسلمة وأقليات عدة (مسيحية ويهودية وغجرية إلخ) فقد كان من الطبيعي أن تتكامل هناك ملامح مدينة شرقية جديدة تمثّل الحضارة الإسلامية بملامحها العمرانية ومنشآتها الحضارية وثقافتها الجديدة التي وصلت إلى ذروتها في النصف الثاني للقرن السابع عشر حين زارها الرحالة العثماني أوليا جلبي، حين أصبحت بلغراد من أكبر المدن في أوروبا الشرقية ، وقدّم وصفاً دقيقاً عن المدينة وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم.

وقد سبق أوليا جلبي بعض الرحالة من أوروبا الوسطى والغربية الذين وجدوا فيها مدينة شرقية حتى شاع لقبها «بوابة الشرق» بين الرحالة الأوروبيين. فالرحالة م.برانشتر M.Pranshteter الذي زار بلغراد في ١٦٠٨م، يتحدث عن مدينة بملامح شرقية تضم ستين جامعاً. وقد جاء بعده الرحالة كيكله الذي زار بلغراد في ١٦٥٨م، حيث أشار بإعجاب إلى «الجوامع البديعة» التي تميز المدينة دون أن يذكر عددها. ومن بين الرحالة يتميز هـ.أوتندروف H.Otendrof الذي زار بلغراد عدة مرات خلال تلك الفترة باعتباره عضواً في فريق المفاوضات

---

(١) يعترف بوبوفيتش (المرجع السابق، ص٣٤٩) أن «شعبنا يعتبر كل مسلم تركيا. كان الأرثوذكس يسمّون المسلمين الذين يتحدثون بلغتنا «أتراكا»، بينما كان الأتراك قلة فقط في بلغراد وأغلبية المسلمين كانوا منّا قدموا من البوسنة، الذين كان الصرب لا يتفقون معهم إلا قليلا». ومع ذلك فقد أصرّ الأمير ميلوش على إخلاء الإمارة ثم بلغراد نفسها من هؤلاء «الأتراك».

(2) Popovic, Beograd kroz vekove, pp.64, 72.

النمساوي مع العثمانيين، حيث يرد في ماكتبه في ١٦٦٣م عن المدينة ذات الملامح الشرقية أنه كان فيها ستة وخمسون جامعاً كبيراً وحوالى عشرين مسجداً صغيراً[1].

وإلى تلك الفترة (١٦٦٠م) تعود زيارة أوليا جلبي لبلغراد التي أعجب بها وترك عنها وصفاً مفصّلاً. فقد تجوّل جلبي في بلغراد وزار الكثير من الجوامع والمساجد فيها ونقل وصفاً دقيقاً لما عليها من كتابات منقوشة تسجل من بناها وتاريخ بنائها، كما كانت له صلاته بالعاملين في الإدارة العثمانية بالمدينة الذين يفترض أن يكونوا قد أمدّوه بما يعرفونه أيضاً. وبالاستناد إلى ذلك ذكر جلبي أن بلغراد تضم ٢٧٠ جامعاً ومسجداً، مع أنه لم يسمّ منها سوى ٣٥ تقام بها صلاة الجمعة وثلاثة جوامع في القلعة بالإضافة إلى أسماء ١٢مسجدا، وهو ما أثار تحفّظ بعض الباحثين ومنهم حازم شعبانوفيتش H.Sabanovic الذي ترجم وحقق القسم الخاص بالمناطق اليوغسلافية من رحلة أوليا جلبي، حيث يرى أن بلغراد كانت تحتوي على ٧٠-٨٠ جامعاً على الأكثر. وفي المقابل يدافع الباحث الصربي ليوبومير نيكيتش Lj.Nikic عن العدد الذي ذكره جلبي في الترجمة التي اعتمد عليها (٢١٧ جامعاً ومسجداً). وفي الواقع أن نيكيتش في دراسته القيمة عن جوامع بلغراد نبّه إلى مسألة مهمة ألا وهي أن الرحالة الأوروبيين كانوا يحصون عدد الجوامع ببساطة من خلال عدّ المآذن، وبالتالي كانوا لا يميزون بين الجامع والمسجد على اعتبار أن المسجد عادة يكون أصغر وليس له مئذنة بالضرورة[2]، مع العلم أن جلبي يستخدم تعبير «محراب» الذي يشمل الجامع والمسجد.

وإلى جانب الجوامع تحدث جلبي بالتفصيل عن الحمامات التي كان يزداد عددها طرداً مع عدد الجوامع، حيث إن التقديرات في المدن الإسلامية تفترض وجود حمام لكل خمسة جوامع. وبالفعل نجد أنه قد بني في بلغراد أول حمام حوالى ١٥٢٣م، من قبل الصدر الأعظم بيري محمد باشا في إطار

(1) Nikcic,Dzamije u Beogradu, p.152.

(2) Ibid.

وقفه حين كان في بلغراد ٤-٥ جوامع. وفي وقت زيارة جلبي حين تحدث عن وجود ٣٥ جامعاً في المدينة نجد أن عدد الحمامات قد ارتفع إلى سبعة، أي بما ينسجم مع النسبة السابقة[1]. وفي وصفه لها يذكر جلبي أن حمامات بلغراد كانت مغطاة بالرصاص ويذكر أشهر الحمامات في المدينة: الحمام الجديد، الحمام الأوسط، حمام السلطان سليمان، حمام تشكور إلخ. وبالإضافة إلى حمامات المسلمين كان لليهود حمام خاص بهم. وإلى جانب الحمامات العامة كانت هناك الكثير من الحمامات الخاصة في البيوت. وحول هذه يذكر جلبي نقلاً عن أعيان المدينة أن عدد الحمامات البيتية وصل إلى سبعة آلاف[2].

وكانت الحمامات والجوامع تفترض مدّ أقنية لجرّ المياه النظيفة التي تصلح للوضوء والطهارة، وهو ما انعكس أيضاً على وجود عدد كبير من السبلان أو الأسبلة التي كانت تتدفق منها المياه النظيفة للشرب والتي كانت تميّز بلغراد أيضاً. وكانت هذه الأسبلة تتواجد في الطرقات وأمام الجوامع والمدارس والخانات وتُبنى عادة بالحجر المشذّب وتُزيّن بآية قرآنية وبيت شعري يؤرخ بناءها مع اسم واقفها. وخلال زيارته إلى بلغراد أفاد جلبي عن وجود ستمائة سبيل في المدينة كان أقدمها الذي بناه محمد باشا في ١٥٥٤م[3].

ومن المنشآت الحضارية الجديدة التي كانت تميّز بلغراد وغيرها من المدن الجديدة كانت «العمارة» imaret وهي التي اعتبرت أحد إسهامات العثمانيين في الحضارة الإسلامية[4]. وكانت هذه عبارة عن مطعم يقدم الوجبات المجانية لمن يحتاج إليها التي كانت تتألف عادة من رغيف من الخبز وصحن من الشوربة مع قطعة لحم، ولذلك اشتهرت عند الرحالة الأوروبيين بـ «مطاعم الشوربة». وقد تألفت «العمارة» من مبنى مغلق يضم قاعات تحتوي على طاولات ومقاعد

(1) Celebi, Putopis, p.85; Nikolic, Dzamije u Beogradu, p.90.

(2) Ibid.

(3) Celebi, Putopis, p.88

(٤) للمزيد عن هذه المنشأة انظر دراستنا: «تطور منشآت الوقف عبر التاريخ- العمارة/ التكية نموذجا»، مجلة أوقاف عدد ١، الكويت ٢٠٠١م، ص ٢٨-٣٨.

لتناول الطعام مع مطبخ وفرن ومخزن للمواد الأولية، وهي كانت عادة تبنى في إطار الأوقاف. وقد بنيت أول منشأة من هذا النوع في بلغراد عام ١٥٢٣م من قبل محمد باشا الذي بناها في إطار وقفه وبقيت تقدم الوجبات المجانية لمن يحتاج إليها حتى زيارة جلبي للمدينة. وقد بُنيت بعدها عمارة بيرم بك، إلا أنها كانت مغلقة خلال زيارة جلبي للمدينة(١).

ونظراً لأن المسلمين كانوا أصحاب أغلبية البيوت في المدينة فقد أسهمت هذه في إضفاء الطابع الشرقي على المدينة. وكان ازدهار التجارة بحكم الموقع الاستراتيجي لبلغراد قد أدى إلى بروز طبقة غنية من التجار في المجتمع التي حرصت على بناء بيوت كبيرة أو «سرايات» كما يسميها جلبي كانت تتميز بطابعها الشرقي. وقد أحصى جلبي خلال زيارته للمدينة ١٦٠ من هذه البيوت الكبيرة أو «السرايات»(٢).

وعلى ذكر التجارة وازدهارها في بلغراد فقد كان هذا مرتبطاً بالمنشآت الكثيرة التي بُنيت في إطار الأوقاف (الخانات والأسواق واستراحات القوافل). وكان الوزير بيري محمد باشا قد بنى أول استراحة للقوافل خلال ١٥٢١-١٥٢٣م لتقدم الخدمات المجانية للقوافل القادمة إلى بلغراد وبنى للإنفاق عليها عدداً من الدكاكين والمطاحن(٣). ومع ازدهار التجارة وتوسع بلغراد كثرت الأسواق في المدينة التي كان منها ما يجمع بين كل السلع (السوق الطويل) ومنها ما هو يتخصص بشيء معين (سوق السمك). وكانت هذه الأسواق مغطاة اتقاء للحر في الصيف والمطر والثلج في الشتاء، وهي التي كانت تثير إعجاب الرحالة الأوروبيين بطابعها الشرقي. وقد زار جلبي خلال وجوده في بلغراد السوق الطويل وذكر أن طوله يبلغ ثلاثة آلاف خطوة، وكان يمتد بالتحديد من جامع كبلوجي حتى سوق السمك(٤).

---

(1) Celebi, Putopis, p.88, 90.

(2) Ibid., p.85.

(3) Istorija Beograda I, p.395.

(4) Celebi, Putopis, p.88.

في هذه الأسواق كان الطابع الشرقي في كل مكان. فقد كانت المقاهي تنتشر هنا أيضا بعدما وصلت القهوة والمقاهي من دمشق إلى استانبول بعد الفتح العثماني لبلاد الشام في ١٥١٦م، ومنها انتشرت بسرعة في مدن البلقان[١]. وكما كان يحدث في المدن الأخرى نجد في بلغراد أن المقاهي تأخذ سمات اجتماعية أو إثنية. فقد كان للأروام أكثر من مقهى كما كان للأرمن مقهى خاص بهم.

وبالإضافة إلى القهوة فقد شاعت في هذه الأسواق الأطعمة والحلويات التي كانت معروفة في مدن الشرق الأخرى. فالرحالة الإنكليزي براون أشاد كثيراً بالخبز في بلغراد حتى وصفه بأنه ألذ خبز في أوروبا. ومن ناحية أخرى فقد امتدح الرحالة أوليا جلبي البقلاوة في بلغراد حتى إنه قال إنه لم يأكل مثلها لا في بلاد العرب ولا في بلاد فارس[٢].

في ذلك الوقت كان الزي الشرقي هو السائد في المدينة وأصبح المسيحيون يلبسون كالمسلمين مع بعض التفاصيل التي تميّزهم. فقد أصبح المسيحيون يلبسون الملابس المصنوعة من الأطلس والقطيفة والدامسك التي كانت تأتي من بلاد العرب، كما ساد بينهم الذوق الشرقي في ما يتعلق بالألوان. فقد كانت الألوان الرائجة هي الأحمر والليلكي والأزرق، بينما كان الأسود نادراً والأصفر غائباً. أما اليهود فقد كانوا يلبسون الزي الشرقي كالمسلمين ولكنهم كانو يضعون على رؤوسهم قلنسوة صفراء لكي تميّزهم عن غيرهم[٣].

كان المسلمون الذين يشكّلون غالبية السكان متمسّكين بدينهم كما وصفهم أوليا جلبي الذي اختلط معهم خلال زيارته للمدينة، وكانوا كلهم تقريباً على المذهب الحنفي باستثناء قلّة تتبع الطائفة البكتاشية التي كانت لها تكية في

---

(١) للمزيد حول وصول القهوة إلى البلقان وانتشارها هناك انظر كتابنا: من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، بيروت (جداول) ٢٠١١م، ص٥٣-٦٥.

(2) Celebi, Putopis, p.90.

(3) Popovic, Beograd, pp.94 - 95.

بلغراد[1]. وقد أشاد جلبي بنساء المسلمين في بلغراد ووصفهن بأنهن متدينات وعفيفات «مثل رابعة العدوية». وكان لهذا التمسك بالدين أثره على الفصل بين الرجل والمرأة في المجتمع حتى إن الفتيات، كما يذكر جلبي، كنّ لا يرين وجه رجل ولا يسمعن صوت أحد باستثناء والدهن[2].

ولكن من ناحية أخرى كان هذا التمسك بالدين له بعده الثقافي الاجتماعي خلال الاحتفالات بشهر رمضان والأعياد والموالد.

فقد جرت العادة أن تقوم قلعة بلغراد بإطلاق المدافع لتنبيه الناس إلى حلول شهر رمضان، الذي كانت حركة الأسواق فيه تتسم بالهدوء قبل الظهر بينما تتسارع كلما اقترب الإفطار الذي كان يتحول إلى مناسبة اجتماعية حيث يحرص الناس على دعوة أقاربهم ومعارفهم للإفطار. أما بعد الإفطار فقد كانت شوارع بلغراد تتحول إلى مسرح للاحتفالات. وقد نقل لنا الرحالة كيكله، الذي صادفت زيارته لبلغراد شهر رمضان، مشهد هذه الاحتفالات الليلية التي أطلق عليها «الكرنفالات التركية». فقد كان المسلمون يحتفلون في الشوارع بوضع الأقنعة المثيرة على وجوههم و«يسيرون ليلا بالأقنعة كما لدينا في الكرنفال»[3].

وفي نهاية شهر رمضان كان يحل عيد الفطر الذي يضفي على المدينة جواً خاصاً. فالعيد كان يبدأ مبكراً بالتوجه إلى المصلّى Musala خارج المدينة حيث كانت تقام صلاة العيد في المكان المخصص لذلك. وبعد العودة من المصلى كانت تبدأ الزيارات للمعايدة بين المسلمين. أما العيد الآخر (الأضحى) فقد كان يرتبط بالحج الذي كان له بعده الاجتماعي أيضاً. وعلى الرغم من أن بلغراد كانت تقع في أقصى طرف للدولة العثمانية إلا أن المسلمين كانوا لايتخلّفون

---

(١) عُرفت التكايا البكتاشية بجمال محيطها، ولذلك يذكرها جلبي هنا ضمن «متنزهات بلغراد»:
Celebi, Putopis, p.91

(2) Celebi, Putopis, pp.93 - 94.

(٣) وقد وصف ذلك أيضاً الرحالة براند شتيتر الذي زار بلغراد في ١٦٠٨م حيث قال إن المسلمين:
«في كل ليلة يأتون بأقنعة مختلفة، كبيرة وصغيرة، يلعبون بها ويتسلّون»:
Popovic, Beograd, p.114.

عن تأدية فريضة الحج. وكما يذكر كانيتس فقد كان المسلمون الراغبون في الذهاب للحج يجتمعون عند جامع البيرق ببلغراد لينطلقوا من هناك معاً في طريق الحج[1].

ومن المناسبات الاجتماعية المهمة في حياة المسلمين كان الاحتفال بالمولد النبوي الذي يطغى عليه الطابع الاجتماعي. فالاحتفال، الذي كان يدعى إليه الأقارب والمعارف ليستمعوا إلى بعض المنظومات الشعرية التي أصبحت شائعة عن سيرة الرسول محمد (ص) ويتناولوا الشربات sherbet أو الحلوى halva، لم يكن يقتصر على اليوم الذي ولد فيه الرسول بل كان يقام على مدار العام في مناسبات مختلفة (الاحتفال ببناء بيت جديد أو الشفاء من مرض إلخ). كما إن ختان الأولاد الذي يطلق عليه هنا «سُنّة» sunet تحول إلى احتفالية عند المسلمين تستمر عدة أيام تكاد تقترب من الأعراس. فقد كان رب الأسرة ينتظر نموّ أولاده حتى يقوم بختن ولدين أو ثلاثة مرة واحدة ويدعو للاحتفال بهذه المناسبة الأقارب والمعارف بالعشرات أو المئات حسب الحال، حيث كان يتخلّل ذلك الغناء والطعام والشراب. وبالإضافة إلى ذلك كان المسلمون يخرجون في عراضات بشوارع المدينة احتفاء بما يصلهم من أخبار عن فتح مدينة أو اعتناق أهلها للإسلام في الجوار الأوروبي[2].

ومن ناحية أخرى، فقد تحولت بلغراد حتى منتصف القرن السابع عشر إلى أحد مراكز الثقافة الإسلامية في البلقان نتيجة لانتشار المدارس والمكتبات والتأليف باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية). وكان التعليم يقوم أولاً على الكتّاب kuttab ثم على «المدرسة» medresa التي كان التعليم فيها يستمر عدة سنوات وتشمل العلوم الدينية واللغوية والأدبية، مما كان يتيح للمتخرجين فيها أن يواصلوا دراساتهم في مراكز العالم الإسلامي (استانبول والقاهرة ودمشق وبغداد إلخ). وفي ما يتعلق بالكتاتيب فقد كانت تبنى غالباً بجوار الجوامع من

---

(1) Divna Djuric-Zamola, Beograd kao orijentalni varos pod Turcima 1521 - 1867, Beograd (Muzej grada Beograda) 1977, p.25.

(2) Popovic, Beograd, p.115.

قبل الواقفين، ولذلك نجد أن أوليا جلبي يذكر عدد الكتاتيب مرادفاً لعدد الجوامع في المدينة (٢٧٠). أما في ما يتعلق بالمدارس فقد تأسّست الأولى قبل ١٥٤٨م ضمن الوقف الكبير الذي أقامه محمد باشا، وبرزت بعدها (حوالى ١٥٦٠) مدرسة بيرم بك ليصل عدد المدارس في منتصف القرن السابع عشر إلى ثمان. وكما يذكر أوليا جلبي فقد كانت أشهر هذه المدارس آنذاك مدرسة جامع العمارة ومدرسة بيرم بك[1].

في هذه المدارس كانت لدينا مكتبات تحتوي على مؤلفات في اللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية)، وفي بعض هذه المدارس كان هناك قسم داخلي يوفّر المنامة والوجبات للطلاب. ومن هذه المدارس برزت في القرن الثامن عشر مدرسة السلطان محمود التي كانت تحتوى على مبنى خاص للمكتبة وموظف خاص لإعارة الكتب، وهي ما تناولها فرمان سلطاني خاص في ١٧٤٢م. ويدل على المستوى الرفيع لهذه المدرسة الراتب الذي كان يتلقاه الأستاذ فيها (ستون اقجه يوميا)، والذي كان يوازي رواتب الأستاذة في أشهر مدارس استانبول. وخلال تلك الفترة (١٧٧٦-١٧٨٢م) كان عدد الطلاب فيها يتراوح مابين ٢٧- ٣٣ طالباً[2].

وبالإضافة إلى هذه المدارس العامة في مواد التدريس كان في بلغراد آنذاك حوالى تسع مدارس متخصصة في الحديث النبوي (دار الحديث). ويعيد أوليا جلبي ازدهار الاهتمام بعلم الحديث إلى قدوم شيخ الإسلام السابق عبد الرحيم أفندي مفتياً على بلغراد، حيث بقي هناك إلى وفاته[3].

وفي هذا الجو كان من الطبيعي أن يزدهر في بلغراد التأليف سواء في الأدب أو في العلوم الدينية واللغوية في اللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) كما في غيرها من كبريات المدن في البلقان (أدرنة وصوفيا وسراييفو وبريزرن). وفي هذا الإطار فقد قدّمت بلغراد شعراء ومؤلفين أصبحوا معروفين

---

(1) Celebi, Putopis, p.87; Istorija Beograda, p.414.

(2) Istorija Beograda I, p.672.

(3) Celebi, Putopis, p.88 - 87.

على مستوى الدولة العثمانية. فمنذ ١٥٦٤م دخل في مختارات الشعر العثماني شاعران مولودان في بلغراد ألا وهما نوري ووالي، وكان من المعاصرين لهما شاعر آخر هو زيني. وفي بداية الحكم العثماني كان أرسلان باشا (توفي ١٥٦٦م) معروفا كشاعر بلقب سناني أكثر من كونه إداريا على رأس سنجق بلغراد. وفي نهاية القرن السادس عشر اشتهر الشاعر جناني، وفي تلك الفترة لدينا أيضاً الشاعر صادق البلغرادي الذي اهتم به المستشرق النمساوي هامر وترجم بعض أشعاره إلى الألمانية. وفي منتصف القرن السابع عشر برز الشاعر نجمي البلغرادي الذي اشتهر بملحمته «الشاه والشحاذ». ومن أعظم الشعراء الصوفيين كان حبيبي البلغرادي من أتباع الطريقة المولوية الذي اشتهر بشروحه على مثنويات جلال الدين الرومي. ومن القرن السابع عشر لدينا أيضاً عدة شعراء من أبرزهم أميري البلغرادي، الذي تميّز بأشعاره الوجدانية وحضوره في عدة مختارات شعرية، كما برز في ذلك القرن القاضي محترم البلغرادي وحسيب أحمد جلبي وغيرهم[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض هؤلاء الشعراء اشتهر أيضاً في البلاد العربية وعلى رأسهم حسين باشا البلغرادي الذي نجد له ترجمة وافية في «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي. فقد وصفه المحبي أنه «واحد الدهر على الإطلاق.. ورأس الفضلاء في وقته » وأشار إلى أنه ولد في بلغراد عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م، حيث تابع دراسته وعُيّن قاضياً في المدينة وبعدها انتقل إلى القاهرة حيث توفي هناك في ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م[2]. وقد اختار له المحبي بعض أبيات له مع ترجمته بينما أورد قصيدة كاملة له في كتابه الآخر «نفحة الريحانة»[3].

---

(1) Istorija Beograda I, pp.614 - 617.

(٢) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، بيروت (دار صادر) د.ت، ج٣، ص٨٩-٩٠.

(٣) المحبي، نفحة الريحانة ورشحه طلاء الحانة، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، القاهرة، (دار إحياء الكتب العربية) ١٩٨٦م، ج٣، ص١١٧-١٢٠.

ولم تكن بلغراد حاضنة للشعراء بل للعلماء أيضاً الذين ألفوا في العلوم الدينية واللغوية وغيرها باللغات الشرقية. ففي ١٦٤٢-١٦٤٣م حلّ في بلغراد العام البوسنوي عبد الكمال الترافنيكي حيث فوجئ بوجود كبار العلماء فيها «الذين لا يجاريهم أحد في الدولة العثمانية». ومن أهم هؤلاء كان منيري البلغرادي، الذي خصّه الباحث المعروف حازم شعبانوفيتش بأفضل دراسة عنه وعن أعماله. ويستفاد من مقدمة كتابه «سلسلة المقربين» أنه كان أستاذاً في مدرسة محمد باشا في بلغراد، ويُعتقد أنه توفي حوالى ١٧١٦-١٧١٧م، ودفن في جوار جامع محمد باشا المعروف أيضا باسم «جامع العمارة»[1].

كان منيري البلغرادي يتمتع بشهرة كبيرة كعالم يتمتع بثقافة واسعة، وقد بقيت هذه الشهرة تصاحب اسمه إلى ما بعد وفاته حتى إن كاتب جلبي يعترف أنه لم يكن يضارعه أحد في عصره. وقد امتاز منيري بالجمع بين التدريس والإفتاء والعلم والأدب، ولكن لم يصل إلينا بسبب الحروب اللاحقة سوى بعض أشعاره ومؤلفاته. ومن هذه المؤلفات «سلسلة المقربين ومناقب المتقين» الذي يحتوي على سلاسل أهم الطرق الصوفية وسير لمئة وواحد وعشرين من مشايخ الطرق الصوفية الذين عاشوا في الأناضول والبلقان حتى نهاية عهد السلطان أحمد الأول (١٦١٧م) و«نصاب الانتساب وأدب الاكتساب» الذي يتناول فيه الأصناف أو النقابات التي كانت تنتشر في كل مدن البلقان وتلعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية[2].

ولكن هذا الوضع الذي حظيت به بلغراد حتى بداية النصف الثاني للقرن السابع عشر تقلب فجأة بسبب الحروب والصراع على بلغراد بين عدة أطراف مما جعل المدينة ومنشآتها الحضارية ضحية له خلال قرنين من الزمن.

فمع أن الدولة العثمانية كانت في مرحلة ضعف إلا أن الصدر الأعظم قرا مصطفى باشا أراد تحقيق الحلم العثماني بفتح فيينا في ١٦٨٣م، ولكن هذه

---

(1) Hazem Sabanovic, Knjizevnost Muslimana na orientalnim jezicima, Sarajevo (Svijetlost) 1973, pp.193201-; Istorija Beograda I, p.419.

(2) Sabanavic, Knjizevnost, pp.199 - 200.

المحاولة ارتدت بالخسارة على الدولة العثمانية التي تحولت منذ تلك السنة من الهجوم إلى الدفاع. فقد انتقل الجيش النمساوي من الدفاع إلى الهجوم وأجلى العثمانيين عن المجر في ١٦٨٦م، ثم تابع توغله في الأراضي العثمانية ليسيطر على بلغراد ومن ثم على نيش ليهدد بذلك العاصمة العثمانية. ومع أن صلح كارلوفتز ١٦٩٩م، الذي يعتبر بداية النهاية للدولة العثمانية، أعاد بلغراد إلى الدولة العثمانية إلا أنها أصبحت بذلك قلعة/ مدينة حدودية لتمثّل بذلك «بوابة الشرق» بالمعنى الحدودي أيضاً[1].

وعلى الرغم من رفع العلم العثماني على قلعة بلغراد إلا أن الوجود العثماني في المنطقة لم يعد مستقراً، وهو ما انعكس على منشآت المدينة وسكانها الذين بقوا يتخوفون من عودة الجيش النمساوي. وبالفعل شنّت النمسا الحرب على الدولة العثمانية في صيف ١٧١٧م وأرغمتها على التخلي عن بلغراد مرة أخرى. ولكن في هذه المرة سعت فيينا إلى تغيير سريع لبنية المدينة ومظاهرها. ففي أول إحصاء للمدينة نجد أن المسلمين اختفوا تقريباً حيث لم يبق منهم سوى ٣١ أسرة بينما سعت فيينا إلى تعزيز الوجود الألماني والكاثوليكي في بلغراد حتى أصبح يشكل حوالى ٥٠٪ من سكان المدينة. ولتعزيز ذلك الطابع الألماني الكاثوليكي أمرت الإدارة النمساوية الجديدة بـ«هدم المباني القديمة وغير المستعملة» وأخذت عشرة جوامع كبيرة مبنية من الحجر لتستخدمها لأغراض مختلفة كما منحت عدة جوامع للجماعات الكاثوليكية التي جاءت المدينة لتحولها إلى كنائس. وهكذا يكشف إحصاء ١٧٢٨م عن وجود ١٧ جامعاً في بلغراد الدانوبية/ الألمانية كانت أربعة منها تستخدمها الإدارة النمساوية لأغراض مختلفة وسبعة منها تحولت إلى كنائس كاثوليكية[2].

---

(1) Popovic, Beograd, p.134.

(2) Ibid., p.149.

يوضّح هنا المؤرخ بوبوفيتش (ص١٤٥) مآل هذه الجوامع في هذه الفترة حيث يقول أن واحداً منها حُوّل إلى مستشفى ثم إلى ملك خاص وواحد منها استعمل كمخزن للملح وثالث إلى مخزن للعتاد العسكري ورابع إلى مسرح تُعرض فيه الكوميديات الخ.

وكانت الإدارة الجديدة قد اتخذت منذ ١٧١٨م قراراً بأن تكون بلغراد المطلّة على الدانوب أو الدانوبية خاصة بالسكان الذين يتكلمون الألمانية ويعتنقون الكاثوليكية. وكان هذا القرار حسب توجيهات الإمبراطور النمساوي نفسه الذي كان مهتماً ببلغراد التي كان يعتبرها «السور الأول للمسيحية»، ولذلك «يجب أن تكون القومية الألمانية هي السائدة في كل عهد، سواء من حيث العدد أو من حيث وجودها في السلطة». وقد تأخر تطبيق هذا القرار حتى ١٧٢٦م حين تمّ ترحيل السكان الأرثوذكس بالقوة من هذا القسم إلى القسم الآخر المطل على نهر السافا. وبسبب هذه الإجراءات فقد أصبحت بلغراد بغياب كامل للمسلمين تشتمل على حوالى عشرة آلاف نسمة بينما كان عددها قبل ذلك يصل إلى حوالى مئة ألف. ومن هنا حقّ للرحالة دريش الذي زار بلغراد في ١٧١٩ أن يقول «من شاهد بلغراد في عهد الأتراك ويعود لمشاهدتها اليوم لا يمكن أن يقول أبداً أن هذه المدينة هي بلغراد السابقة»[1].

ومع الحرب الجديدة التي اندلعت مع روسيا والنمسا خلال ١٧٣٦-١٧٣٩م، تمكّن العثمانيون من عقد صلح منفرد مع النمسا استردوا به بلغراد. وحسب «صلح بلغراد» في أيلول ١٨٣٩م، التزمت النمسا بهدم كل ما بنته في المدينة قبل انسحاب قواتها، ولذلك حين تسلّم العثمانيون المدينة في تموز ١٧٤٠م، كانت خالية من السكان الألمان والكاثوليك تقريباً بينما بقي فيها الأرثوذكس وبعض اليهود. وخلال فترة قصيرة استردت بلغراد طابعها الشرقي حيث تدفق إليها سكانها المسلمون وأعادوا بناء بيوتهم على الطراز الشرقي. ومن ناحية أخرى عاد إلى المدينة أيضاً بعض سكانها الأرثوذكس الذين عانوا من الحكم النمساوي حتى أصبح عدد الأرثوذكس يساوي تقريباً عدد المسلمين. فخلال تلك الفترة ارتفع بسرعة عدد السكان حتى أصبح حوالى عشرين ألفاً، أي ضعف ما كانت عليه بلغراد خلال الحكم النمساوي، وأخذت المدينة تسترد بالتدريج ملامحها السابقة[2].

---

(1) Nikcic, Dzamije u Beogradu, p.154.

(2) Popovic, Beograd kroz vekove, p.296.

ففي البداية تمّ استعادة الجوامع التي تحولت إلى مخازن وكنائس كاثوليكية[1] وترميم الجوامع التي تعرّضت للتخريب والإهمال. ويلاحظ هنا أن غالبية الجوامع القديمة أصبحت تعرف الآن بعد ترميمها وتأهيلها بأسماء من أعادوا بناءها أو رمّموها مثل جامع الشهادة الذي ذكره أوليا جلبي والذي أصبح يعرف الآن بجامع علي باشا. وبالإضافة إلى ذلك فقد بُنيت عدة جوامع خلال هذه الفترة مثل «جامع الفقراء» الذي بني قبل ١٧٥٨م وجامع الحاج لاز محمود الذي بني قبل ١٧٨٧م، كما إنه برزت الآن ثلاث تكايا للطرق البكتاشية والخلوتية والسعدية[2]. وبالاستناد إلى ذلك فقد ذكر كاتاميتش Katamic أن عدد الجوامع وصل في تلك الفترة إلى خمسين جامعاً «كانت تمنح بلغراد منظراً جميلاً للغاية»[3].

ومع أن النمسا انضمت إلى روسيا في الحرب ضد الدولة العثمانية في ١٧٨٧م ونجحت في السيطرة ثانية على بلغراد في ١٧٨٩م، بعد حصار وقصف عنيف للمدينة إلا أن الحكم النمساوي في هذه المرة كان عابراً (١٧٨٩-١٨٩١م) ومودعاً لبلغراد لأن مصير المدينة منذ ذلك الحين أصبح بين العثمانيين

(1) Nikcic, Dzamije u Beogradu, p.156.

هذه الجملة يسوقها بكلّ موضوعية المؤرخ الصربي ليوبومير نيكيتش في دراسته عن جوامع بلغراد التي نشرت في الخمسينيات. ولكن من المستغرب أن تأتي «موسوعة يوغسلافيا» بعد ربع قرن (ج١، ص٥٨٢) لتذكر إنه بعد تسلّم العثمانيين للمدينة «جرى تحويل كل الكنائس، باستثناء واحدة أرثوذكسية، إلى جوامع» دون أن تشير إلى أن هذه الكنائس كانت جوامع في الأصل. ومع التركيز على هذه العبارة لا تشير الموسوعة بكلمة واحدة إلى ما فعلته الإدارة النمساوية بالجوامع بعد سيطرتها على بلغراد في ١٧١٧م.

(٢) هذه التكايا الثلاث وردت في وقفية دفتردار بلغراد أحمد أفندي الذي يبدو أنه كان يتبع إحدى هذه الطرق. وقد خصّص من إيراد وقفه ٣٠ أقجه في اليوم لكل من الطريقتين السعدية والخلوتية و١٢ أقجة في اليوم للتكية البكتاشية لأجل توفير الطعام للدراويش فيها:

Istorija Beograda I, p.670.

وللمزيد حول الطريقة السعدية وتكاياها في المنطقة انظر دراستنا: «انتقال الطريقة السعدية من بلاد الشام إلى بلاد البلقان وحضورها هناك» في: الإسلام النائم- التصوف في بلاد الشام، دبي (مركز المسبار) ٢٠١٢م، ص٢٣٥-٢٥٤.

(3) Nikic, Dzamije u Beogradu, p.156.

والصرب الذي ثاروا على الحكم العثماني في ١٨٠٤م، وسيطروا على المدينة خلال ١٨٠٦-١٨١٣م.

وفي الحقيقة كان السلطان المصلح سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) الذي سعى إلى تحديث الدولة والتخلص من الجيش الانكشاري قد اختار باشوية بلغراد لتطبيق أفكاره الإصلاحية وأصدر عدة فرمانات أكدت على الحرية الدينية للمسيحيين وتقسيط الجزية وقيام المسيحيين أنفسهم بجمعها ومنع الانكشارية من دخول هذه الولاية. ولكن الانكشارية تحدوا السلطان ودخلوا الولاية وقاموا بقتل الوالي المصلح مصطفى باشا في ١٨٠٢م، وحاولوا أن يعيدوا الوضع كما كان عليه حتى إنهم قتلوا حوالى سبعين من أعيان الصرب في كانون الثاني ١٨٠٤م، وهو ما أدى إلى اندلاع الانتفاضة الصربية المسلحة في شباط ١٨٠٤م.

ومع أن الصرب احتفظوا في ذاكرتهم بعهد الوالي مصطفى باشا إلا أن الانتفاضة اتخذت بعداً دينياً ضد المسلمين في الولاية، مع أن غالبيتهم من سلاف الجنوب الذين لا يختلفون عن الصرب سوى في الدين، ولم تقتصر على التخلص من الحكم العثماني. وقد دفع هذا بالكثير من المسلمين إلى النزوح إلى بلغراد ولكن قوات الانتفاضة هاجمت بلغراد ليل ٢٩ تشرين الثاني ١٨٠٦م، مما دفع بمعظم مسلمي المدينة إلى الالتجاء إلى القلعة، ولم يوقف تعسف قوات الانتفاضة مع المسلمين إلا وصول قائد الانتفاضة قرا جورج الذي أمر بتخصيص جامعين للنساء اللواتي كنّ يتعرضن للتعسف وجمع من بقي حياً من المسلمين في عدة جوامع أخرى[1].

وبعد السيطرة على المدينة استمر الحصار على القلعة المليئة بالنساء والأطفال ثلاثة شهور إلى أن نفد الطعام وبدأ الموت من الجوع يهدد المحاصرين مما أدى بهم إلى الاستسلام في ٢٣ شباط ١٨٠٧م. وبعد السيطرة على القلعة قامت قوات الانتفاضة بتجميع كل المسلمين في المدينة لتنصيرهم بالقوة، حيث تشير المصادر إلى تنصير حوالى ستة آلاف من المسلمين وبضع

---

(1) Ibid., p.157; Popovic, Beograd, p.315.

مئات من اليهود. ومع ذلك لدينا ما يفيد باستمرار «أقلية صغيرة» من المسلمين بالاستناد إلى مصير الجوامع. فقد حولت الجوامع إلى كنائس ومخازن وبقاليات إلخ، بينما يشير كامينسكي Kamenski الذي عاصر هذه الأحداث إلى أنه لم يبق سوى جامع واحد «يمكن للأتراك أن يؤدوا فيه شعائرهم»[1].

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً لأن الدولة العثمانية استغلت انشغال روسيا (التي كانت تدعم الانتفاضة الصربية) بالحرب مع نابليون بونابرت خلال ١٨١٣م، وتمكنت بسهولة من استعادة السيطرة على باشوية بلغراد. ومع انتشار خبر التقدم العثماني وهروب زعيم الانتفاضة إلى روسيا أخذ الصرب بمغادرة المدينة بسرعة خوفاً من انتقام العثمانيين لما حدث فيها خلال ١٨٠٦-١٨٠٧م ولذلك أصبحت المدينة خالية تقريبا عندما وصلت إليها القوات العثمانية[2].

ومع قيام القوات العثمانية بجمع السلاح من الصرب في الولاية وملاحقة قادة الصرب تجددت الانتفاضة الصربية في نيسان ١٨١٥م بقيادة ميلوش أوبرنوفيتش Milos Obrenovic. ولكن في هذه المرة عبّر الطرفان عن مرونة انتهت بمنح الصرب نوعاً من الحكم الذاتي على قاعدة إصلاحات ١٨٩٣-١٨٩٤م، وإلى الاعتراف بميلوش «أميراً على صربيا»، الذي اتخذ من مدينة كراغويفاتس Kragujevac مقراً له. وقد تأكد هذا الاتفاق بإصدار السلطان العثماني عدة فرمانات في شباط ١٨١٦م تشمل العفو عن الصرب لما جرى في الماضي وتسهيل دفع الضرائب وغير ذلك باعتبار أن صربيا الوليدة بقيت تحت السيادة العثمانية[3].

---

(1) Nikcic, Dzamije u Beogradu, p.157; Popovic, Beograd, pp.315 - 316.

(٢) هكذا يصف حالة المدينة المؤرخ الصربي المعروف دوشان بوبوفيتش في كتابه الموسوعي «بلغراد عبر القرون» (بلغراد ١٩٦٤م، ص٣٢٦) حيث يؤكد أن «كلّ السكان تقريبا قد غادروا بلغراد»، على حين أن «موسوعة يوغسلافيا» (ج١، ص٥٨٢) تثير القارئ حين تذكر أن «المدينة كانت مليئة بجثث الصرب، بينما تمّ بيع النساء والاطفال كعبيد في أسواق بلغراد»! ومن الطبيعي هنا أن هذه الموسوعة لا تشير بكلمة واحدة إلى ما حدث سابقاً للمسلمين في بلغراد خلال ١٨٠٦-١٨٠٧م.

(3) Vladimir Stojancevic, Milos Obrenovic i njegovo doba, Beograd (ZUNS) 1990, pp. 49 - 50.

وفي هذه الظروف استعادت بلغراد خلال ١٨١٣-١٨٣٠م طابعها الشرقي الإسلامي، حيث قفز عدد سكانها إلى حوالي ٢٥-٣٠ ألفاً، وتمّ تأهيل حوالى ٣٠ جامعاً من جوامع المدينة بعدما أسيء استخدامها في السنوات السابقة. في هذه الفترة كانت غالبية المسلمين من سلاف الجنوب الذين لا يميزهم عن الصرب الأرثوذكس سوى الدين ويأتي بعدهم من حيث العدد الألبان بينما كان الأتراك أقلية صغيرة. ولكن الأمير ميلوش بعدما عزّز سيطرته في داخل صربيا أخذ يخطّط بتحويل بلغراد إلى عاصمة للإمارة الصربية تحت حكمه الوراثي، ولذلك أخذ يشجّع الصرب على الانتقال والسكن في بلغراد حتى أصبحوا يشكلون حوالى نصف السكان في ١٨٣٠م. وفي هذا الوضع سعى الأمير ميلوش بمختلف الوسائل، بما في ذلك رشوة كبار المسؤولين في استانبول، إلى انتزاع المزيد من التنازلات لصالح الإمارة الصربية[1].

ومع نجاحه في ذلك أصدر السلطان خطاً شريفاً بالغ الخطورة بالنسبة لمصير بلغراد ووجود المسلمين في صربيا. فقد أقرّ هذا الخط الشريف للأمير ميلوش بحق الوراثة في أسرته وأقرّ له بالحق في تشكيل قوة لحفظ النظام، ولكنه من ناحية أخرى وافق على ترحيل المسلمين من هذه الولاية/ الإمارة الصربية باستثناء أولئك الذين لهم علاقة مع القوات العثمانية التي بقيت في المدن والقلاع، ومنح المسلمين سنة واحدة فقط لبيع أملاكهم للصرب قبل رحيلهم. ومع الغضب الذي عمّ المسلمين أصدر السلطان خطاً شريفاً آخراً في ١٨٣٣م حدّد فيه فترة خمس سنوات (١٨٣٣-١٨٣٥م) لرحيل المسلمين من القرى حول المدن باستثناء بلغراد التي بقي فيها المسلمون يتبعون الوالي العثماني،

---

(1) Popovic, Beograd kroz vekove, p.333

يبدو حرص الأمير ميلوش على مد سيطرته على بلغراد بأي ثمن في كتابه إلى مندوبيه في استانبول خلال فترة الإعداد للخط الشريف في ١٨٣٠م: «لا توفروا المال، أعطوا لمن يملكون القرار مليون قرش بالإضافة إلى ماوعدوا به، وأما السلطان فعدوه بـ ٢٠٠ ألف قرش وأكثر»: المرجع السابق ص٣٣٣.

مما جعل عدد المسلمين في بلغراد نفسها يتناقص بسرعة لتصبح بالتدريج «مثل المدن الأوروبية الأخرى»(١).



لوحة تمثل ما بقي من بلغراد العثمانية في ١٨٤٦م.

وعلى الرغم من ذلك كان السخط واليأس من المستقبل يدفع بالمسلمين إلى الهجرة إلى الجوار العثماني بحثاً عن الأمان. ومع إنهاء فترة ترحيل المسلمين من صربيا في ١٨٣٣م، كان الوجود المسلم في بلغراد يبدأ في التقلص. ففي إحصاء ١٨٣٤م، كان المسلمون يشكلون ٦٠٪ من سكان المدينة بينما كان المسيحيون واليهود يمثلون ٤٠٪، ولكن من انتقال أجهزة الحكم الذاتي الصربي من كراغويفاتس إلى بلغراد في ١٨٤١ تجاوز الصرب لأول مرة نسبة الـ ٥٠٪ في ١٨٤٤م، بينما انخفضت نسبة المسلمين إلى ٣١٪ (٢).

---

(1) Istoria Beograda I, p.526.

(2) Ibid.

ومع ذلك فقد بقيت بلغراد بشكل عام تحتفظ بطابعها الشرقي المميّز. فقد بقي عدد الجوامع يقارب ٣٠ جامعاً مع أن أكثر من نصفها بقي مهملاً بسبب تقلّص عدد المسلمين في المدينة. وقد جعل هذا الطابع الشرقي الأخّاذ لبلغراد الذي يتميّز بـ «المآذن الجميلة والرشيقة تلمع تحت أشعة الشمس» تدخل تحت عنوان «أجمل مشاهد العالم» في «القاموس العام» الذي أصدره العالم ماير في ١٨٣٨م[1]. ففي تلك الفترة قامت الإدارة العثمانية بترميم وتجديد بعض الجوامع وترميم التكايا الأربع «إرضاء للسكان المسلمين»، وبقيت في المدينة حوالى عشرة خانات تستخدم لخزن وعرض البضائع التي تحملها القوافل من الشرق، حيث شوهدت في ١٨٥٤م آخر قافلة من الجمال تدخل بلغراد[2].

ولكن العلاقات بين الطرفين العثماني والصربي توترت من جديد مع صعود الحركة القومية الصربية التي أصبحت ضمن الأجندة الرسمية للإمارة الصربية التي تبنّت «مشروع غراشانين» منذ ١٨٤٤م[3]. وقد أدى حادث بسيط حول سبيل للماء في ٣ حزيران ١٨٦٢م إلى هجوم صربي مسلح سيطر على المدينة وردت القلعة العثمانية بما سمي «قصف بلغراد» مما أدى إلى تدخل القوى الكبرى التي توصلت إلى «بروتوكول ١٨٦٢م» في آب ١٨٦٢م. وحسب هذا البروتوكول فقد تمّ الاتفاق على ترحيل جميع المسلمين من الإمارة الصربية بما في ذلك مدينة بلغراد على أن يحتفظ الجانب العثماني بأربع قلاع في مدن الإمارة (بلغراد، شاباتس Sabac سمدرفو Smedrovo وكلادوفو

---

(1) Nikcic, Dzamije u Beogradu, p.158.

(2) Popovic, Beograd, p.403.

(٣) «مشروع غراشانين» نسبة إلى وزير الداخلية في إمارة صربيا إليا غراشانين الذي وضعه في ١٨٤٤م، وأصبح أساس السياسة الخارجية لصربيا حتى ١٩١٨م على الأقل. ويهدف المشروع إلى إعادة إحياء «صربيا الكبرى» بتوحيد المناطق التي يعيش فيها الصرب ضمن الإمبراطورتين العثمانية والنمساوية بدعم من الغرب (فرنسا وانكلترا) التي تفضل ذلك على توسع روسي في المنطقة. للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، عمّان (دار البشير) ١٩٩٣م، ص١٨٠-١٨١.

Kladovo). وقد التزم الطرف العثماني بالعمل على ترحيل المسلمين بالقوة، مع أن بعض المسلمين كانوا قد بدأوا مغادرة بيوتهم وأملاكهم قبل التوصل إلى البروتوكول[1].

وبعد التوقيع على البروتوكول جرت مباحثات بين الطرفين العثماني والصربي حول أملاك ومنشآت المسلمين في بلغراد. وكان الطرف العثماني قد أدخل في البروتوكول فقرة تسمح له بهدم جزء من بلغراد يحيط بالقلعة مع أن نصف سكانه من المسلمين بحجة الحفاظ على أمن القلعة. ولكن الممثل الصربي في استانبول كان يوضح في تقريره أن الحكومة العثمانية «أرادت ألا تقع الجوامع في يد الصرب... لكي لا يستغل المسلمون هذا التنازل ضد الحكومة». وهكذا بحجة الحفاظ على أمن القلعة قامت الإدارة العثمانية بهدم ٤٢٧ بيتاً (منها ٢٠٦ للمسلمين) وجامع السلطان مصطفى بينما هدم جامع علي باشا بعد ذلك. وفي ١٨٦٥م تمّ التوصل إلى اتفاق تدفع بموجبه الإمارة الصربية تسعة ملايين قرش كتعويض عن كل أملاك ومنشآت المسلمين في المدينة، وأعطى الإمارة «الحق بهدم الجوامع التي تعيق التنظيم الجديد للمدينة». وكما يقول كانيتس Kanic فقد كان هذا الاتفاق في الواقع يشمل كل جوامع المدينة باستثناء اثنين تمت التوصية بالحفاظ عليهما لمتانة بنائهما «ربما لتحويلهما إلى كنسيتين فيما بعد»[2].

وهكذا بعد صدام حزيران ١٨٦٢م والبروتوكول الذي نصّ على ترحيل المسلمين من المدينة أخذت ملامح بلغراد تتغير بسرعة مع رحيل المسلمين. فقد كشف الإحصاء الذي جرى في نهاية ١٨٦٢م على أن نسبة الصرب والمتصربين الأرثوذكس بلغت ٨٩٪ من سكان المدينة بينما وصلت نسبة الكاثوليك إلى ٩٪ والبروتستانت إلى ٢٪. وبين هؤلاء بقي أفراد من المسلمين بينهم طاهر

---

(١) حول الظروف الدولية التي أدت إلى بروتوكول ١٨٦٢ ودوره في تصفية المسلمين في صربيا. هناك تفاصيل موثقة في كتاب المؤرخ الصربي جيفوتا جورجفيتش:
Zivota Djordjevic, Cukur-Cesma 1862, Beograd (Nolit)1983, pp.255 - 277.

(2) Nikcic, Dzamije u Beogradu, pp.160 - 161

أفندي الذي أصبح موظفاً في الإدارة الصربية مع شيخ ومؤذن للجامع الوحيد الذي بقي في بلغراد (جامع البيرق) الذي تعهدت الإدارة الصربية بالإنفاق عليه حسب اتفاق ١٨٦٧م[١]. وحتى تلك السنوات، كما يذكر الباحث الصربي ف. ستويانتشفيتش V.Stojancevic، بقيت بلغراد تعتبر «بوابة الشرق» بالنسبة إلى الرحالة الأوروبيين[٢].

وقد سعى الأمير ميلوش بعد ذلك بكل الوسائل المؤثرة في استانبول لتسلّم القلاع الأربع في الإمارة الصربية التي بقيت القوات العثمانية مرابطة فيها، وهو ما نجح فيه عام ١٨٦٧م، بعدما أقنع السلطان بالإبقاء على العلم العثماني مرفرفاً عليها على أن تقوم القوات الصربية بالدفاع عنها باسم السلطان. وخلال السنوات اللاحقة التي بقي فيها العلم العثماني يرفرف عالياً أخذت بلغراد تتغير بسرعة مع التخلص من جوامع المدينة الأثرية بحجة «تنظيم المدينة» لتكتسب بالتريج طابعاً أوروبياً محضاً. وهكذا فقد زالت جوامع المدينة بالتدريج بينما حول أحدها (جامع بيرم بك) إلى معمل للغاز ملحق بمسرح المدينة. وقد بقي جامع فراتشار، أو «الجامع المهجور» كما أصبح يسمى، عدة سنوات أخرى في موقعه نظراً لقيمته الفنية حتى تمّ اقتراح ترميمه وتحويله إلى متحف أو مركز للوثائق، ولكنه هُدم أخيراً في ١٨٧١م ليبنى لاحقاً في مكانه مقر البرلمان الصربي[٣].

وقد بقي العلم العثماني يرفرف إلى جانب العلم الصربي إلى ١٨٧٦م حينما اندلعت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا التي انضمت صربيا إليها فأنزلت العلم العثماني أخيراً، وتتوج هذا باعتراف مؤتمر برلين باستقلال صربيا

---

(١) في موازنة الإمارة الصربية لسنوات ١٨٦٩-١٨٧٦م تم تخصيص مبلغ ١٢١٢، ٤٨ دينار صربي لـ «مساعدة الشيخ التركي» و٣٠٣، ١٢ ديناراً كتعويض سنوي للتدفئة و٦٣١، ٥٠ ديناراً لـ «إضاءة الجامع والحاجات الأخرى»:

Nikcic, Dzamije, p.161.

(2) Istorija Beograda I, p.530.

(3) Nikcic, Dzamije u Beogradu,p.162;Ljubomir Nikcic, «Prilozo beogradskih dzamije». GGB 7, Beograd 1960, p.149.

في ١٨٧٨م ضمن الحدود الجديدة التي ضمّت المزيد من المسلمين[1]. ومع التحسن العابر الذي طرأ على العلاقات العثمانية الصربية في نهاية القرن التاسع عشر قامت الحكومة الصربية بإصلاح الجامع الوحيد الذي بقي في بلغراد (جامع البيرق) في ١٨٩٣-١٨٩٤م، كما تثبت ذلك اللوحة التي بقيت معلقة على مدخل الجامع، وهو ما شجع بعض المسلمين على العودة والإقامة في بلغراد. وهكذا بقي هذا الجامع، كما يذكر الباحث الصربي أ.يوفانوفيتش A.Jovanovic في نهاية القرن التاسع عشر «يخدم المسلمين الذين يقيمون بشكل دائم في بلغراد والأجانب الذين يعبرون بلغراد»[2].

---

(١) ضمّ هذا التوسع أربعة أقضية من ولاية قوصوه (كوسوفو) كانت مأهولة بغالبية ألبانية مسلمة، ولكن اضطر قسم كبير منها إلى الهجرة نحو الجنوب خلال حرب ١٨٧٧-١٨٧٨. ومن هنا تضمنت معاهدة برلين بندين خاصين بصربيا والمسلمين، حيث جاء في البند (٣٥): «في صربيا لا يجوز أن يكون الاختلاف في الدين والعقيدة سبباً في منع أي شخص من التمتع بحقوقه المدنية والسياسية ومن العمل في الخدمة العامة»، بينما جاء في البند (٣٩): «المسلمون الذين لديهم أملاك في المناطق التي ضُمّت إلى صربيا ويرغبون أن يعيشوا خارجها يمكن لهم أن يحتفظوا بأملاكهم، وأن يقوموا بتأجيرها أو أن يقوم بإدارتها طرف ثالث».

Srbija 1878: Dokumenti, Beograd (Srpska Knjizevna Zadruga) 1978, pp. 569 - 570.

(2) Ljubomir Nikcic, "Autobiografia Anatasa Jovanovica,Godisnjak Muzeja grada Beograda 3, Beograd 1956, pp.385446-; Abdulah I.Hadzic, "Bajrakli dzamija u Beogradu", Godisnjak grada Beograda 3, Beograda 1957, p.96.

وبعدما أصبحت بلغراد عاصمة الدولة الجديدة (مملكة يوغسلافيا) في نهاية ١٩١٨م، قامت بلدية بلغراد بأول ترميم شامل للجامع في ١٩٣٠م بمناسبة تنصيب الشيخ إبراهيم مغلاييتش رئيساً للمشيخة الإسلامية في مملكة يوغسلافيا بموجب القانون الجديد الذي نصّ على كون بلغراد مقراً لها.وقد تعرّض الجامع لأضرار في ١٩٤٤م خلال المعارك لتحرير بلغراد من الحكومة الموالية لألمانيا، وهو ما تكفل بإصلاحه المجلس البلدي الجديد. ولكن في ١٩٤٦م وضع الجامع تحت حماية الدولة كبناء أثري وبقي مغلقاً حتى ١٩٦٢م، حين سُلّم للمسلمين بعد عقد مؤتمر قمة عدم الانحياز في بلغراد، حيث بقي منذ ذلك الحين الجامع الوحيد في بلغراد على الرغم من مطالبة المسلمين السلطات المختصة بالموافقة على بناء جامع آخر بسبب تزايد عددهم.

للمزيد عن ذلك انظر: الإسلام في يوغسلافيا، ص١٠٤-١٠٥.

أَوْرَبة البوسنة
خلال الحكم النمساوي
١٨٧٨-١٩١٨م.

كان لموقع البوسنة بين صربيا الأرثوذكسية وكرواتيا الكاثوليكية، التي تشترك معها في الخلفية الإثنية واللغة المشتركة، دوره الكبير في تحديد مصيرها والصراع الإقليمي حولها مع المجر والبندقية حتى وصول العثمانيين إلى حدود البوسنة في منتصف القرن الخامس عشر وتأسيسهم للنواة العمرانية (سراي بوسنة) التي تحولت لاحقاً إلى بلدة (سراييفو) ثم إلى أهم مدينة في البوسنة[١]. ومع الفتح العثماني لكامل البوسنة والهرسك[٢] على يد السلطان محمد الفاتح في ١٤٦٣م، جرى في البوسنة ما لم يجر في الدول المجاورة التي خضعت للدولة العثمانية: اعتناق غالبية السكان للإسلام خلال قرن من

---

(١) للمزيد حول نشوء سراييفو انظر دراستنا: دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة – سراييفو نموذجاً، مجلة «أوقاف» عدد ٨، الكويت ٢٠٠٥م، ص٤٧-٥٧.

(٢) مع الصراع الداخلي بين الأمراء أو حكام الأقاليم في البوسنة قام الأمير ستيفان فوكتشيفيتش كوساتشا حاكم إقليم هوم Hum في غرب البوسنة باتخاذ لقب دوق أو «هرتسغ» Herceg للدلالة على علو مكانته واستقلاله، وأصبح الإقليم الذي يحكمه يسمى «بلاد الهرسك» أو هرسغوفينا Hercegovina. ولكن بعد الفتح العثماني للبوسنة في ١٤٦٣م ثم بلاد الهرسك حتى ١٤٨٣م أصبحت الهرسك لواء من ألوية البوسنة، وفشلت خلال حرب البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥م محاولات كرواتية لإنشاء كيان مستقل للهرسك لتبقى الدولة رسميا تحمل اسم «جمهورية البوسنة والهرسك».

الزمن على حين أن أقلية السكان اعتنقت الإسلام في الدول المجاورة كصربيا والجبل الأسود وكرواتيا[1].

ومع هذا الاعتناق السريع نسبياً للإسلام، بالمقارنة مع الألبان الذين اعتنقت أغلبيتهم الإسلام خلال ثلاثة قرون تقريباً، انتشرت ثقافة جديدة وظهرت مدن جديدة تمثل هذه الثقافة مثل سرايفو Sarajevo وموستار Mostar وغورني وقف Gornji vakuf، وغيرها وتطورت بسرعة المدن الصغيرة الموجودة مثل ترافنيك Travnik وبانيا لوكا Banja Luka، وغيرها بملامح شرقية مع الجوامع والمدارس والتكايا والخانات والحمامات وغيرها، مما جعل البوسنة تبدو جزءاً من الشرق بالمعنى الحضاري والسياسي، باعتبارها أقصى امتداد للدولة العثمانية باتجاه الغرب. ومع انتشار الثقافة الإسلامية أصبحت غالبية السكان (المسلمون) يعتبرون البوسنة «دار الإسلام» في مواجهة «دار الحرب» في الجوار، على عكس الصرب والكروات الذين بقوا ينتظرون الخلاص من الدولة العثمانية. ومن المسلّم به أن موقع البوسنة كمنطقة حدودية بين العالمين (دار الإسلام ودار الحرب) قد عزّز أكثر الارتباط بالإسلام والدولة العثمانية حتى شاع أن البوسنة هي «حصن الإسلام» وأن المسلمين فيها هم «حرس الحدود» serhatlije الذين يدافعون عن «دار الإسلام» (الدولة العثمانية). وقد أسهم علماء البوسنة الذين برزوا لاحقاً في تعزيز مثل هذه المفاهيم مثل علاء الدين علي دده البوسنوي في «الرسالة الانتصارية» ومصطفى الاقحصاري في «تبشير الغزاة» وغيرهم[2].

---

(١) حول انتشار الإسلام في البوسنة لدينا دراسة مرجعية صدرت مؤخراً في العربية: نياز محمد شكريتش، انتشار الإسلام في البوسنة والهرسك في القرنين الخامس والسادس عشر، طرابلس (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) ١٩٩٥م.

وللمزيد انظر: محمد م. الأرناؤوط، «الإسلام والقومية في البلقان»، مجلة «دراسات تاريخية» عدد ٤٧-٤٨، دمشق ١٩٩٣م، ص١٢١-١٤٢.

(٢) للمزيد حول المؤلفين انظر: محمد بن محمد البوسنوي المعروف بالخانجي، الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة، تقديم وتعليق محمد م. الأرناؤوط، الكويت (مؤسسة البابطين) ٢٠١٠م، ص١٥٧-١٥٨ و٢٠٣-٢٠٤.

ولكن بعد فشل الحصار العثماني الأخير لفيينا في ١٦٨٣م، وتحوّل النمسا من الدفاع إلى الهجوم كانت البوسنة ضحية لارتباط الدين بالدولة، وبالتالي فإن وجودها في «الشرق» أو في «الغرب» كان يرتبط بوجود المسلمين فيها وما يرتبط بهم من مظاهر حضارية ترمز لهم سواء في المدن أو الريف. ففي الحرب النمساوية- العثمانية ١٧٣٧-١٧٣٩م، وجّه الإمبراطور كارل الرابع منشوراً إلى المسلمين في حزيران ١٧٣٧م، يخيّرهم بين أمرين: «من يرغب منهم باعتناق المسيحية يمكن لهم البقاء في أملاكهم، وأما الذين لا يرغبون بذلك فيمكنهم الهجرة إلى حيث يشاؤون»[١].

وخلال الحرب النساوية - العثمانية اللاحقة ١٧٨٨-١٧٩١م، وجّه الإمبراطور جوزف الثاني بياناً وعدهم باحترام الشعائر والمنشآت الإسلامية[٢]، ولكن المسلمين تلاشوا بسرعة في المناطق التي تخلّت عنها الدولة العثمانية للنمسا مع المنشآت التي تذكّر بهم وانتقلت بذلك من «الشرق» إلى «الغرب»[٣].

ومع هذه الهزائم على جبهات المعارك بادر السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٩٠٧م)، ثم السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) إلى تأسيس جيش حديث على النمط الأوروبي يحلّ محلّ الجيش الإنكشاري الذي تجاوزه الزمن. وفي الحقيقة كان تأسيس هذا الجيش الحديث أساس الإصلاحات الجديدة التي استلهمت التجربة الأوروبية وهدفت إلى تحجيم الزعماء المحليين في البوسنة (القباطنة)، الذين كانت لهم قواتهم الخاصة، والتي انعكست على الإدارة والقضاء والتعليم إلخ. ونظراً لأن الجيش الجديد ظهر بالملابس الأوروبية التي لم تكن مألوفة للمسلمين في البوسنة وغيرها، فقد اعتبرت القوى التقليدية هذه الإصلاحات نوعاً من «الأوربة» أو «التشبّه بالكفار»، ولذلك احتاج الأمر

---

(١) انظر نصّ البيان في:

M. Hadziahic - M. Traljic-S .Sukric, Islam i Muslimani u Bosni i Hercegovini, Sarajevo 1977, p.111.

(٢) نصّ البيان في المرجع السابق، ص١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١١.

إلى إرسال الوالي عمر باشا في ربيع ١٨٥٠م، لإجبار المسلمين في البوسنة على قبول الإصلاحات والخضوع للتجنيد في الجيش الجديد، وهو ما أدى إلى قتل ونفي الآلاف وتوتر العلاقات بين مسلمي البوسنة واستانبول[1].

ولامتصاص هذا السخط عمدت استانبول إلى معالجة الامر بالحكمة وأرسلت العالم والمؤرخ جودت باشا (١٨٢٢-١٨٩٥م) إلى البوسنة في جولة لتقصي الحقائق واقتراح الحلول المناسبة خلال ١٨٦٣-١٨٦٤م، حيث حرص على استقطاب بعض علماء الدين لتأييد الإصلاحات. وهكذا جرى في صيف ١٨٦٤م بحضور جودت باشا حفل في أحد ميادين سراييفو قريء فيه فرمان السلطان بتأسيس جيش نظامي جديد في البوسنة من أبناء البلاد، وحضره بعض العلماء لإضفاء الطابع الشرعي على ذلك. ومن هؤلاء كان مفتي موستار Mostar الشيخ مصطفى صدقي كارابك الذي فسّر الآية المعروفة في سورة الصف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[الصف: ٤] بأن الجيش النظامي الجديد هو الذي يمثّل «البنيان المرصوص»[2].

ومع نجاح هذه الخطوة بدأت ملامح سراييفو ومدن البوسنة تتغير بالتدريج مع ما صاحب الإصلاحات الجديدة خلال عهد الوالي المصلح توبال عثمان باشا، من تأسيس لمراكز الإدارة الجديدة والمدارس الجديدة والمحاكم وثكنات الجيش الجديد. وفي هذا السياق أسست في سراييفو أول مطبعة لطبع المنشورات والمطبوعات الحكومية وجريدة الولاية في اللغة البوسنوية بالحروف العربية. كما تبع ذلك إصدار أول جريدة خاصة على يد الصحفي

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن عمر باشا كان من سلاف البوسنة وخدم في الجيش النمساوي ثم اعتنق الإسلام وصعد في الهرمية العثمانية، ولم يخف في حديثه مع قنصل النمسا في البوسنة الهدف الحقيقي من هذه الاصلاحات: «هناك أسباب سياسية لا تستطيع الحكومة العثمانية من أجلها إلا أن تسير بتمهل شديد في مسألة إصلاح أحوال المسيحيين حتى لا تغضب المسلمين الذين تعتمد عليهم الدولة من حيث السند والقوة تماما»:

نويل مالكوم، البوسنة، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٧، ص١٦٥.

(2) Fikret Karcic, The Bosniaks and the Challenges of Modernity, Sarajevo (El - Kalem) 1999, p.50.

محمد شاكر كرتشهايتش (١٨٤٤-١٨٧٢م) التي جعلت المسلمين في البوسنة على صلة بالعالم (أوروبا) من حولهم[١].

ولكن الإصلاحات العثمانية الجديدة التي هدفت إلى المساواة بين المسلمين وغير المسلمين وخلق هوية عثمانية موحّدة لم تؤد إلى النتيجة المرجوة في البوسنة بسبب الدعاية القومية المتصاعدة من الجوار السلافي. فقد كانت كلٌّ من صربيا والجبل الأسود تعتبر البوسنة جزءاً من صربيا التاريخية وتعدّ المسلمين فيها صرباً مستتركين أو متعثمنين، كما إن كرواتيا المجاورة تعتبر البوسنة امتداداً لها وأن المسلمين فيها من «الكروات على الدين المحمدي». ولذلك فقد سعى كل طرف إلى استقطاب الغالبية بواسطة الدعاية القومية من خلال النصوص المدرسية والصحافة والكتب والمنح إلخ[٢].

ومن ناحية أخرى كانت النمسا والمجر بعدما تحولت إلى مملكة ثنائية بموجب دستور ١٨٦٧م، قد حدّدت مصالحها في البلقان نتيجة للمتغيرات في المنطقة. فقد أصبح من الأولويات بالنسبة لفيينا توسّعها في الجنوب (البلقان) وصولاً إلى ميناء سالونيك وتعزيز سيطرتها على الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي ومنع قيام دولة كبيرة لسلاف الجنوب (اليوغسلاف) لأن ذلك كان يهدّ استمرارها كإمبراطورية في المنطقة، وهو ما تطلب منها الاهتمام بالمنطقة والعمل على استقطاب نخبة من المسلمين سواء في البوسنة أو في ألبانيا[٣].

ولكن الأوضاع سرعان ما خرجت عن السيطرة خلال ١٨٧٤-١٨٧٨م. ففي ١٨٧٤م حلّ القحط في البوسنة وامتنع الفلاحون عن دفع الضرائب ثم

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن الوالي كان شاعراً يجيد العربية والتركية والفارسية ويتحدث الفرنسية واليونانية: مالكوم، البوسنة، ص ١٦٩.

(٢) روبرت ج. دينا وجون ف. فاين، التراث المغدور: اغتيال ماضي البوسنة، ترجمة أحمد محمود، القاهرة (المجلس الأعلى للثقافة) ١٩٩٨م، ص٧٢-٧٤.

(٣) يعبر الدبلوماسي النمساوي المخضرم والخبير في شؤون البلقان ثيودور ايبن Th. Ippen عن ذلك في مذكراته بالقول: «مع بوسنة ضمن النمسا والمجر ومع ألبانيا صديقة يمكن قطع الطريق على حلم الصرب بالوصول إلى السماء» أي بتحقيق دولة كبرى في غرب البلقان تضم البوسنة وألبانيا ومكدونيا:
Elena Kocaqi Levanti, Si e krujoi Austro- Hungaria shtetin shqiptar, Tirane 2012, p.21.

اندلعت في ١٨٧٥م انتفاضة الصرب في بعض أرجاء البوسنة بتحريض من صربيا المجاورة التي اتخذت طابعاً معاديا للسكان المسلمين وليس للإدارة العثمانية فقط، وهو ما أدى إلى انضمام بعض المسلمين إلى الجيش العثماني الذي قام بإخضاع هذه الانتفاضة في ١٨٧٦م. وقد أدى هذا إلى إعلان صربيا والجبل الاسود الحرب على الدولة العثمانية في صيف ١٨٧٦م، ولكنها هزمت بسرعة أمام الجيش العثماني، وهو ما أدى بروسيا القيصرية إلى إعلان الحرب على الدولة العثمانية في ٢ نيسان ١٨٧٧م. وكانت روسيا قبل الإقدام على هذه الخطوة المستعدة لها استرضت فيينا باتفاقية سرّيّة سمحت لها بالسيطرة على البوسنة في الوقت المناسب لها[1].

أدت الحرب هذه المرة إلى انهيار الجيش العثماني ومن هنا جاء توقيع صلح سان ستيفانو في ضواحي استانبول ليفرض التخلي عن مناطق واسعة في البلقان لروسيا وحلفائها (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود)، وهو ما أخلّ بتوازن القوى في المنطقة وأدى إلى اعتراض بريطانيا وتهديدها بعمل عسكري مما جعل ألمانيا تتوسط وتدعو القوى الكبرى الست إلى مؤتمر لمعالجة «قضايا الشرق» في حزيران ١٨٧٨م. وبعد حوالى شهر من التفاوض تمّ التوصل إلى «معاهدة بين بريطانيا العظمى وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا وتركيا لحلّ قضايا الشرق» أو ما عرف اختصارا بـ«معاهدة برلين». وكان ضمن هذا «الشرق» البوسنة بطبيعة الحال التي خصّتها المعاهدة بالمادة (٢٥) التي نصّت على أن «النمسا ستقوم باحتلال وإدارة ولاية البوسنة والهرسك..ويبقى على حكومتي النمسا وتركيا التوصل إلى اتفاق حول التفاصيل»[2].

---

(1) Vasilj Popovic, Istocno pitanje, Beograd 1928, p.140; B.H.Summer, Russia and the Balkans, London 1962, pp.273 - 289.

(٢) في الجلسة المخصصة لمناقشة البند (١٤) من معاهدة سان استيفانو في مؤتمر برلين تقدم الوفد الإنكليزي باقتراحه لتفويض النمسا باحتلال وإدارة البوسنة وهو ما وافقت عليه الوفود الأخرى، ولكن في يوم توقيع المعاهدة (١٣ تموز ١٨٧٨م) تشدد موقف الوفد العثماني وتمكن من أن يلزم الوفد النمساوي بإصدار بيان يعد فيه بأن «الحقوق السيادية لجلالة السلطان في ولاية البوسنة لن تتعرض إلى أي مسّ بفعل الاحتلال.. وأن الاحتلال سيبقي موقتا»:

Mustafa Imamovic, Pravni polazaj i unutrasnji politicki razvitak BiH 1878 - 1914, Sarajevo (Svijetlost) 1976, p.15.

وبعد عدة أيام من الإعلان عن هذه المعاهدة كانت فيينا مستعدة وأرسلت جيشاً بأحدث الأسلحة لعبور الحدود في ٢٩ تموز ١٨٧٨م وتنفيذ المادة (٢٥) التي جاءت صدمة للمسلمين في البوسنة بعدما أقرّت الدولة العثمانية بذلك. ولكن جيش الاحتلال جوبه بمقاومة ضارية من المسلمين الذين استولوا على السلاح من الجيش العثماني المنسحب، واستمرت هذه المقاومة حوالى ثلاثة شهور مما أدى إلى تزايد عدد الجيش النمساوي إلى حوالى ربع مليون في مواجهة مئة ألف بوسنوي لينتهي الأمر بإخضاع كل البوسنة للاحتلال في ٢٠ تشرين الأول ١٨٧٨م[١].

وقد اكتملت صدمة المسلمين مع «اتفاقية استانبول» في ٢١ نيسان ١٨٧٩م، التي سلّمت فيها الدولة العثمانية بالأمر الواقع (الاحتلال) مع التأكيد على أن «حقيقة الاحتلال لا تمسّ الحقوق السيادية» للسلطان على البوسنة، وهو ما كان يراد منه رفع الحرج أمام المسلمين في البوسنة والدولة العثمانية والعالم الإسلامي. ولكن «الحقوق السيادية» هنا كانت للسلطان باعتباره «خليفة المسلمين»، وشملت ذكر اسم الخليفة في الخطبة يوم الجمعة ورفع العلم العثماني على مآذن الجوامع في المناسبات الدينية (الأعياد)، وهو ما يؤكد الصلة الروحية فقط التي بقيت للمسلمين في البوسنة مع «الشرق»[٢].

ومع أن الاحتلال اعتبر من الناحية القانونية «إجراء موقتا» إلى أن يتم تكريس النظام في هذه الولاية العثمانية إلا أن سياسة فيينا التي اتبعتها خلال السنوات اللاحقة كانت توحي بأن الحكم العثماني قد ولّى إلى غير رجعة وأن البوسنة تنسلخ بالتدريج عن «الشرق» لتصبح جزءاً من إمبراطورية النمسا والمجر الممتدة في قلب أوروبا، وهو ما لم يكن بالأمر السهل على غالبية المسلمين في البوسنة.

كان الاحتلال أولاً ومن ثم تخلي الدولة العثمانية عن هذه الولاية ثانياً صدمة قوية للمسلمين في البوسنة الذين كانوا يعتبرون وجودهم في «دار الإسلام»

---

(1) Imamovic,Pravni polazaj ,p.16.

(٢) المرجع السابق، وللمزيد انظر كتابنا: من دار الإسلام إلى الوطن ومن الوطنية إلى القومية (حالة البوسنة)، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٥م، ص ١٨-١٩.

قدرهم ولم يعدّهم الفقه المحلي لمثل هذه المفاجأة حتى إن بعض كبار السن بقوا في بيوتهم لكي لا يروا أنفسهم في «دار الكفر»[1]. وفي هذا السياق برزت الفتاوى للحض على الهجرة من «دار الكفر» إلى «دار الإسلام» (الدولة العثمانية). وقد اشتدت هذه النزعة بعد فشل انتفاضة المسلمين في ١٨٨٢م ضد قانون التجنيد الجديد الذي أصبح يشملهم، مما أدى إلى هجرة أعداد متزايدة للمسلمين من البوسنة إلى المناطق المجاورة التي بقيت تحت الحكم العثماني. وقد أدت هذه الهجرة المتواصلة إلى نتيجة كارثية إذ تناقص بسرعة عدد المسلمين في البوسنة ولم يعودوا يشكلون الأغلبية فيها، كما إنه مع انحسار وجـود المسلمين في بعض النـواحي في شمال وغرب البوسنة لم يعد هناك ما يذكّر بـهم وبذلك انتقلت تلك النواحي بسرعة من «الشرق» إلى «الغرب»[2].

إلا أن هذه الهجرة الجماعية للمسلمين من البوسنة في السنوات الأولى (١٨٧٨-١٨٨٢م) أصبحت تحرج فيينا. صحيح أن الاحتلال النمساوي سُوّق باعتباره «إجراء موقتا» إلى أن يتم تكريس النظام في الولاية إلا أنه كان من الواضح أن فيينا كانت تتصرف منذ البداية على أن الحكم العثماني قد ولّى إلى غير رجعة وتعمل على دمج البوسنة بالتدريج في إمبراطورية الهابسبرغ. ولكن البوسنة لم تكن نهاية المطاف بالنسبة إلى فيينا بل هي رأس الجسر للتوغل في البلقان وصولاً إلى سالونيك في بحر إيجة والسيطرة على طول الشاطئ الشرقي للبحر الادرياتيكي، وهي مناطق تعج بالمسلمين في ألبانيا وكوسوفا ومكدونيا. ومن هنا رأت فيينا أن هجرة المسلمين من البوسنة إلى تلك المناطق يولّد صورة منفّرة عنها يتناقض مع خططها المستقبلية، ولذلك عمدت بسرعة إلى التقرّب من المسلمين وانتهاج سياسة مختلفة تؤدي إلى احتواء علماء المسلمين الموجودين واحتضان نخبة جديدة من المثقفين المسلمين تتولى الدعوة إلى الاندماج في أوروبا / إمبراطورية الهابسبرغ[3].

---

(1) Imamovic, Pravni polazaj, pp.28 - 31.

(٢) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: من دار الإسلام إلى الوطن، ص٢٠-٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠-٢١.

في هذا السياق حلّت في ١٨٨٢م محل الإدارة العسكرية إدارة مدنية مختارة أصبحت مسؤولة مباشرة أمام المؤرخ والدبلوماسي بنيامين كالاي B.Kallay (١٨٣٩-١٩٠٣م)، الذي كان يتولى وزارة المالية المشتركة في الإمبراطورية. كانت البوسنة حتى ذلك الحين تشكّل مشكلة فيما بين النمسا والمجر، حيث إن كرواتيا التي كانت تتمتع بحكم ذاتي في إطار المجر كانت تطالب بضم البوسنة، ولكن رُئِيَ أخيراً بأن تبقى متميّزة وأن تربط مباشرة بإحدى الوزارات الثلاث المشتركة في الإمبراطورية (الحرب والشؤون الخارجية والمالية). وقد رأى كالاي بخبرته الواسعة في البلقان و«الشرق» أن يشكل فريقاً من الخبراء لانتهاج سياسة الاحتواء والإدماج. وهكذا اختار على رأس الإدارة المدنية الجديدة هوغو كوتشيرا H.Kutschera القنصل السابق للنمسا والمجر في استانبول الذي كان خبيراً بالإسلام والمسلمين. ومع هذا التغيّر سعى كوتشيرا إلى احتواء علماء المسلمين حيث كان يحتفظ بالقرآن في مكتبه ويقرأ منه في المناسبات، كما كان يدعو علماء المسلمين إلى سماع «المولد» النبوي في مقرّ إقامته من حين إلى آخر حسب المناسبات[1].

كانت النخبة الجديدة التي شكّلها كالاي حول كوتشيرا تؤمن بأن ما تقوم به فيينا يمثّل «رسالة حضارية» تتمثّل في «جلب الحضارة الأوروبية إلى ذلك الجزء الباقي من الشرق في البلقان»، وهو ما كانت تشاركه بهم النخبة الحاكمة في فيينا. وفي هذا السياق أمكن مثلاً في ١٨٨٤ أن يصدر كتاب جوزف نوباور «كم سيكلف نقل الحضارة الأوروبية إلى البوسنة؟». وفي الحقيقة كانت هذه السياسة تستند إلى ما شاع آنذاك في أوروبا الغربية التي أخذت تتوسع في استعمار أفريقيا وآسيا بالاستناد إلى ما سمي بـ «نظرية الولاية المزدوجة» التي تقول إن الدول الأوروبية تقوم بنقل الحضارة الأوروبية إلى تلك المستعمرات

(1) Muhsin Rizvic,Bosansko-muslimanska knjizevnost u doba preporoda, Sarajevo (El-Kalem) 199 , p.28.

حسب الولاية الأولى وتحصل مقابل ذلك على الحق باستثمار مواردها الطبيعية حسب الولاية الثانية[1]. وقد عُرفت هذه السياسة الجديدة التي انتهجتها فيينا بـ «التحديث» أو -«الأوربة» واستمرت بشكل واضح بعد قرار ضمّ البوسنة إلى الإمبراطورية في ١٩٠٨م، وحتى نهاية الحكم النمساوي- المجري في ١٩١٨م.

قامت هذه السياسة الجديدة على عدم إحداث تغيير عنيف وفوري في بنى المجتمع المسلم، بعد تجربة السنوات الأولى ١٨٧٨-١٨٨٢م، بل في اتباع سياسة احتواء مزدوجة مع المسلمين وتشكيل هوية جامعة في البوسنة موالية للإمبراطورية عبر تنفيذ تغييرات في الإدارة والتعليم والقضاء والاقتصاد والمشاريع العامة تنقل في نهاية الأمر البوسنة من «الشرق» إلى قلب أوروبا (الإمبراطورية).

بدأت هذه السياسة مع احتواء علماء المسلمين وتأسيس هرمية جديدة تمثّل المسلمين في البلاد لا تكون مرتبطة بالدولة العثمانية بل تكون موالية للإمبراطورية وتعطي صورة إيجابية عن وضع المسلمين في الدولة الجديدة تفيد فيينا في سياستها التوسعية في البلقان. فقد نصّت «اتفاقية استانبول» في ٢١ نيسان ١٨٧٩م، التي وقّعت بين الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا والمجر على حقّ المسلمين في البوسنة بالحفاظ على صلتهم الروحية بالمرجع الديني في استانبول (شيخ الإسلام) وذكر اسم السلطان/ الخليفة في خطبة الجمعة. ولكن فيينا سعت منذ البداية إلى احتواء بعض علماء المسلمين في البوسنة لتشكيل هرمية مستقلة تمثّلهم أمام الدولة الجديدة وتبعدهم مع الزمن عن استانبول. ومع أن شيخ الإسلام عيّن مفتي سراييفو مصطفى حلمي عمروفيتش مفتياً عاماً للبوسنة في آذار ١٨٨٢م، إلا أن الإمبراطور بادر إلى إصدار مرسوم في ١٧/ ١٠/ ١٨٨٢م بتعيين عمروفيتش في منصب «رئيس العلماء» الذي أصبح بذلك على رأس هرمية مستقلة عن استانبول، وهو ما استتبع قيام عمروفيتش

---

(1) Karcic, The Bosniaks, p.87.

بزيارة الإمبراطور في كانون الثاني ١٨٨٣م، للتعبير عن شكره لما تقوم به فيينا لأجل المسلمين[1].

ومن ناحية أخرى عملت فيينا على إحداث تطوير في التعليم يفضي إلى تشكيل جيل جديد من علماء المسلمين أكثر انفتاحا على الغرب، وأسّست لأجل ذلك مدرسة قضاة الشرع في ١٨٨٧م، التي جمعت ما بين التعليم الإسلامي التقليدي والتعليم الأوروبي لتعدّ جيلاً جديداً من القضاة وكبار الموظفين من المسلمين. فقد كان التعليم في هذه المدرسة يشمل دراسة اللغات الشرقية (العربية والعثمانية والفارسية) والأوروبية (الألمانية والفرنسية) والفقه وأصول الدين وكذلك القانون الروماني والنظام التشريعي في الإمبراطورية بالإضافة إلى التاريخ والجغرافيا والرياضيات. وقد اشتهرت هذه المدرسة خارج البوسنة حتى إن الشيخ محمد عبده استشهد بها في مطالبته باصلاح التعليم الديني في مصر آنذاك[2].

وإلى جانب احتواء «العلماء» في مجتمع المسلمين كانت فيينا حريصة على دعم جيل جديد من المثقفين المسلمين الذين بروزا آنذاك في الصحافة والأدب بروح جديدة تروّج للتخلص من وهم العودة للحكم العثماني وتدعو لاندماج المسلمين مع الصرب والكروات في شعب واحد في البوسنة على أساس اللغة والثقافة المشتركة يندمج بدوره في أوروبا (الإمبراطورية). وكان على رأس هذا الجيل الجديد من المثقفين المنسجمين مع سياسة فيينا محمد بك قبطانوفيتش- ليوبوشاك (١٨٣٩-١٩٠٢م)، الذي كان عشية الاحتلال رئيس بلدية سراييفو ونائب سراييفو في مجلس النواب العثماني (المبعوثان). ففي كتابه «بماذا يفكر المسلمون في البوسنة؟» الذي أصدره في ١٨٨٦م، أكّد

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذه المؤسسة بقيت حتى نهاية العهد النمساوي في ١٩١٨م وفي ١٩١٩م أصبحت نواة المؤسسة التي تمثل مسلمي مملكة يوغسلافيا أمام الدولة الجديدة، وهي التي ألهمت بريطانيا لتأسيس «المجلس الإسلامي الأعلى» في فلسطين عام ١٩٢٣م. للمزيد حول هذه المؤسسة انظر دراستنا: شيخ الإسلام ورئيس العلماء، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٧١، عدد ٢، دمشق ١٩٩٦م، ص٢٨٥-٣٠٨.

(2) Karcic, The Bosniaks, pp.93 - 94.

فيه أن انتظار بعض المسلمين عودة الحكم العثماني ما هو إلا وهم، ودعاهم فيه إلى رفض الهجرة من البوسنة التي هي وطن مشترك لهم وللصرب والكروات الذين يشتركون معهم في اللغة والثقافة ويشكّلون معا «شعباً بوسنوياً واحداً» ضمن سلاف الجنوب أو اليوغسلاف، وهو ما كان يصبّ في مصلحة سياسة فيينا الجديدة التي أرساها الوزير كالاي لقطع الطريق على التنافس الصربي-الكرواتي حول البوسنة[1]. ومن ناحية أخرى نشر ليوبوشاك كتابه الآخر «التراث الشرقي» في ١٨٩٦م، الذي ضمّ حوالى خمسة آلاف من الأمثال والحكم لأشهر فلاسفة المسلمين ليؤكد على التمايز بين الشرق والغرب. فهذا «التراث الشرقي» كان معروفاً للمسلمين ولكن الآن يقدمه إلى «العالم اليوغسلافي» الذي هو جزء من أوروبا لكي يتعرّف على ما يعرفه المسلمون في البوسنة[2].

والمهم هنا أن هذا الكتاب وغيره صدر في اللغة البوسنوية ولكن بالحروف اللاتينية التي شكّلت بدورها مؤشراً ثقافياً للانتقال من الشرق إلى الغرب. وكان المسلمون الذين يشكّلون غالبية السكان في البوسنة يسمّون أنفسهم «البشناق»، بينما كان العثمانيون يطلقون هذا الاسم على كل سكان البوسنة من مسلمين ومسيحيين. وقد أخذ «البشناق» بدورهم كالعثمانيين في كتابة لغتهم بالحروف العربية بينما كان الكروات في البوسنة يكتبون لغتهم بالحروف اللاتينية كما في كرواتيا والصرب بالحروف الكيريلية كما في صربيا. ومع سياسة فيينا الجديدة في دعم الدعوة إلى «شعب بوسنوي واحد» وتبنّي «الأوربة» تبنّى الجيل الجديد من المثقفين المسلمين الحروف اللاتينية بكتابة مؤلفاتهم أو في إصدار صحفهم لتكون مقروءة من الصرب والكروات أيضاً، ولكن هذه الخطوة شكّلت «صدمة ثقافية» لغالبية المسلمين في البداية. فقد كانت اللغة البوسنوية بالحروف العربية قد استمرت عدة قرون وشكلت بذلك ثقـافة المسلمين في البوسنة، على حين أن التحول الفوري إلى الحروف

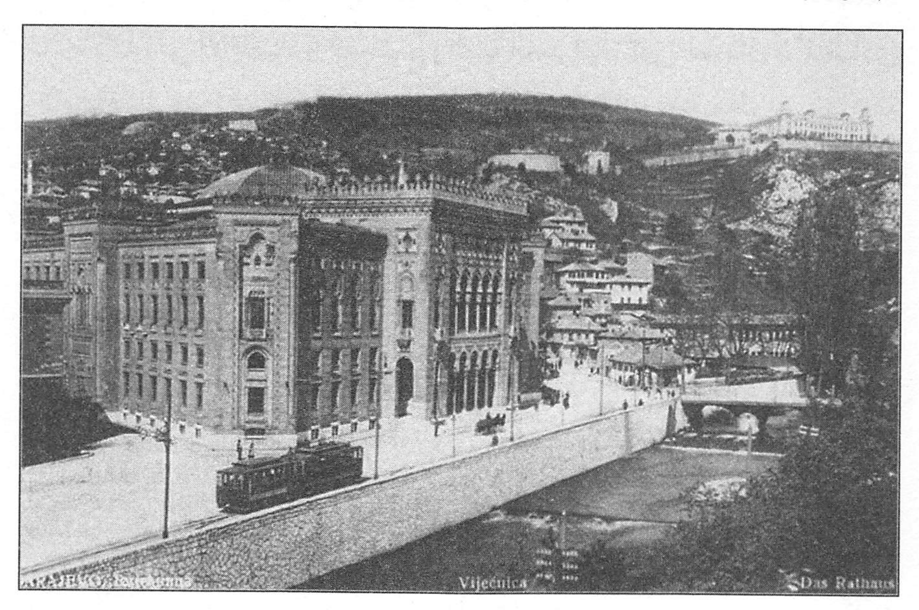
---

(1) Mehmet beg Kapetonovic Ljubusak, Sta misle Muhamedanci u Bosni, Sarajevo 1886, pp. 67-.

وأنتهز هذه المناسبة لأشكر الدكتور ألكسندر ستيبتشفيتش من جامعة زغرب على قيامه بتصوير نسخة من هذا الكتاب وإهدائها لي خلال زيارته للأردن في ١٩٩٦.

(2) Mehmet-beg Kapetanovic Ljubusak, Istocno blago, Sarajevo 1896, p.5.

اللاتينية جعل أغلبية المسلمين تبدو «أمية» بالمفهوم الأوروبي. وبهذا المفهوم الجائر بقيت الإحصائيات حتى ١٩١٠م، أي بعدما أصبحت رسمياً جزءاً من الإمبراطورية، تقول أن ٩٤،٦٥٪ من المسلمين «أميون»(١).



سراييفو في مطلع القرن العشرين
حيث تبدو دار البلدية (المكتبة الوطنية الآن) التي بُنيت على الطراز الأندلسي

ومن ناحية أخرى فقد شجعت فيينا الشباب المسلم على الالتحاق بجامعات الإمبراطورية في فيينا وبودابست وزغرب لتحصيل العلوم المختلفة والعودة بروح مختلفة إلى البوسنة تدعم الاندماج في أوروبا، بينما بقي الباب مفتوحاً لمن يرغب بالذهاب لمتابعة دراسته في جامعة استانبول أو في الأزهر بالقاهرة(٢). وفي هذا السياق فقد التحق الشاب البوسنوي صفوت باشأغيتش

---

(1) Karcic, The Bosniaks, p.96.

(٢) للمزيد حول هذه الصلة الجديدة مع الأزهر ونتائجها لدينا كتاب د. يوسف راميتش «البشانقة في الأزهر» الذي يوثق فيه لأبرز الشخصيات البوسنوية التي تخرجت من الأزهر:
Jusuf Ramic, Bosnjaci na El-Azharu, Sarajevo (Rijaset Islamske zajednice u BiH) 1997.

بقسم الاستشراق في جامعة فيينا وكان أول بوسنوي مسلم يحصل على الدكتوراة في هذا المجال في ١٩١٠ [١].

وفي غضون ذلك كانت فيينا سائرة في سياسة «الأوربة» في مختلف المجالات، في الاقتصاد والمجتمع والبنية العمرانية. ففي المجال الاقتصادي ركّزت فيينا على استثمار الخامات الموجودة في البوسنة وطورت صناعة الحديد والصلب في زنيتسا Zenica وغيرها، مما أدى إلى تشكّل طبقة عاملة جديدة بالمفهوم الأوروبي وصل تعدادها إلى ٦٥ ألف عامل في ١٩١٠م. ومن ناحية أخرى فقد اهتمت فيينا لأجل الاستثمارات الجديدة في البوسنة وغيرها أن تطور شبكة من السكك الحديدية والطرق الرئيسية والفرعية بلغت حوالى ألفي كيلومتر في ١٩٠٧م، وأسهمت في ربط البوسنة بالإمبراطورية ومن خلالها ببقية أوروبا. وضمن سياسة «الأوربة» سعت فيينا إلى تعزيز الوجود الألماني والكاثوليكي في البوسنة، حيث شجعت على تأسيس مستوطنات في الريف وصل عددها إلى ٥٤ مستوطنة تشتمل على عشرة آلاف مستوطن، كما انعكس هذا على المدن التي زاد عددها وتنوع سكانها مع الهجرة إليها من الريف ومن أرجاء الإمبراطورية من موظفين ومعلمين وجنود وشرطة وتجار وغيرهم حتى وصل عددهم إلى أكثر من مئة ألف ألماني ومجري في ١٩١٠م[٢].

وكان من الطبيعي أن تبدو نتائج «الأوربة» على سراييفو، التي تضاعف عدد سكانها تقريبا حتى ١٩١٠م بفعل الهجرة إليها من أرجاء الإمبراطورية، ولذلك لم يعد المسلمون يشكلون غالبية السكان في المدينة نتيجة لهذه الهجرة الجديدة وهجرة المسلمين منها في السنوات الأولى للاحتلال النمساوي. وفي هذا السياق أخذت تنشأ إلى الغرب من سراييفو الشرقية، ابتداءً من «فندق أوروبا» الذي بني في ١٨٨٢م، مدينة جديدة تمتد باتجاه الغرب تمثل العمارة

---

(١) للمزيد عنه انظر القسم الثاني من الكتاب، ص ٩٩-١٠١.

(٢) مالكوم، البوسنة، ص١٨٤-١٨٦.

الأوروبية بفنادقها ومقاهيها وعماراتها والمنشآت العامة مع حرص فيينا على مجاملة المسلمين ببناء بعض المباني التي استلهمت التراث الأندلسي[1].

وقد تتوّجت سياسة «الأوربة» في ٧ تشرين الأول ١٩٠٨م بقرار فيينا ضم البوسنة، الذي تصادف في شهر رمضان آنذاك وأحدث ردة فعل قوية ضد النمسا في أرجاء الدولة العثمانية وصلت إلى حد المطالبة بمقاطعة البضائع النمساوية. ولكن مسلمي البوسنة بقوا يتطلعون بأمل إلى اجتماع مجلس النواب العثماني الذي دُعي آنذاك لمنح الثقة للصدر الأعظم كامل باشا بعدما أشيع أنه اتفق مع فيينا على ذلك من وراء ظهر المجلس. وخلال انعقاد المجلس تقدم الزعيم البوسنوي فهمي جابيتش بكتاب مؤثر إلى المجلس توجه فيه أولاً إلى «نواب الولايات العربية لكي يتفهموا أهمية البوسنة لأنهم كما يبدو لا يعرفون أهميتها تماماً» ثم انتقل إلى تحذير الحكومة العثمانية من خطورة الاعتراف بالضم. ولكن المجلس صوّت بالثقة لكامل باشا واعترفت استانبول رسمياً بالضم في نهاية شباط ١٩٠٩م، وهو ما أثار استياء كبيراً عبّرت عنه «مذكرة مسلمي البوسنة» إلى المجلس التي احتجت على بيع هؤلاء المسلمين «الذين لم يتقاعسوا أبدا عن التضحية في سبيل الإسلام» مقابل مليونين ونصف جنيه فقط، بينما هم على استعداد لدفع عشرة ملايين وحتى بيع أطفالهم لكي يبقوا في إطار الدولة العثمانية[2].

وفي هذه الظروف تمخّضت الحركة السياسية للمسلمين عن تأسيس حزب جديد في آب ١٩١١م باسم «المنظمة المتحدة للمسلمين» MUO التي أصبحت الحزب الرئيس للمسلمين في البوسنة. ويلاحظ هنا أن هذا الحزب تقبّل الواقع الأوروبي للبوسنة أو مصير البوسنة في إطار إمبراطورية آل هابسبرغ، ولذلك فإن أهم بند في الحزب أصبح يتمحور حول الحفاظ على خصوصية البوسنة في إطار الإمبراطورية والمطالبة بحكم ذاتي للبوسنة في أي ترتيب داخلي للإمبراطورية[3].

---

(1) Nedzad Kurto" Arhitektura u Austrougarskom periodu" in Sarajevo: Prilozi historiji, Sarajevo (Orijentalni institut) 1997, pp.401 - 428.

(٢) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا، ص١٨٨-١٨٩.

(3) Imamovic, Pravni polozaj, pp. 247 - 248.

وكانت حرب البلقان في ١٩١٢-١٩١٣م، التي قضت على الوجود العثماني في البلقان، باستثناء جيب صغير حول استانبول، قد أثارت الحماس لتأسيس دولة كبيرة لسلاف الجنوب أو اليوغسلاف. وفي هذا السياق تبلورت تيارات، منها ما يدعو إلى أن تكون هذه الدولة ضمن إمبراطورية آل هابسبرغ وتتحول بذلك إلى مملكة ثلاثية أو أن تتشكل خارج إطار الإمبراطورية وعلى حسابها.

وهكذا في اليوم (١٧ آب ١٩١٧م) الذي قدّم بعض زعماء سلاف الجنوب مذكرة إلى الإمبراطور في فيينا لتشكيل كيان خاص بهم في الإمبراطورية كان اثنان من كبار زعماء المسلمين في البوسنة (شريف أرناؤوطوفيتش وصفوت باشأغيتش) يقدّمان مذكرة إلى الإمبراطور توضّح ما آلت إليه «أوربة» البوسنة بالنسبة إلى المسلمين حتى ذلك الحين. ففي هذه المذكرة ورد أن المسلمين لم يعودوا يمثّلون سوى ثلث السكان في البوسنة ولم يعد لهم وجود مؤثر في الإدارة العامة وهم يخشون على هويتهم من الذوبان لو أصبحوا جزءاً من الكيان اليوغسلافي المقترح لأنهم لن يمثّلوا آنذاك سوى ١١٪ من السكان، ولذلك رفضوا رفضاً قاطعاً أن تكون البوسنة جزءاً من الكيان اليوغسلافي بل طالبوا أن تكون على نمط سويسرا «حيث تعيش فيها ثلاث مجموعات قومية مختلفة ولكن لا ترغب أي واحدة منها (الألمان والفرنسيون والإيطاليون) أن تنضم إلى الدولة القومية المجاورة (ألمانيا وفرنسا وإيطاليا)، وهذا يدلّ على أن التاريخ المشترك والتقاليد المشتركة هي العامل الأقوى من وحدة اللغة والإثنواغرافيا والأصول، وهي نفس حالة البوسنة»[1].

وفي الحقيقة كانت مخاوف المذكرة محقة لأن ما تحقّق للبوسنة مع هزيمة إمبراطورية آل هابسبرغ وانهيارها كان ضم البوسنة إلى «مملكة الصرب والكروات والسلوفيين» التي تشكلت على حساب الإمبراطورية وعايش فيها المسلمون أصعب السنوات في نضال مستميت للحفاظ على هويتهم الخاصة

(1) Nijaz Durakovic, Prokletsvo Muslimana,Tuzla 9 Harfo-Graf) 1992, pp.141 - 142.

في الدولة الجديدة التي أصبحت تسمى «مملكة يوغسلافيا» منذ ١٩٢٩م[١].
ومع ذلك أمكن للمؤرخ البريطاني المعاصر وليم ميلر أن يلخّص ما حدث للبوسنة خلال الانتقال من الشرق إلى الغرب بالشكل التالي: «مهما قيل فإن ٤١ سنة من الإدارة النمساوية للبوسنة والهرسك، التي يمكن أن نقارنها مع الاحتلال البريطاني لمصر والحماية الفرنسية على تونس، قد حوّلت هاتين المقاطعتين المتوحشتين إلى دولة بلقانية متحضّرة حتى لو لم يحبّ السكان من قام بتحضيرهم»[٢].

(١) للمزيد حول وضع المسلمين في هذه الدولة الجديدة انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا، ص١٩٣-١٩٥.

(2) William Miller, The Ottoman Empire and its successors 18011927-, London (Franck cass) 1966, p.397.

ألبانيا
«مفتاح الشرق الأدنى»
حتى مطلع القرن العشرين

مع وفاة العاهل الصربي دوشان نيمانيتش D.Njamanic في ١٣٥٥م، الذي كان قد حوّل صربيا إلى قلب إمبراطورية كبرى بعدما أعلن نفسه في ١٣٤٨م «إمبراطور الصرب والبلغار واليونان والألبان»، كان العثمانيون قد بدأوا توغلهم في شبه جزيرة البلقان مستفيدين من التشتت السياسي الذي أعقب وفاته وظهور إمارات وكيانات متصارعة. وفي هذا السياق لم يكن للألبان كيانهم السياسي الذي يوحّدهم في سيرورة بروزهم الجديد في غرب البلقان[1]، بل برزت عدة إمارات متنافسة لتعبئة الفراغ الذي خلفه تصدّع إمبراطورية دوشان بعد وفاته في ١٣٥٥م على رأسها حكام ألبان وصرب (آل دوكاجين وآل ثوبيا وآل موزاكا إلخ)، بينما ظهر اسم ألبانيا

(١) في كتب التأريخ الألباني هناك إجماع على انحدار الألبان مباشرة من الإليريين الذين كانوا يمتدون في غرب البلقان وانهارت أهم دولهم في ١٦٨ق.م أمام التوسع الروماني في المنطقة، بينما يرى المؤرخون الأوروبيون المتخصصون في الدراسات البلقانية/ الألبانية أن الإليريين يمثلون أحد عناصر التكوين الإثني للألبان الذين ظهروا باسمهم الجديد على المسرح بعد أكثر من عشرة قرون. للمزيد حول ذلك انظر مقالتينا: «ألبانيا» و«الألبانيون»، الموسوعة العربية الكبرى، ج٣، دمشق ٢٠٠١م، ص١٩١-٢٠٦، وانظر كذلك دراستنا: «الألبانيون عدة تسميات لأمة واحدة»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد ٦٣، ج ٤، دمشق ١٩٨٨م، ص٦٧٧-٦٨٤.

لأول مرة في المنطقة الساحلية التي خضعت لسيطرة البندقية تحت اسم «ألبانيا الفينيسية»[1].

وفي هذا الوضع بادر الأمير كارل ثوبيا K.Thopia الذي كان يحكم جزءاً من ألبانيا الوسطى الحالية إلى دعوة القوات العثمانية التي كانت قد وصلت إلى مكدونيا المجاورة إلى مساعدته في الحرب الدائرة بينه وبين الأمير بالشا الثاني، الذي كان يحكم ألبانيا الشمالية الحالية ويتخذ من مدينة شكودرا المهمة عاصمة له ويعتبر نفسه وريثاً للإمبراطورية الصربية. وبفضل هذه المساعدة العثمانية تمكّن الأمير ثوبيا أن ينتصر في معركة فيوسا Vjosa في ١٣٨٥م، وأن يتخلص من غريمه ويشتت جيشه. وتُعدّ هذه المعركة بداية الوجود العثماني في ألبانيا الحالية، حيث اكتفت الدولة العثمانية بإعلان الأمراء المحليين ولاءهم للسلطان العثماني ودفع الخراج السنوي له وإرسال قوات لمساعدة السلطان في معاركه في البلقان إذا اقتضت الحاجة[2].

ولكن الوجود العثماني أخذ يتحول بالتدريج إلى حكم عثماني مباشر لألبانيا الحالية بعدما طبّقت الدولة العثمانية نظام التيمار وأنجزت في ١٤٣١م أول إحصاء لأراضي الكيان الإداري الجديد الذي حمل اسم الألبان (سنجق ارنود) الذي شمل ألبانيا الوسطى والجنوبية الحالية[3]. وعلى هذا الأساس بقيت ألبانيا العثمانية تتوسع مع كل انتصار جديد للقوات العثمانية على البندقية التي

---

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين الألبان والصرب حول هوية هذا الحاكم إذ يعتبره الصرب واحداً منهم كما يعتبره الألبان واحداً منهم على الرغم من أنه لا يوجد في مراسلاته وبلاطه ما يشير إلى ذلك، والأرجح كما يقول المؤرخ الكرواتي الخبير في القرون الوسطى ميلان شوفلاي انه متصرّب من أصل فلاشي:

Dr. Milan Shufllay, Serbet dhe shqiptaret, Prishtine (Rilindja) 1968, p.36.

(2) Selami Pulaha, Pronesia feudale ne tokat shqiptare shek. XV-XVI, Tirane (Instituti i histories) 1988, pp.29 - 30.

(٣) نشر الباحث المعروف خليل إينالجيك هذا السجل لـ«سنجق الألبان» الذي يعتبر مصدراً مهماً للحكم العثماني في السنوات الأولى:

Hicri 835 tarihli suret - i defter - i sncak - i Arvanid, 2 baski, Ankara (TTK13) 1987.

كانت تسيطر على أجزاء من الساحل الألباني، حيث تمكن العثمانيون أولاً من انتزاع شكودرا في ١٤٧٨م، ثم أولشين في ١٥٧١م[1].

وفي الوقت الذي اكتملت فيه السيطرة العثمانية على المناطق التي يسكنها الألبان كانت الملامح الإقطاعية لا تزال سائدة، وبالتالي لم تكن قد نمت فيه المدن مع عدم وجود دولة ألبانية على نمط ماكان موجوداً في الجوار (بلغاريا وصربيا)، باستثناء ما قامت به البندقية في المدن الساحلية التي سيطرت عليها وأصبحت بملامحها العمرانية تعبّر عن «ألبانيا الفينيسية» مثل اولتشين وشكودرا ودورس إلخ[2].

ولكن مع اكتمال السيطرة العثمانية وانتشار الإسلام وبروز الجيل الأول من أبناء المنطقة في الهرمية العسكرية والإدارية العثمانية بدأت ملامح النواحي التي يسكنها الألبان تتغير مع نشوء مدن جديدة بملامح شرقية، بالإضافة إلى تطور المدن القليلة الموجودة التي توسعت بسرعة وأصبحت بملامحها وثقافتها تنتمي إلى عالم الشرق، الذي أصبحت بذلك حدوده الآن تصل إلى ساحل البحر الأدرياتيكي.

وفي الحقيقة كان هذا التطور العمراني سمة عامة في البلقان خلال الحكم العثماني وارتبط بالأوقاف التي أقامها أبناء المنطقة الذين برزوا في الهرمية الإدارية والعسكرية الهرمية (صدور عظام ووزراء وقادة جيوش وولاة إلخ) حتى برزت عشرات المدن الجديدة التي دخل الوقف في اسمها (إسكندر وقف Skender Vakuf ودونيي وقف Donji Vakuf وغورنيي وقف Gornji

---

(1) Hajrudin S. Muja, Ulqini dhe Tivari ndermjet Krishterimit dhe Islamit, Shkup (LogosA) 2009, pp.193 - 194.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مدينة أولشين بالذات حظيت بوجود عربي مميز وأصبحت لها علاقات خاصة مع الولايات العثمانية في شمال أفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس الغرب). للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الصلات العربية البلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، بيروت (دار جداول) ٢٠١٢م، ص١٥٧-١٨٧.

(2) Dr. Ruzhdi Ushaku, Ulqini ne gjurmet e shekujve, Ulqin (Art Club) 1999, pp.19 - 20.

Vakuf إلخ) وتحول بعضها إلى عواصم لدول مثل سراييفو Sarajevo بالنسبة إلى البوسنة، وتيرانا Tirana بالنسبة إلى ألبانيا.

وكما هو معروف فقد كان الوقف قد تطور كثيراً في الدولة العثمانية بعدما عرف «ثورة في الفقه المتعلق بالوقف» (وقف النقود) وبرزت تجلياته بشكل خاص في المجال العمراني. فقد أصبح شرط التأبيد، الذي لا يصح الوقف إلا به، يتطلب من الواقف أن يبني سلسلة من المنشآت التي تدرّ الدخل (خانات وحمامات وأسواق إلخ) لكي تغطي نفقات المنشآت الخيرية التي تقدم الخدمات العامة للمسلمين (الجوامع والمدارس والمستشفيات إلخ). وعلى هذا الأساس فقد أصبح على الواقف الذي يريد أن يبني جامعاً أو مدرسة أن يبني حولها بعض المنشآت (حمام وسوق إلخ) تغطي نفقاتها وتشكل بذلك نواة عمرانية لمحلة جديدة إذا بنيت في مدينة أو نواة عمرانية لمركز حضري جديد إذا بنيت ما بين المدن الموجودة[1]. وقد أسهم هذا الدور الكبير للوقف في العمران الجديد للبلقان فيما يمكن أن نسمّيه «تشرّق البلقان» بعد أن أصبحت هذه المراكز الحضرية الجديدة تعزّز المظهر الشرقي للبلقان بالمقارنة مع المناطق التي بقيت خارج الحكم العثماني. ومن هنا أصبحت بلغراد مثلاً، التي تحولت من قلعة وضاحية سكنية ملحقة بها إلى مدينة كبيرة بطابع شرقي خلال قرن من الزمن، تدعى «بوابة الشرق» من قبل الرحالة الأوروبيين الذين يأتوها من أوروبا الوسطى لأنهم كانوا يشعرون أنهم بدخولها عبروا الخط الفاصل بين الغرب والشرق[2].

وفي ما يتعلق بالنواحي التي كان يسكنها الألبان نجد أن هذا «التشرّق» قد بدأ يتضح بفضل الوقف في توسّع بعض المدن الموجودة مثل بريزرن Prizren وفوشترن Vucitern وبريشتينا Prishtina وشكودرا Shkodra وفلورا Vlora وفي نشوء المدن الجديدة التي أخذت ملامح عمرانية شرقية منذ تأسيسها بفضل

---

(١) للمزيد حول دور الوقف في التطور العمراني في البلقان انظر كتابنا: الوقف في العالم الإسلامي ما بين الماضي والحاضر، بيروت (دار جداول) ٢٠١١م، ص٧٣-١١٦.

(٢) للمزيد حول ذلك انظر الفصل الثالث من كتابنا: تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) ٢٠٠٧م، ص ١٩-٤٦.

الجوامع والحمامات والمدارس والخانات والأسواق وغيرها التي بنيت في إطار الأوقاف الجديدة.

وفي هذا السياق بادر إلياس بك، الذي كان من أبناء الجيل الأول للألبان الذين صعدوا في الهرمية الإدارية- العسكرية العثمانية، إلى بناء نواة عمرانية (جامع ومدرسة وسوق إلخ) في إطار وقفه بمسقط رأسه في جنوب ألبانيا قبل ٩١٠ هـ/ ١٥٠٥-١٥٠٥م، حيث تطورت هذه النواة العمرانية إلى قصبة باسم كورتشا Korca مستفيدة من موقعها الذي يربط مدن جنوب ألبانيا بمكدونيا المجاورة ثم تطورت إلى مدينة خلال القرن السابع عشر بعدما أصبحت مركزاً إدارياً[١].

وعلى هذا النحو نهضت مدينة جديدة (كافايا) التي كانت حتى ١٤٣١م مجرد قرية تضمّ ٢٦ أسرة وأرملتين. ففي ٩٦٩هـ/ ١٥٦١-١٥٦٢م قام أحد أبناء المنطقة ممن صعدوا في الهرمية الإدارية-العسكرية العثمانية (علي حيدر بك) ببناء نواة عمرانية مشابهة (جامع ودراسة وسوق إلخ). وقد تطورت هذه النواة بعد عشر سنوات فقط (١٥٦٩-١٥٧٠م) لتصبح قصبة تضمّ حوالى ١٥٠ أسرة ثم مدينة في القرن السابع عشر[٢].

وحتى العاصمة الحالية لألبانيا (تيرانا) كانت مجرد قرية صغيرة في ١٥٨٣م، لاتضم سوى ٨ أسر (٧ مسلمة وواحدة مسيحية). وفي ١٦١٤م قام أحد أبناء المنطقة ممن صعدوا في الهرمية الإدارية- العسكرية العثمانية (سليمان باشا برجيني) ببناء نواة عمرانية مشابهة (جامع وخان وفرن إلخ) تطورت بسرعة

(1) P. Pepo, ‹Dy dokumente mesjetare mbi Shqiperine-Berati i sultan bejazitit II dhe vakufnamja e Mirahor iljaz Beut›, Buletin per shkencat shoqerore 3, Tirane 1956, p.289; A.Meksi, ‹Ndertimert e kultit musliman ne Shqiperi›, Studime historike 1, Tirane 1980, p.196; Machiel Kiel, Arkitektura islame ne Shqiperi 13851912-, Istanbul (IRCICA) 2012, p.230;

(2) Kiel, Arkitektura islame, p.220; Evlija Celebiu ne Shqiperi dhe ne viset fqinje: Kosove, Mali i Zi, Oher, Pergatitur nga Robert Elsie, perkthyer nga Abdurrahim Myftiu, Tirane (55) 2008, pp.101 - 102.

بسبب موقعها المناسب في وسط ألبانيا لتصبح مدينة بعد نصف قرن فقط وعاصمة لألبانيا بعد استقلالها عن الدولة العثمانية[1].

وعلى هذا النمط أيضا لدينة مدينتة بتشيني Peqini التي كانت في ١٤٣١ قرية باسم بيكلنت Biklent تضمّ ٩ أسر فقط وتحولت إلى ضاحية سكنية للقلعة المجاورة في ١٥٦٩-١٥٧٠م، ولكن بعدما قام ابن المدينة عبد الرحمن باشا (الذي كان والياً على بغداد ومصر) ببناء نواة عمرانية فيها في إطار وقفه (جامع ومدرسة وحمام إلخ) في النصف الثاني للقرن السابع عشر تحولت بسرعة إلى مدينة عندما زارها الرحالة العثماني المعروف أولياً جلبي في ١٦٧٠ [2].

وبعد قرنين من الحكم العثماني نجد ملامح التشرّق واضحة في ألبانيا، أو «بلاد الألبان» كما شاعت تسميتها عند الأتراك، في كتاب الرحالة العثماني أوليا جلبي الذي وصف فيه أهم المدن التي زارها من الشمال إلى الجنوب خلال ١٦٦٠-١٦٧٠م. ويلاحظ هنا أن جلبي كان يعي حدود «ألبانيا» بالاستناد إلى اللغة، حيث كان يحرص على أن يسجّل بذلك «الحدود» ما بين البوسنة و«بلاد الألبان» أو ما بين بلغاريا واليونان وبلاد الألبان، وهو ما لا يتطابق بالضرورة مع الحدود الحالية مع «بلاد الألبان». وهكذا نجد الصورة التالية عند جلبي عن أهم المدن التي برزت الآن في «بلاد الألبان» التي أصبحت تنتمي إلى عالم الشرق بملامحها العمرانية ومنشآتها الحضارية الجديدة:

فوشترن

مدينة أسسها أحد ملوك الصرب وفتحها السلطان مراد الأول.

يصل عدد بيوتها إلى ألفين بطابق وطابقين، ومن أشهر محلاتها:

---

(1) Fjalori enciklopedik shqiptar, vol.III, Tirane (Akademia e shekencave) 2008, pp.2703 - 2704; Kristo Freasheri, Fillimet e histories se Tiranes", Buletin per shkencat shoqerorre 2, Tirane 1955, p.143; Meksi, Ndertimet, p.205.

(2) Celebi ne Shqiperi, p.103; Kiel, Arkitektura islame, p.294.

محلة الشهداء، محلة آلاي باي زاده، المحلة العتيقة، المحلة العليا والمحلة التحتا. فيها جوامع عديدة أشهرها الجامع العتيق في السوق الذي لايزال قائما بفضل الوقف الذي أسّسه السلطان مراد الأول، وفيها مدراس وتكايا وعدة خانات وحمام[١].

بريشتينا

أسّسها أحد ملوك الصرب وفتحها السلطان مراد الأول في ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩م، الذي حوّل قلعتها إلى أنقاض.

فيها ٢٠٦٠ بيتاً بطابق وطابقين كلها محاطة بحدائق وعدة محلات وست جوامع وست مساجد وعدة مدارس ومدرسة متخصصة في علم الحديث وعدة تكايا وأحد عشر خانا وعدة حمامات و٣٠٠ دكان[٢].

كاتشانيك

جاء اسمها من المكان الذي يلجأ إليه قطاع الطرق من الألبان.

بنى في هذا المكان فاتح اليمن سنان باشا حصناً فيه الآن حامية من خمسين نفراً وداخل الحصن ٤٠-٥٠ بيتاً لأجل حاجات الحامية، وخارج الحصن هناك مئة بيت وجامع وتكية للبكتاشية ومدرسة للأولاد وحمام وخان وهي مقر لقاض[٣].

ليجا

استخلصها السلطان محمد الفاتح بصعوبة من البنادقة في ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨م. فيها الآن جوامع ومدارس وتكايا وخانات وحمامات ودكاكين[٤].

---

(1) Celebiu ne Shqiperi, p.14.

(2) Ibid., pp.18 - 19.

(3) Ibid., pp.19 - 20.

(4) Ibid., p.24.

شكودرا

المدينة التي نشأت خارج القلعة تشتمل على ١٨٠٠ بيت و١١ جامعاً أولها جامع السلطان بيازيد في رأس البازار و٧ مدارس وكتاتيب و٦ تكايا وخانات وبزستان كبير يحتوي على ٥٠٠ دكان تجد فيه كل مهن وفنون العصر[١].

كافايا

مدينة جاذبة في السهل الممتد، فيها ٤٠٠ بيت محاطة بالحدائق وبيوت كبيرة أو سرايات. فيها ٤ محلات و٤ جوامع و٤ مساجد ومدرستان و٣ كتاتيب وتكيتان[٢].

بتشين

مدينة تشتمل على ٤٠٠ بيت بطابق وطابقين. فيها سبع محلات و٤ جوامع منها جامع عبد الرحـمن باشا قائـد الإنـكشارية والوزير ابن المنطقة الذي يعود له الفضل في نشوء هذه المدينة[٣].

الباسان

«عروس ألبانيـا» نشأت حول القلعـة التي بنـاها السلطـان محمـد الفاتـح في ١٤٦٥م، حتى «أصبحت تشبه إرم ذات العماد بحدائقها». داخل القلعة هناك ٤٦٠ بيتاً وخارج القلعة هناك ١٨ محلة للمسلمين و١٠ لغير المسلمين. فيها ٤٦ جامعاً و١١ تكية و١١ خاناً و٣ مطاعم تقدم الوجبات المجانية وسبع مقاهي «يلتقي فيها أهل القلم والشعراء» وبازار يحتوى على ٢٠٠ دكان[٤].

جيروكاسترا

نشأت خارج القلعة، فيها ٨ محلات تشتمل على ٢٠٠٠ بيت وسرايات. فيها ٨ جوامع وحمام و٣ مدارس لإعداد علماء الدين و٥ كتاتيب و٣ تكايا و٥ خانات و٥ أسبلة وعدة أسواق أشهرها سوق ميمي بك الذي يشتمل على ١٥٠ دكانا[٥].

---

(1) Ibid., p.28.

(2) Ibid., pp.101 - 102.

(3) Ibid., pp.103 - 104.

(4) Ibid., pp.112 - 115.

(5) Ibid., pp.57 - 58.

بيرات

أو «بلغراد الألبانية» من أكبر المدن، تشتمل على ٥٠٠٠ بيت وأكثر من ١٠٠ سراي. فيها ٣٠ محلة للمسلمين منها «محلة الوقف» و١٠ محلات للمسيحيين ومحلة لليهود، و٣٠ جامعاً و٥ مدارس لإعداد علماء الدين و٣ تكايا وحمامان وعدة أسواق أكبرها سوق حسين باشا الذي يشتمل على ١٠٠ دكان، وبالقرب من هذا السوق ٦ مقاه «مزينة كأنها معابد صينية» يرتادها البعض مع أصحابه «للحديث في مسائل فقهية وعامة»، وفي المدينة الكثير من الشعراء والكتّاب[1].



مركز تيرانا في ١٩٢٦م بعدما أصبحت عاصمة ألبانيا، حيث يبدو إلى اليمين جامع أدهم بك الذي لا يزال موجوداً وإلى اليسار جامع آل كرابيتسي الذي هُدم في ١٩٢٧م لبناء مقر البلدية مكانه ١٩٢٨-١٩٣١م الذي هُدم بدوره في ١٩٧٨م لتوسيع الساحة أمام متحف التاريخ القومي.

(1) Ibid., pp.79 - 81.

مدينة على البحر فيها محلات عديدة (سمّى منها ستة) وجوامع (سمّى منها أربعة) وخمسة مساجد في المحلات المذكورة ومدارس (سمّى منها ثلاثة) و٥ كتاتيب و٣ تكايا منها واحدة للخلوتية تضم مئات الأتباع وحمام و٤ خانات وسوق يشتمل على ٤١٧ دكاناً «توجد فيه كل أنواع البضائع»[1].

وقد تطورت هذه المدن وغيرها في القرنين اللاحقين واكتسبت حسب المؤرخ الألباني ضيا شكودرا «مظهر المراكز الحضرية الشرقية في البلقان»[2]، بينما يرى الباحث الهولندي المتخصص في العمارة الإسلامية بالبلقان م. كييل M.Kiel أنها حافظت على الصورة التي وردت عند أوليا جلبي حتى مطلع القرن العشرين، أي عندما أصدر الكاتب الألباني كريستو داكو K.Dako كتابه «ألبانيا المفتاح الحقيقي للشرق الأدنى» في تيرانا عام ١٩٢١م[3] ليدل بذلك على أن ألبانيا كانت حتى تلك الفترة تنتمي إلى «الشرق الأدنى».

وفي الحقيقة كان هذا الكتاب قد صدر بعد سنة فقط من اعتماد تيرانا عاصمة لألبانيا التي اعترفت القوى الأوروبية باستقلالها عن الدولة العثمانية في ١٩١٣م، ولكنها ضاعت خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م وانبعثت بمعجزة في ١٩٢٠م، ولم تستقر وتتطور إلا مع الرئيس/ الملك أحمد زوغو (١٩٢٢-١٩٣٩م)، الذي كان ينافس معاصره مصطفى كمال أتاتورك

(1) Ibid., pp.94 - 95.

(2) Zija Shkodra, Qyteti shqiptar gjate Rilindjes kombetare, Tirane (Instituti i histories) 1984, p.342.

(3) Kristo Dako, Shqiperia celesi kryesor i Lindjes se Aferme, Tirane 1921

في الانسلاخ عن التراث العثماني[1]، وهو ما انعكس على تيرانا بالذات التي اكتسبت ملامح «أوروبية» بالتدريج نتيجة لمشروع تنظيم المدينة في ١٩٣٠م الذي قضى على البنية العمرانية الشرقية في مركز المدينة[2]، التي أجهز عليها نظام أنور خوجه ابتداء من ١٩٤٥م، حتى إنه لم يترك فيها سوى جامع واحد (جامع أدهم بك) لقيمته التاريخية[3].

---

(١) كانت العلاقات جيدة بين الرئيسين ولكن بعدما قرّر أحمد زوغو التخلي عن النظام الجمهوري وتنصيب نفسه ملكا على ألبانيا في ١٩٢٨م ساءت العلاقة بينهما لأن مصطفى كمال أتاتورك كان يعتبر الجمهورية من أسس العلمانية، ولكن العلاقات تحسّنت في ١٩٣٤م بعدما استقبل زوغو السفير التركي الجديد وقال له عن أتاتورك «أنا معجب بسيادته وأعماله..إننا ننظر إلى بلدكم الذي يسير باتجاه الغرب كنموذج بالنسبة إلى بلدنا ونعتبركم قدوة لنا». للمزيد انظر كتابنا: دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، تونس- دبي (مؤسسة التميمي- مركز جمعة الماجد) ١٩٩٦م، ص١٤٧-١٤٩.

(٢) وضعت أول خطة عمرانية لتيرانا في ١٩٢٦م التي شارك فيها المهندس الإيطالي كاستلاني والمهندس النمساوي فايس تجلّت بمركز جديد مع منشآت عامة (وزارات إلخ) بطابع أوروبي لم يبق إلا على جامع أدهم بك، وهو ما استمر خلال الاحتلال الإيطالي لألبانيا ١٩٣٩-١٩٤٣م، ثم جاء العهد الشيوعي ليكمل الدائرة ببناء المكتبة القومية حيث كان يمتد السوق القديم لتيرانا:
Fjalori enciklopedik shqiptar, vo.III, pp. 2031- 2032, 2705.

(٣) للمزيد حول هذا الجامع انظر مقالتنا: تيرانا المدينة التي نشأت حول جامع ونسبت بالخطأ إلى طهران، مجلة «الجيل» عدد ١٠، باريس ١٩٩٣م.

القسم الثاني

الاستشــراق

من الشرق إلى الاستشراق

في الوقت الذي بدأ فيه البلقان بالتدريج يخرج من الشرق ويندرج في الغرب حتى مطلع القرن العشرين، كما رأينا في القسم الأول، برزت أولى ثمار الاستشراق الأوروبي في البلقان من خلال رائدين من البوسنة مثّل كل واحد مدرسة استشراقية : صفوت باشأغيتش Safet Basagic (١٨٧٠-١٩٣٤م) وفهيم بايراكتاروفيتش Fehim Bajraktarovic (١٨٨٩-١٩٧٠م).

وكان الاستشراق في أوروبا الغربية حتى مطلع القرن العشرين قد تطوّر كثيراً منذ بداياته الأولى التي يعيدها بعض الباحثين إلى القرن العاشر وصولاً إلى القرن الثامن عشر الذي برز فيه هذا المصطلح الذي ارتبط أولاً بالجانب الفيلولوجي أو الإحاطة بلغات الشرق وآدابها[1]، ثم برز في خلفياته الأجندة السياسية التي عرّاها إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق»[2].

كان الرائد الأول صفوت باشأغيتش يمثّل الجيل المخضرم الذي عايش نهايات الحكم العثماني ثم الأوربة المميّزة للحكم النمساوي ١٨٧٨-١٩١٨م.

---

(١) للمزيد حول بدايات الاستشراق وتطوره ومدارسه انظر كتاب الباحث البوسنوي: د.أحمد إسمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة (دار المعارف)، ١٩٨٠م، ص٢٢-٢٥.

(٢) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة والإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت (مؤسسة الأبحاث العربية) ١٩٨١.

وأخيراً تجربة يوغسلافيا الفاشلة ١٩١٨-١٩٤١م. فقد أكمل المدرسة الإعدادية (الرشدية) التي بقيت في سراييفو من الحكم العثماني ثم انتقل إلى المدرسة الثانوية في سراييفو التي تأسست ضمن سياسة الأوربة، التي فتحت له الطريق لمتابعة دراسته في قسم الاستشراق بجامعة فيينا خلال ١٨٩٥-١٨٩٩م. وقد أتقن هناك تعلم اللغتين العربية والفارسية وفق المناهج الحديثة ودرس الآداب الشرقية ليعود إلى سراييفو مدرساً للغة العربية في المدرسة الثانوية، ثم انتقل إلى جامعة زغرب لتدريس اللغات الشرقية هناك. وخلال السنوات اللاحقة بقي مهتماً بمتابعة دراسته العليا في جامعة فيينا، حيث تفرّغ لذلك خلال ١٩٠٨-١٩١٠م وناقش في ١٩١٠م رسالته للدكتوراة التي كتبها بالألمانية «البشانقة والهراسكة في الأدب الإسلامي»[1].

كان باشأغيتش رائداً في تأسيس مدرسة الاستشراق الفيلولوجي على النمط النمساوي وفي تأسيس قاعدة للاستشراق البوسنوي الجديد الذي ارتبط بدراسة تراث بلده باعتباره يمثّل الذات وليس الآخر. فقد اهتم أولاً بتاريخ البوسنة وأصدر في سراييفو عام ١٩٠٠م «تاريخ مختصر للبوسنة والهرسك ١٤٦٣-١٨٥٠م» الذي بقي لعدة عقود مرجعاً للباحثين المسلمين في البوسنة، وبدأ بعدها يستفيد من اللغات الشرقية التي يعرفها (العربية والتركية والفارسية) في التعريف بآداب تلك اللغات. وفي هذا السياق فقد أنجز أول ترجمة مباشرة لرباعيات الخيام مع دراسة عنها ونشرها في سراييفو ١٩٢٨م. ومن ناحية أخرى فقد اهتم بالبحث عن المخطوطات النادرة الموجودة في البوسنة باللغات الثلاث (العربية والتركية والفارسية) حتى تجمّعت لديه مجموعة قيّمة جداً أصدر فهرساً وصفياً لها في ١٩١٧م. وفي هذا السياق يمكن اعتبار باشأغيتش الرائد في دراسة التراث البوسنوي باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية)، وهو المجال الذي اختاره لرسالة الدكتوراة التي نشرها في ١٩١٢م، وبقيت تلهم عدة أجيال

---

(1) S.Basagic, Die Bosniaken und Hercegovacen auf dem Gebiete der islamischen Literatur, Wien 1910.

من بعده[1]. وفي هذا الإطار فقد اهتم بالعالم البوسنوي المعروف حسن كافي الاقحصاري[2] وكتابه المشهور «نظام العالم» الذي ألفه بالعربية وترجمه مع دراسة عنه في ١٩١٩م.

ولكن مشكلة باشأغيتش أنه كان يمثّل العهد النمساوي (١٨٧٨-١٩١٨م)، الذي انتخب فيه نائباً في البرلمان المحلي، ولذلك لم يحظ بالتقدير في الدولة اليوغسلافية التي قامت على أنقاض مملكة النمسا والمجر. صحيح أنه عُيّن محافظاً للمتحف الأركيولوجي في سراييفو خلال ١٩١٩-١٩٢٧م ولكن أحواله تدهورت حتى اضطر إلى بيع مكتبته القيّمة بمخطوطاتها الشرقية إلى جامعة براتيسلافا، التي وضعتها في ركن خاص تقديراً لقيمتها والتي ضمّتها اليونسكو في ١٩٩٧م إلى قائمة التراث العالمي[3].

أما الرائد البوسنوي الآخر فهيم بايراكتاروفيتش فقد ولد عام ١٨٩٩م في غورني وقف وتوجه إلى سراييفو لإكمال دراسته في المدرسة الثانوية الجديدة التي كانت من نتاج سياسة الأوربة، وبعد تخرّجه منها تابع طريقه إلى جامعة فيينا لدراسة اللغات الشرقية والفيلولوجيا السلافية في كلية الآداب. وبسبب ظروف الحرب العالمية الأولى تأخر تخرّجه إلى عام ١٩١٧م، ولكنه عوّض ذلك

---

(1) Savfet Basagic, Bosnjaci i Hercegovaci u islamskoj knjizevnosti, Srajevo 1912.
وقد أعاد النظر فيها ووسّع فيها لتصدر بعد وفاته في ١٩٣١م بعنوان مختلف «الكروات والبشانقة والهراسكة في الإمبراطورية التركية»
Zanimati Hrvati, Bosnjaci i Hercegovaci u Turskoj caravini, Sarajevo 1931.

(٢) انظر مقالتنا عنه في الموسوعة العربية الكبرى، ج٣، دمشق ٢٠٠١م، ص٦٢.

(٣) للمزيد حول هذه المجموعة الغنية انظر مقالتنا: مكتبة باشأغيتش من سراييفو إلى براتيسلافا، جريدة «الحياة» ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٠م.
على الرغم من ريادة باشأغيتش في البوسنة سواء في تكريس الاستشراق الفيلولوجي الذي حمله معه من جامعة فيينا أو تأسيس قاعدة للاستشراق البوسنوي الجديد إلا أن الاهتمام به لم يعطه حقه إلا بعد استقلال البوسنة، حيث نوقشت عنه رسالة دكتوارة نشرت مؤخراً:
Lejla Gazic, Naucno i strucno djelo Dr. Safvet- bega Basagica, Sarajevo (orijentalni institut) 2010.

بمناقشة رسالته للدكتوراة عن الشاعر أبو الكبير الهذلي في نهاية ١٩١٨م[1]. وبالمقارنة مع باشأغيتش تعرّف بايراكتاروفيتش على مدارس الاستشراق الأخرى في أوروبا الغربية، حيث قضى عام ١٩١٩ في لندن بالكلية الجامعية University College ثم صاحب المستشرق الفرنسي المعروف المتخصص بالدراسات الفارسية هنرى ماسيه Henri Masse (١٨٨٦-١٩٦٩م) إلى الجزائر حيث بقي يعمل معه هناك خلال ١٩٢٢-١٩٢٤م.

وفي ١٩٢٥م عاد بايراكتاروفيتش إلى موطنه الذي غدا جزءاً من مملكة يوغسلافيا في ١٩١٨م، وانضم إلى جامعة بلغراد حيث بدأ أولاً في تدريس تاريخ الأدب الفارسي، ثم انتقل في ١٩٢٦م إلى قسم الاستشراق الذي تأسس آنذاك مدرساً لعدة مواد فيه ورئيساً له حتى تقاعده في ١٩٦٠م. وقد بقي يعمل في القسم كمحاضر غير متفرّغ إلى وفاته في ١٩٧٠م، حتى استحق لقب «عميد الاستشراق في يوغسلافيا». ويلاحظ هنا أن بايراكتاروفيتش بدأ أولاً في الدراسات العربية التي جعلت له اسماً في الأوساط الاستشراقية الأورربية مع نشره لديوان الهذلي، ولكن مصاحبته للمستشرق ماسيه جعلته ينشغل بالدراسات الفارسية، التي قدّم فيها أهم إسهاماته العلمية، بالإضافة إلى الدراسات التركية. ومن ناحية أخرى فقد أفادته نشأته البوسنوية ومعرفته للغات الشرقية في الخوض في قضايا ذات الحضور المشترك في العالم الإسلامي، وهكذا فقد نشر دراسته عن قصائد المولد النبوي لدى المسلمين في يوغسلافيا في ١٩٢٧م، كما نشر دراسة أخرى عن نصر الدين خوجه/ جحا (١٩٣٤م)، الذي له حضوره المميّز لدى المسلمين في يوغسلافيا،

---

(١) انظر أعماله التي نشرت في مختلف اللغات (الفرنسية والألمانية والصربية) في :

Kararina Jaiv, "Orientalistika u periodicnim izdanjama Filozofskog odnosno Filoloskog fakulteta u Beogradu 19251996-" in Slobodan Grubacic (urednik), Orijentalistika, Beograd (Filoloski fakultet) 1997, pp.133 - 182.

ولكنه استفاد أكثر من معرفته بالثقافة الشرقية الإسلامية لإنجاز عمله الأهم «تأثير الشرق على غوته».

وعلى رغم أهمية هذه الدراسات التي كان لها طابع الريادة، إلا أن د.بايراكتاروفيتش سيشتغل ويبدع أكثر في الدراسات الفارسية. ويبدو أن إقامته في الجزائر عامين متواصلين (١٩٢٢-١٩٢٤م) مع المستشرق الفرنسي هنري ماسيه، وتدريسه لمادة «تاريخ الأدب الفارسي» في جامعة بلغراد منذ عام ١٩٢٥م، كان لها الأثر الأكبر على اهتمامه وانشغاله بالدراسات الفارسية. وفي هذا المجال فقد أخذ اسم د.بايراكتاروفيتش يشتهر مع نشر مختارات من أشعار سعدي في ١٩٢٦م، وترجمة ملحمة الفردوسي «رستم وسهراب» في ١٩٢٨م، التي تضمنت دراسة عن حياة الفردوسي وأعماله. وقد أخذ في الاهتمام لاحقاً بالخيّام، حيث كتب نقداً لترجمة «الرباعيات» التي صدرت لميرزا صفوت في ١٩٥٤م، ونشر في ١٩٦٣م دراسته «الخيّام عندنا» ليتوّج ذلك في ١٩٦٤م بنشر ترجمة جديدة لرباعيات الخيّام. وقد حظيت هذه الترجمة الجديدة بنجاح أكبر، إذ أعيدت طباعتها في ١٩٧٦م، وقد توج د.بايراكتاروفيتش حياته بإنجاز «مختارات من الشعر الفارسي» التي صدرت بعد وفاته في ١٩٧١م، كما قام بعد وفاته اثنان من تلاميذه (ماريا جوكانوفيتش وداركو تاناسكوفيتش) بإصدار محاضراته «نظرة في تاريخ الأدب الفارسي» في كتاب خاص مع مقدمة عنه في ١٩٧٩م.

وعلى رغم الشهرة العلمية التي كان يحظى بها د.بايراكتاروفيتش باعتباره «عميد الاستشراق» و«مؤسس الاستشراق العلمي» في يوغسلافيا إلا أنه كان يؤخذ عليه تأثره بالنزعة الاستشراقية المركزية والنزعة القومية الصربية. وفي الواقع لم يهتم د.بايراكتاروفيتش كثيراً بالتراث الشرقي لشعبه (البشانقة)، على رغم معرفته الواسعة بهذا التراث، لأنه كان يعتبر الاستشراق مجالاً لدراسة الآخر خارج أوروبا. أما بالنسبة للنزعة القومية الصربية فقد كان د.بايراكتاروفيتش

يمثل أقلية بشناقية متماهية مع بلغراد، التي لم تكن تعترف بالبشانقة كشعب بل تعتبر البشانقة من الصرب الذين لا يختلفون عن غيرهم إلا باعتناق الإسلام. وفي هذا الإطار يلاحظ أن الدراسة الأولى التي نشرها د.بايراكتاروفيتش عن تقاليد المولد النبوي لدى البشانقة في البوسنة إنما صدرت في ١٩٢٧م بعنوان «قصائد صربية حول مولد محمد»، ولكنه أعاد نشرها بعد عشر سنوات بعنوان آخر «حول المولد لدينا والمولد في شكل عام» نتيجة للملاحظات التي أثارها العنوان السابق[1].

ولايذكر فهيم بايراكتاروفيتش إلا ويُذكر معه ابن عـمّه سليمان بايراكتاروفيتش

(١٨٩٦-١٩٧٧م)، الذي نقل الاهتمام بالدراسات الشرقية إلى المركز المنافس لبلغراد (زغرب) في مملكة يوغسلافيا. وكان سليمان يشترك مع فهيم في الاهتمام باللغات الشرقية، وذهب أولاً إلى استانبول حيث تخرج في المدرسة السلطانية في ١٩١٣م، ثم التحق بمدرسة القديس ميشيل الفرنسية لكي يذهب بعدها إلى فرنسا لدراسة اللغات والآداب الشرقية، ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى أعاده إلى سراييفو ليلتحق بـ«الأكاديمية التجارية» ومنها إلى جامعة فيينا ليتخرج من كلية التجارة. ومع عمله في هذا المجال إلا أن اهتمامه الأصلي بدراسة اللغات الشرقية غلب عليه فقام في ١٩٣٣م بجولة طويلة في الشرق الأوسط شملت استانبول وحلب وبيروت والقدس والقاهرة والإسكندرية تعرّف فيها على المخطوطات الشرقية والتقى بالمتخصصين ثم عاد إلى زغرب ليلتحق بالقسم الشرقي في الأكاديمية اليوغسلافية للعلوم والفنون، حيث اشتهر

---

(١) انظر أعماله التي نشرت في مختلف اللغات (الفرنسية والألمانية والصربية) في :
Kararina Jaiv, "Orientalistika u periodicnim izdanjama Filozofskog odnosno Filoloskog fakulteta u Beogradu 19251996-" in Slobodan Grubacic (urednik), Orijentalistika, Beograd (Filoloski fakultet) 1997, pp.133 - 182.

بدراساته المتخصصة في المخطوطات والوثائق الشرقية الموجودة في جمهورية كرواتيا. ومع أنه تقاعد من الأكاديمية في ١٩٦٥م، إلا أنه بقي يعمل معها بعقد حتى ١٩٦٩م، ويواصل نشر أبحاثه المتخصصة إلى أن توفي في ١٩٧٧م. ومن أهم أبحاثه دراساته عن المخطوطات الشرقية في الأكاديمية التي كان مسؤولاً عنها وعن مجموعة المخطوطات الشرقية للبارون أوتنفلس Ottenfels في مركز وثائق الدولة بزغرب وعن الوثائق العثمانية في مركز الوثائق براغوصة/ دوبروفنيك إلخ[1].

ومع هذا وذاك بقي قسم الاستشراق في مملكة يوغسلافيا (١٩١٨-١٩٤١م) متواضعاً حيث إن فهيم بايراكتاروفيتش كان يدرّس معظم المواد وكان عدد الطلاب محدوداً بحكم عدم اهتمام يوغسلافيا الملكية بالعالم العربي ومشاكلها مع المسلمين لديها وانشغالها بمشاكلها الداخلية التي أدت أخيراً إلى انهيارها في نيسان ١٩٤١م. ولكن مع تشكّل جهورية يوغسلافيا الفدرالية في ١٩٤٥م، التي تميّزت بعد ١٩٤٨م بانفتاح أوسع على المسلمين في الداخل وعلاقات واسعة مع العالم العربي الإسلامي ضمن حركة عدم الانحياز ازداد الاهتمام كثيراً بالعالم العربي الإسلامي وشهدت الخمسينيات طفرة في عدد الطلاب الملتحقين بقسم الاستشراق في يوغسلافيا وبروز مركز آخر (سراييفو) منافس لبلغراد في هذا المجال. ففي ١٩٥٠م تأسّس قسم الاستشراق في جامعة سراييفو كما تأسس في السنة ذاتها معهد الاستشراق الذي أطلق مجلته المتخصّصة «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية»، التي كانت وبقيت المنبر

(1) Lejla Gazic,Sulejman Bajraktarovic i njegov rad u oblasti orijentalistike", POF. 27, Sarajevo 1077, pp.287292-.

وتجدر الإشارة إلى أن مركز الوثائق في راغوصة/ دوبروفنيك يشتمل على مجموعة قيمة من الوثائق العربية نشرها في ثلاثة أجزاء المستشرق البوسنوي بسيم قرقوت ونشرت مؤخرا في طبعة جديدة في القاهرة :

بسيم قرقوت، الوثائق العربية في دار المحفوظات بمدينة دوبروفنيك، أعدّ الطبعة العربية وقدّم لها: محمد م. الأرناؤوط، القاهرة (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٨م.

الوحيد للدراسات الاستشراقية المتخصصة. ومع توسّع علاقات يوغسلافيا الفدرالية مع العالم العربي الإسلامي وإعادة تشكيل الفدرالية اليوغسلافية خلال ١٩٦٨-١٩٧١م، بشكل سمح للألبان في كوسوفا أن يحظوا بحقوق أكثر، تأسّس في ١٩٧٣م القسم الثالث للاستشراق في جامعة بريشتينا الوليدة، الذي أخذ مع الزمن ملامحه الخاصة كما هو الأمر مع الاستشراق في البوسنة، وهو ما سنتناوله لاحقاً.

وفي الواقع، كانت التوترات الداخلية التي عصفت بيوغسلافيا بعد موت تيتو في ١٩٨٠ تنعكس بدورها على مجال الاستشراق، وهو الذي تزامن بدوره مع صدور كتاب ادوارد سعيد «الاستشراق»، مما ولّد نقاشا وتمايزاً واضحاً بين «مدرسة بلغراد» و«مدرسة سراييفو» حول مفهوم الاستشراق وعلاقته بالمركزية الأوروبية وخدمة الأجندات السياسية استمر حتى انهيار يوغسلافيا في ١٩٩١م وحرب البوسنة ١٩٩٢ - ١٩٩٥م، التي ظهرت فيها الأجندة السياسية لبعض المستشرقين، وهو ما سنتناوله في الفصول اللاحقة.

وفي جوار يوغسلافيا، التي كانت تغطي لوحدها تقريبا غرب البلقان حتى ١٩٩١م، نجد أن بلغاريا شهدت انبثاق القسم الثاني للاستشراق في البلقان. وكانت بلغاريا قد استقلت تماماً عن الدولة العثمانية في ١٩٠٨م وانشغلت في حروب البلقان ١٩١٢- ١٩١٣م، ثم خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م، لتوسيع حدودها مما جعلها في علاقات متوترة مع الدول المجاورة التي توسعت على حساب أراضيها (تركيا ورومانيا ويوغسلافيا واليونان). ومع انهيار مملكة يوغسلافيا في ١٩٤١م، استعادت بلغاريا مكدونيا وجزءاً من كوسوفا خلال ١٩٤١-١٩٤٤م، لتعود إلى حدودها السابقة مع إعلان الجمهورية في ١٩٤٥م. وعلى عكس بلغاريا الملكية اتسمت بلغاريا الجمهورية بعلاقات جديدة مع العالم العربي في خمسينيات القرن الماضي مما انعكس ذلك على الاهتمام بالدراسات الشرقية وتأسيس أول قسم للاستشراق في جامعة صوفيا.

ففي ١٩٦٣م وُقِّع اتفاق ثقافي بين بلغاريا وسوريا أوفدت بموجبه وزارة الثقافة السورية الخبير في المخطوطات العربية عدنان درويش الذي أقام عدة شهور في صوفيا اطلع فيها على حوالى ثلاثة آلاف مخطوطة في المكتبة الوطنية القريبة من جامعة صوفيا وأقام علاقات مع بعض الرواد في الدراسات العربية مثل بينكا سامسارفا P.Samsareva ويوردان بيف J.Peev اللذين يعتبران من مؤسسي أول قسم للدراسات العربية في جامعة صوفيا في ١٩٦٤م. وفي الواقع كان للمجلدين اللذين أصدرهما عدنان درويش عن أهم المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية، وكذلك للمجلد الذي أصدره الباحث العراقي المعروف د.يوسف عز الدين[١]، أثر واضح في ازدياد الاهتمام بهذا القسم الرائد من الجانبين البلغاري والعربي. فقد خرّج هذا القسم حوالى ٣٠٠ طالب تابع بعضهم الدراسات العليا لينضم بدوره إلى هيئة التدريس في القسم مثل تسفيتوميرا باشاوفا C.Pasova المتخصصة باللغة العربية والتي أصبحت تمثّل النقلة الجديدة للقسم في الكم والنوع[٢]. وبمناسبة الذكرى الثلاثين للقسم صدر مجلد كبير عن جامعة صوفيا يعرّف بالإسهامات العلمية لأساتذة القسم من الجيل المؤسس والجيل الجديد، حيث يتضح أن اهتمامات القسم تتعدى الاستشراق الفيلولوجي لتشمل دراسات التاريخ والمجتمع العربي والإسلامي وصولاً إلى الإسلام السياسي[٣].

---

(١) عدنان درويش، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة كيريل ومتودي، ج ١ دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٦٩م، وج ٢ دمشق (وزارة الثقافة) ١٩٧٦م، ويوسف عز الدين، مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية، بغداد (المجمع العلمي العراقي) ١٩٦٨م.

(٢) للمزيد عن القسم ونشاطها انظر اللقاء الذي أجراه معها موقع «صوت العربية» بتاريخ ٢٥/٧/٢٠٠٨م.

(3) 30 Years of Arabic anda Islamic Studies in Bulgaria, edited by Tz. Theophanov, P.Samsareva, J.Peev & P.Pvlovich, Sofia (St.Klimend Ohridski University Press) 2008.

وإلى جانب ذلك فقد انشغل أساتذة القسم بترجمة بعض آثار الأدب العربي إلى اللغة البلغارية، كما ساعدوا على ترجمة الأدب البلغاري إلى اللغة العربية. وفي مجال ترجمة الأدب العربي إلى البلغارية يلاحظ أن الدائرة تمتد من الأدب الكلاسيكي إلى الأدب المعاصر، حيث قامت د. فيسلينا رايكوفا V.Rajkova بترجمة كتاب «البخلاء» للجاحظ وكتاب «حي بن يقظان» لابن الطفيل مع دراسة قيّمة عنهما، بينما ارتبطت ترجمة الأدب المعاصر بالأوضاع في المنطقة العربية (ترجمة أشعار محمود درويش) وحصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل في ١٩٨٠م. ولكن يلاحظ أن انحسار علاقات بلغاريا مع الدول العربية التي كانت ترتبط معها بعلاقات خاصة بعد ١٩٩٠م أثّر بدوره في نشاط القسم وانحسار الترجمة بسبب صعوبة المرحلة الانتقالية التي كانت تعيشها بلغاريا إلى حدّ أن إصدار مختارات من «نهج البلاغة» للإمام علي بن أبي طالب كان يتطلب تمويلاً من الممثلية الثقافية لجمهورية إيران الإسلامية[1].

ومع ذلك يلاحظ أن الدراسات العربية لم تعد محصورة في صوفيا ولا في أقسام مستقلة بعد التحول الديمقراطي الذي بدأ في بلغاريا في ١٩٨٩م. ففي جامعة فيلكو ترنوفو لدينا وجود للدراسات العربية ضمن «قسم الدراسات الكلاسيكية والشرقية» في كلية اللغات الحديثة، كما إن أول جامعة خاصة تأسست في ١٩٩١م، ضمت «قسم الدراسات المتوسطية والشرقية» الذي بادر في كانون الأول ٢٠١٢م، إلى تنظيم مؤتمر «تحولات منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والبلقان: إشكاليات وتحديات» بالتعاون مع مركز الجزيرة للدراسات في الدوحة[2].

---

(١) الشرق الأوسط ٢٤/١١/٢٠٠٩م.

(٢) للمزيد حول هذا المؤتمر انظر: «مؤتمر تحولات منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والبلقان»، موقع مركز الجزيرة للدراسات ٢٦/ ١٢/ ٢٠١٢م.
Studies. Aljazeera. Net/events/2012201212269372245773/12/.htm.

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن توتر العلاقات اليونانية التركية قد أثّر بدوره في تأخر ظهور الدراسات الشرقية في اليونان. ولكن مع تطور العلاقات مع العالم العربي في النصف الثاني للقرن العشرين بدأت تظهر مراكز دراسات وأقسام تشتغل على الدراسات الشرقية مثل معهد الدراسات الشرقية والأفريقية الذي أسّسه عام ١٩٩٥م في أثينا البرفسور خريستيديس فاسيلوس H.Vasilos، ويصدر «مجلة الدراسات الشرقية والأفريقية». وبالإضافة إلى إصدار المجلة يقوم المعهد بعقد الندوات التي تركّز على التاريخ البيزنطي العربي، وشارك مؤخراً بندوة مشتركة مع جامعة الرياض عن علاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي[١]. وفي ١٩٩٨م تأسّس في «جامعة مكدونيا» بسالونيك قسم الدراسات البلقانية والسلافية والشرقية، على اعتبار أن سالونيك تمثّل في تاريخها الطويل تحت الحكم العثماني البعد البلقاني والبعد الشرقي في آن، ولكن النواة الشرقية لا تزال متواضعة. وقد جاء الحدث الأبرز في ٢٠١٢م مع تأسيس مركز الدراسات الشرقية التابع لقسم الحضارة والإعلام في جامعة باندريون للعلوم السياسية والإدارية في أثينا. وحسب نظامه الداخلي تتسع خريطة اهتمامات المركز لتضم آسيا وآسيا الوسطى وأفريقيا والعالم العربي والعالم الإسلامي والبلقان، ولكن بدايات نشاطه تركّزت على «آسيا الصغرى» بحكم ما تمثّله تركيا من أهمية استراتيجية لليونان وبحكم خلفية العاملين فيه[٢].

ومن البلدان التي بقيت متأخرة في هذا المجال ألبانيا، التي كانت أول دولة أوروبية بغالبية مسلمة منذ ١٩١٣م، والتي كانت فيها أرضية

---

(١) للمزيد حول هذه الندوة وأوراقها والمشاركين فيها انظر: الأمير تركي الفيصل يفتتح الندوة الدولية لعلاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي، جريدة «الرياض»، الرياض ٨/ ١٢/ ٢٠١٠م.

(٢) أود أن أشكر هنا الزميل أ.د. عارف عبيد، الأستاذ في جامعة البانديون، الذي زودني بروابط عن هذه المؤسسات.

غنية للدراسات الشرقية سواء من حيث المخطوطات في العربية والتركية والفارسية أو من حيث الرواد الذين برزوا في النصف الأول للقرن العشرين (الحافظ علي كورتشا H.A.Korca وغيرهم). ويبدو أن تأخر ألبانيا في هذا المجال قد ارتبط في النصف الأول للقرن العشرين بحكم أحمد زوغو (١٩٢٢-١٩٣٩م)، الذي عمل بكل السبل على فصل ألبانيا عن الشرق وإلحاقها بالغرب، بينما ارتبط في النصف الثاني للقرن العشرين بحكم الحزب الشيوعي الألباني (١٩٤٥-١٩٩٢م) الذي تطرّف في الموقف من الدين أكثر من أي نظام شيوعي آخر في العالم وعزل العدد القليل من الباحثين في الدرسات الشرقية إلى أن توفوا[١]. ومع التحول الديمقراطي في ألبانيا تأسس في تيرانا عام ٢٠٠٦م «المركز الألباني للدراسات الشرقية» الذي يصدر مجلة «الجسر» Ura التي تنشر الدراسات والترجمات من الأدب العربي غالبا، كما يصدر بعض الترجمات من الأدب العربي إلى اللغة الألبانية[٢]. أما في ما يتعلق بجامعة تيرانا فقد اقتصر الأمر منذ ١٩٩٦م على تأسيس فرع للغة التركية ضمن قسم اللغات السلافية- البلقانية في كلية اللغات الأجنبية.

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أحدث قسم للاستشراق تأسس في جامعة تيتوفو بجمهورية مكدونيا في ٢٠٠٨م، وذلك بإسهام من قسم الاستشراق في جامعة بريشتينا حيث أسهم أعضاء القسم (فتحي مهدي وإسماعيل

---

(١) للمزيد حول عهد زوغو ومايمثله بالنسبة إلى ألبانيا، وكذلك عهد الحكم الشيوعي، انظر كتابنا: الإسلام في أوروبا المتغيرة- تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٧م، ص٤٥-٥١ و٩٩-١٠٨.

(٢) من أواخر إصدارات المركز مختارات من أشعار نزار قباني بعنوان «دمشق» من تقديم مدير المركز ارمال بيغا وترجمة رولاند فيشكورتي :

Nizar Kabbani, Damasku, perktheu Roland Vishkurti, Tirane (Qendra Shqiptare per studime orientale) 2012.

أحمدي ومهدي بوليسي) في وضع الخطة الدراسية له وفي التدريس أيضاً إلى أن يستقر هذا القسم الجديد. ويمثل هذا القسم الاستشراق الفيلولوجي مع الفارق في أن الطلبة يدرسون في السنتين الأوليين مجموعة من المواد المشتركة، ثم يختارون في السنة الثالثة أحد التخصّصين : اللغة العربية وآدابها أو اللغة التركية وآدابها[1].

(١) تصادف افتتاح هذا القسم مع صدور الترجمة الألبانية لكتاب إدوارد سعيد الاستشراق في سكوبيه مما له دلالته:

Edward W. Said, Orientaliz, Perktheu Xhevat Lioshi, Shkup (LogosA) 2008.

الافتراق في الاستشراق اليوغسلافي:
مدرسة بلغراد ومدرسة سراييفو

ضمّت مملكة يوغسلافيا في حدودها التي أُعلنت في أواخر ١٩١٨م بعض المناطق التي كانت تدخل بالمفهوم الأوروبي الغربي ضمن «الشرق الأدنى» حتى مطلع القرن العشرين. فقد كانت هذه المناطق تحت الحكم العثماني حوالى أربعة قرون، حيث انتشر فيها الإسلام بالمفهوم الديني والثقافي والحضاري، حتى إن بلغراد نفسها كانت تسمى حتى مطلع القرن التاسع عشر «بوابة الشرق» لأن القادمين من أوروبا الوسطى والغربية كانوا يشعرون مع دخولهم إلى بلغراد أنهم قد عبروا الحاجز الذي كان يفصل بين الغرب والشرق[١].

ومع إلحاق هذه المناطق بيوغسلافيا في ١٩١٨م، الذي فُرض على سكان هذه المناطق ذات الغالبية المسلمة، تصدّع الوجود النفسي والتعليمي والثقافي للمسلمين بسبب الظروف التي واكبت تأسيس الدولة الجديدة. فقد واجه المسلمون، الذين كانوا يشكّلون حينئذ حوالى ١٢٪ من سكان الدولة، هجمات مسلحة على قراهم وحملات صحفية وسياسية

(١) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) ١٩٨٧م، ص١٩-٢٠.

تتراوح من الدعوة إلى تنصيرهم وحتى الدعوة إلى تهجيرهم إلى تركيا باعتبارهم من الأتراك[1].

وفي هذه الظروف أدمج المسلمون في النظام التعليمي الجديد، الذي فصلهم بالتدريج عن تراثهم الذي كان لهم خلال الحكم العثماني الطويل، والذي كان يدون باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) أو باللغات المحلية بالحروف العربية[2]. وقد اقتصرت الصلة مع ذلك التراث على عدد من العلماء أو الباحثين المخضرمين الذين تابعوا البحث فيه والتعريف بأهم أعلامه وإنجازاته كـ صفوت بك باشأغيتش S.Basagic وسليمان كمورا S.kemura ومحمد خانجيتش M.Handzic وغيرهم[3].

---

(١) عبر عن هذه الحالة رئيس العلماء آنذاك جمال الدين تشاؤوتشفيتش في مقابلة مع صحيفة «الطان» الفرنسية التي كان لها صداها في الخارج والداخل:

Dr. Atif Purivatra, Jugoslovenska muslima nska organizacija u politickom zivotu kraljevine srba, Hrvata i Slovenca, Sarajevo (Svijetlost) 1977, pp. 6367-.

للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، عمان (دار البشير) ١٩٩٣م، ص١٩٣-١٩٥.

(٢) للمزيد حول هذا التراث الشرقي تجدر الإشارة إلى عمل رائد في العربية أصدره في القاهرة ١٩٣١م الباحث البوسنوي محمد الخانجي (خانجيتش): محمد بن محمد البوسنوي، الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة، القاهرة ١٣٤٩هـ.

وقد صدر هذا الكتاب في طبعة جديدة في الكويت ٢٠١٠م بتحقيقنا مع مقدمة تكشف عن مكانة هذا المؤلف في البوسنة بعد عودته اليها عقب دور هذا الكتاب في القاهرة .

وحول هذا التراث لدينا في العربية عرض لأحدث كتاب صدر في سراييفو مؤخراً: أسعد دوراكوفيتش، التراث البوسنوي باللغات الشرقية، مجلة «الندوة» مجلد ٦، عدد٢، عمان ١٩٩٦م، ص٢٩-٣٠.

وللتوسع حول هذا التراث لدينا مرجع رئيس في الألمانية صدر مؤخراً:

Smail Balic, Das Unbekannte Bosnien- Europas Bruker Zur Islamischen Welt, Koln/ Wien 1992.

(٣) للمزيد حول صفوت باشأغيتش انظر مقالتنا: مكتبة باشأغيتش/ مجموعة تضم أندر المخطوطات الشرقية، جريدة «الحياة ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٠م، ص٢١ . وأما عن محمد خانجيتش/ الخانجي فهناك معلومات عنه في مقدمة الطبعة الجديدة لكتابه «الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة» التي أصدرها في الكويت (مؤسسة البابطين) ٢٠١٠م.

ومن ناحية أخرى فقد برز في قلب الدولة الجديدة (بلغراد) اهتمام بالاستشراق تمخض عن تأسيس أول قسم للاستشراق في جامعة بلغراد خلال ١٩٢٦م. وفي الحقيقة لقد عرفت صربيا، نواة يوغسلافيا، بعد استقلالها في ١٨٧٨م بروز أول جيل من المهتمين/ المترجمين بالجوار المسلم (الذي كانت صربيا ترغب في التوسع فيه) مثل ديمتري تشوهاجيتش D.Cohazic الذي ترجم كتاب «سياحت نامه» لأوليا جلبي (بلغراد ١٩٠٥م)، وس.نوفاكوفيتش S.Novakovic الذي ترجم «مذكرات إبراهيم منصور أفندي حول بعض الأحداث في البوسنة وصربيا خلال ١٨١٣-١٨١٤م» (بلغراد ١٨٩٣م) وجورج بوبوفيتش Dj.Popovic الذي نشر مع سبيرو حاجي رستيتش S.hadzi Ristic أول «قاموس تركي- صربي» (بلغراد ١٩١٠م) ثم نشر بعد ذلك الكثير من الأعمال الرائدة[1].

ولكن الاستشراق الصربي/اليوغسلافي عادة يرتبط باسم فهيم بايراكتاروفيتش F.Bajroktarovic (١٨٨٩-١٩٧٠م)، الذي أسّس أول فرع للاستشراق في جامعة بلغراد والذي بقي حضوره مؤثراً حوالى خمسين سنة[2]. وفي الحقيقة إن ربط الاستشراق اليوغسلافي باسم بايراكتاروفيتش وحضوره المؤثر حوالى نصف قرن إنما يعود لعدة أسباب. فقد كان بايراكتاروفيتش يمثل تياراً من البشناق الذين يعتبرون أنفسهم من الصرب، ولذا كان بمعايير بلغراد النموذج الذي تتمنى أن يتبعه البشناق المسلمون. ومن ناحية أخرى فقد كان بايراكتاروفيتش يمثّل مدرسة في الاستشراق كانت تناسب أيضاً بلغراد. وهكذا

---

(١) غليشا الزوفيتش Glisa Elezovic (١٨٧٩-١٩٦٠م) ولد في فوشترن/ كوسوفو وعايش نهاية الحكم العثماني. درس في استانبول وبلغراد (اللغات) واشتغل في الإدارة الصربية/ اليوغسلافية حتى أصبح مفتشاً للتعليم في الوزارة. تقاعد في ١٩٢٤م وتفرغ للبحث والنشر. ساعدته معرفته للغات (التركية- العثمانية والألبانية وغيرها) على البحث في تاريخ المنطقة خلال الحكم العثماني. ومن أهم مؤلفاته «لآثار التركية» و«من الأرشيف التركي- الدفاتر المهمة» وغيرها.

(٢) للمزيد حول بايراكتاروفيتش انظر مقالتنا عنه التي صدرت بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاته: بايراكتاروفيتش والاستشراق اليوغسلافي، جريدة «الحياة» ٧/ ٢/ ٢٠٠١م، ص٢٠.

فقط برز منذ الثلاثينيات من يروج لبايراكتاروفيتش باعتباره «مستشرقنا الوحيد الذي يعمل حسب الأصول العلمية»[1].

وفي الحقيقة إن هذا الترويج لبايراكتاروفيتش كان يرتبط بترويج أوسع للاستشراق الأوروبي الغربي باعتباره المثل الأعلى للأوروبيين (في أوروبا الشرقية) وحتى للشرقيين/ المسلمين في دراسة تاريخهم وأدبهم. فحسب هذا الموقف كانت أوروبا بالغربية هي التي أحست بالحاجة منذ قرون لدراسة لغات الشرق وأدبه ومؤسساته الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وذلك لأهداف متداخلة (دينية وسياسية واقتصادية)، ولكن «لحسن الحظ جاء الوقت الذي أصبح فيه الاستشراق في أوروبا يمارس لأهداف علمية بحتة». وبالاستناد إلى هذا «كان الاستشراق العلمي حتى عهد قريب يمارس في الغرب فقط، ولكن في العقود الأخيرة أخذ الشرق يتّبع الغرب في ذلك. وهكذا فقد نظمت الآن في القاهرة وطهران واستانبول دراسات استشراقية قوية تأخذ تماماً بالمناهج الأوروبية للعمل العلمي»[2].

وهكذا يتبيّن من هذا الموقف المبكر الذي يروج للاستشراق الأوروبي الغربي مدى تمثل النزعة الأوروبية المركزية، التي أصبحت هي المرجعية في مناهجها وفي نتائجها حتى للشرقيين أنفسهم. وبهذا المفهوم كانت تتكرس الثنائية التي تقوم على الذات/ المركز الأوروبي المتفوق بعلمه والآخر/ الشرق المتخلف الذي لا بد أن يأخذ بما يقدّمه له الأول عن ذاته أيضاً. وهكذا بدأ الآن، حتى في وسط مسلمي يوغسلافيا، التمييز بين العلماء/ المستشرقين «الذين يدرسون موضوعاتهم حسب المناهج العلمية الغربية» (وعلى رأسهم بايراكتاروفيتش الذي أصبح المثل الأعلى لهم) وبين العلماء/ الشرقيين الذين تخرجوا من المدارس التقليدية في البوسنة وغيرها وأصبح منهجهم يعتبر الآن

(1) M. Tajib Okic, ‹Orijentalisticka u Jugoslaviji›, Pregled, Sv -127128-, Srrajevo,1934, P.411.

(2) Ibid, p.409.

«شرقياً لا يناسب العمل في هذا المجال» كإبراهيم أدهم I.Edhem ومحمد توفيق أوكيتش M.Lkic وغيرهم[١].

وفي الواقع إن هذا التميز بين المدرستين، الذي ظهر علانية منذ الثلاثينيات، استمر مع بايراكتاروفيتش حتى الخمسينيات حين دخل في سجال علني مع بعض «العلماء الشرقيين» في سراييفو حول موضوعات علمية بحتة. وكان بايراكتاروفيتش قد نشر في عام ١٩٥٥م مقالة بعنوان «أهل دوبروفنيك وزادار في ألف ليلة وليلة» وردّ عليه «العالم الشرقي» بسيم قرقوت[٢] B.Korkut من سراييفو يفنّد ما جاء في مقالته، فما كان من بايراكتاروفيتش (الذي كُرّس في يوغسلافيا وأوروبا باعتباره أحسن مستشرق) إلا أن رد عليه بتعالي «المستشرقين» على «الشرقيين» وحتى بتهكم على «تربيته الأزهرية/ المدرسية المعوجة»[٣]. والمشكلة هنا أن قرقوت كان على حق في انتقاده لبايراكتاروفيتش، الذي أُحرج لأول مرة في الأوساط العلمية.

وفي الحقيقة إن هذا السجال بين بايراكتاروفيتش وقرقوت، وبالتحديد بين بلغراد وسراييفو، في الخمسينيات إنما كان يمهد ويؤشر إلى تطور جديد في الاستشراق اليوغسلافي، وبالتحديد إلى بروز مفهوم آخر للاستشراق في يوغسلافيا.

وكان مما مهّد لذلك جملة من التطورات الجديدة. فالنظام الملكي (الصربي) في يوغسلافيا (١٩١٨-١٩٤١م) كان يتنازع مع القوى السياسية

---

(1) Ibid, p.410.

(٢) بسيم قرقوت B.Korkut ١٩٠٤-١٩٧٥ ولد في ترافنيك Travnik وذهب إلى القاهرة لمتابعة دراساته حيث تخرج من كلية الشريعة والقانون. بعد عودته عمل فترة في التدريس، والتحق بمعهد الاستشراق فور تأسيسه (١٩٥٠م) وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق/ جامعة سراييفو. ترجم «كليلة ودمنة» وأجزاء من «ألف ليلة وليلة» و«نوادر عربية» وغيرها، وتوج حياته بترجمة القرآن الكريم (١٩٧٧م) التي اعتبرت من أفضل الترجمات التي صدرت حتى ذلك الحين.

(3) Fehim Bajraktarevic, "Odgovor na natpis "Da li se Zadereni Spominju u Hijadu i jednoj noci", POF X- XI, Sarajevo, 1961, p.2750.

الكرواتية حول البوسنة، إذ كان كل طرف يدعي انتساب البشانقة المسلمين إليه ويطالب بضم البوسنة إليه باعتبارها من كيانه القومي، ولذلك كان من مصلحة بلغراد أن يكون هناك قسم واحد للاستشراق في البلاد (بلغراد) على رأسه مستشرق مثل بايراكتاروفيتش يكون في خدمة النظام القائم. وهكذا حين اهتم بايراكتاروفيتش بتقاليد المولد النبوي عند المسلمين في البوسنة نشر ما كتبه تحت عنوان «قصائد صربية عن النبي محمد»[1]، على اعتبار أن هذا التراث البشناقي المسلم جزء من الثقافة الصربية[2]. وفي المقابل كانت زغرب تحاول أن تستقطب في البوسنة شخصية محورية تروج للانتماء الكرواتي للبشانقة المسلمين[3]. ومع تفتت يوغسلافيا في الحرب العالمية الثانية (١٩٤١- ١٩٤٥م)، التي شهدت ضم البوسنة إلى «دولة كرواتيا المستقلة» ظهرت في الأفق روح- صيغة فدرالية في ١٩٣٤م تعتبر بالبوسنة ككيان خاص، مما مهد لتأسيس يوغسلافيا الفدرالية التي أصبحت فيها البوسنة جمهورية من جمهورياتها الست[4].

وبالمقارنة مع يوغسلافيا الملكية ذات النزعة المركزية، التي تستلهم أوروبا الغربية في السياسة والاقتصاد وحتى الاستشراق، كانت يوغسلافيا الجديدة (الفدرالية) تعي مكوناتها المتعددة ومكانتها كجسر بين الشرق والغرب.

---

(1) F. Bajraktarevic, "Srprka Pesma o Muhamedovu rojenju", Glasnik Skopskog naucnog drustav, Skopje 1927, pp. 189- 202.

(٢) قوبل هذا العنوان باستهجان في أوساط المثقفين في البوسنة، ولذلك اضطر بايراكتارفيتش إلى إدخال تعديلات عليه ونشره ثانية بعنوان آخر «حول المولد لدينا والمولد بشكل عام»:

F. Bajraktarevic, «O nasim Mevlulima i Mevludu uopste». Prilozi za knjzev-nost, jezik, istoriju i folklore, knj.XVII, SV.I, Beograd, 1937.

(٣) كان صفوت باشاغيتش قد حصل في ١٩١٠م على الدكتوراه من جامعة فيينا على رسالته بالألمانية «البشانقة والهراسكة في الأدب الإسلامي»، التي طبعها في سراييفو في ١٩١١م بالعنوان ذاته بعد ترجمتها. ولكن بعد التجاذب الصربي- الكرواتي أعدّ باشاغيتش الرسالة للطبع مرة أخرى في زغرب (١٩٣١م) بعنوان آخر «الكروات البشانقة والهراسكة المشهورون في الإمبراطورية التركية»، مما كان يعني كروتة البشانقة والهراسكة:

Zamenti Hrvati Bosnjaci i Hercegvaci u turskoj Carvini, Zagreb 1931.

(٤) للمزيد حول هذه التطورات انظر: نويل مالكوم، البوسنة، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة (الألف كتاب الثاني) ١٩٩٧م، ص٢٢٦-٢٣٩.

ومع هذه الروح لم تعد كل المؤسسات ممركزة في بلغراد، وإنما أخذت تنشأ مؤسسات موازية (لتلك الموجودة في المركز) في الجمهوريات الأخرى. وفي هذا الإطار فقد تأسس «معهد الاستشراق» (الذي كان الأول والوحيد من نوعه في سراييفو) في ربيع ١٩٥٠م، كما تأسّس في خريف ذلك العام قسم آخر للاستشراق في جامعة سراييفو. ومع تأسيس «معهد الاستشراق» ستؤسّس في الواقع النواة التي ستطور لاحقاً المفهوم الآخر للاستشراق في يوغسلافيا.

وفي الحقيقة إن النواة التي قام عليها معهد الاستشراق كانت تختلف عن نواة قسم الاستشراق في بلغراد بتكوينها وثقافتها. فقد كانت نواة المعهد تضم «الشرقيين» الذين تخرجوا من المؤسسات التقليدية كبسيم قرقوت وصالح عليتش[١] ومحمد مويتش[٢]، والمخضرمين الذين جمعوا بين المؤسسات التقليدية والكليات الحديثة كحميد حاجي بيغتيش[٣] وعمر موشيتش[٤] وحازم

(١) صالح عليتش S.Alic (١٩١٤-١٩٩٧م) ولد في قرية قرب فيسوكو Visoko، بدأ تعليمه على النمط التقليدي ثم ذهب إلى القاهرة ليتابع دراسته حيث حصل على العالمية من الأزهر. ثم انضم إلى معهد الاستشراق (١٩٧١م). عمل محرراً لمجلة المعهد واهتم بالبيلوغرافيا حيث نشر عدة إسهامات في مجلة المعهد.

(٢) محمد مويتش M.mujic (١٩٢٠-١٩٨٤م) ولد في موستار Mostar وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا. اشتغل في فيلولوجيا اللغة العربية وآدابها، حيث نشر عدة دراسات في مجلة المعهد وغيرها من المجلات اليوغسلافية.

(٣) حميد حاجي بغيتش H.Hadzibegic (١٨٩٨-١٩٨٨م) ولد في سراييفو ودرس فيها أولاً على النمط التقليدي ثم سافر إلى استانبول ليتابع دراسته هناك، حيث تخرج من كلية الحقوق في جامعة استانبول. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (١٩٥٠م). اشتغل في تحقيق ونشر المصادر العثمانية عن البوسنة، وترجم بعض الأعمال الأدبية عن التركية.

(٤) عمر موشيتش O.Music (١٩٠٣-١٩٧٢م) ولد في سرايفو ودرس فيها أولاً على النمط التقليدي، ثم درس في مدارسها الإسلامية منذ ١٩٢٦م. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (١٩٥١م)، وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق/ جامعة سراييفو. اهتم بمؤلفات البشانقة في اللغة العربية، ونشر عن ذلك عدة دراسات في مجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية».

شعبانوفيتش[1] وآدم خانجيتش[2] وتوفيق مفتيتش[3]، والمستشرقين الجدد الذين تخرجوا من قسم الاستشراق في بلغراد كبرانيسلاف جورجيف[4] ونديم فيليبوفيتش[5].

(١) حازم شعبانوفيتش H.Sabanovic (١٩١٦-١٩٧١م) ولد في قرية قرب فيسوكو. انتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا، ثم تابع دراسة التاريخ في جامعة بلغراد حيث حصل على الدكتوراة هناك.انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (١٩٥٠م). واشتهر بمؤلفاته المرجعية عن البوسنة والتراث الشرقي فيها. من أهم مؤلفاته «ولاية البوسنة» و«أدب مسلمي البوسنة والهرسك في اللغات الشرقية» وغيرها.

(٢) آدم خانجيتش Handzic.A (١٩١٦-١٩٩٨م)، ولد في بلدة تيشاني Tesanj وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا، ثم حصل على دكتوراة في التاريخ من كلية الآداب في جامعة سراييفو. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (١٩٥٢م). اشتغل في التاريخ الحضاري للبوسنة وخاصة في ما يتعلق بالعمران والسكان وانتشار الإسلام خلال الحكم العثماني، من أهم مؤلفاته «توزلا وضواحيها في القرن السادس عشر» و«سكان البوسنة في العهد العثماني» وغيرها.

(٣) توفيق مفتيتش T.Mufic، ولد في سراييفو في ١٩١٨م ثم تابع دراسة اللغتين (الألمانية والإيطالية) في جامعة زغرب، والفيلولوجيا الشرقية في جامعة سراييفو حيث حصل على الدكتوراة. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه (١٩٥١م) وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق/ جامعة سراييفو. من أهم أعمال «قاموس عربي- صربوكرواتي» و«الكتابة العربية» و«البلاغة العربية الكلاسيكية» وغيرها.

(٤) برانيسلاف جورجيف B.Djurdjev (١٩٠٨-١٩٩٣م) ولد في مدينة سرمسكي كارلوفتشي S.Karlovci في فويفودينا، انتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق وتابع دراساته العليا هناك. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه (١٩٥٠م) وكان مديراً له خلال ١٩٥٠-١٩٦٤م)، وأصبح لاحقاً (١٩٦٨-١٩٧١م) رئيساً لأكاديمية العلوم والفنون في البوسنة. اشتغل في تاريخ شعوب يوغسلافيا خلال الحكم العثماني. من أهم مؤلفاته «السلطة التركية في الجبل الأسود» و«دور الكنيسة في التاريخ لقديم للشعب الصربي» و«دفاتر الجبل الأسود في عهد إسكندر بك تسرنويفيتش» وغيرها.

(٥) نديم فيليبوفيتش N.Filipovic (١٩١٥-١٩٨٩م) ولد في بلدة غلاغوفيتش Glagovic وذهب إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق هناك. بدأ العمل أولاً في قسم الاستشراق في سراييفو فور تأسيسه (١٩٥٠م) ثم انتقل للعمل في معهد الاستشراق مديراً له خلال سنوات ١٩٦٤- ١٩٦٩م، اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني، وخاصة في ما يتعلق بانتشار الإسلام والحراك الفكري والاجتماعي. من أهم مؤلفاته «الأمير موسى والشيخ بدر الدين»، كما له ترجمات عن تركيا.

ونتيجة لهذا التنوع، والتواصل ما بين الأجيال، والروح الجديدة التي ميّزت يوغسلافيا الفدرالية فقد جاء مرسوم تأسيس المعهد الذي يحدد مهامه ليعبر عن بداية تبلور مفهوم آخر للاستشراق. ففي هذا المرسوم تحددت مهام المعهد الجديد كما يلي:

- جمع ونشر المخطوطات الشرقية والوثائق المتعلقة بتاريخ البوسنة.
- دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية وآدابها وتأثيرها في اللغة البوسنوية وثقافتها.
- دراسة الفن الشرقي في البوسنة.
- خلق كوادر علمية في مجال الاستشراق.
- نشر نتائج الأبحاث التي يقوم بها المعهد في المجلات والإصدارات الخاصة[1].

ومن الواضح هنا أن مثل هذا الاستشراق، في ما يتعلق بالبوسنة على الأقل، لم يُعدّ لدراسة الآخر/ المختلف بل لدراسة الذات/ التراث المحلي للتواصل معه من جديد. ولا شك أن هذا الإقبال على دراسة التراث البوسنوي في اللغات الشرقية، بمفهوم جديد، كان له أثره فيما بعد في بروز «الروح البوسنوية» التي عبّرت عن نفسها في انبعاث ثقافي/ قومي/ سياسي في يوغسلافيا الجديدة.

فقد كان المفهوم التقليدي للاستشراق يركّز على أن الإسلام دين وافد/ غريب انتشر بالقوة في البلقان/ أوروبا، ولذلك إن كانت له ثقافة هنا فهي ثقافة وافدة/ غريبة بلغات وافدة/ غريبة (العربية والتركية والفارسية) لم تعد مفهومة

(1) Behija Zlatar, Orijentalni institu u Sarajevo, 19502000-, Sarajevo, 2000, p.9.
وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب صدر أيضاً بالإنكليزية بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس المعهد، وهو يصلح بالتالي مرجعاً للمهتمين:
The Institut for Oriental Studies in Sarajevo, 19502000-, Sarajevo (Orijentlni institute, 2000).

للشعب في البوسنة[1]. وعلى العكس من ذلك انطلق الاستشراق الجديد في سراييفو من مفهوم مختلف لا يسلّم بفرض الإسلام وإنما يركز أبحاثه على الظروف المساعدة لانتشار الإسلام والنتائج الإيجابية لانتشار الإسلام في البوسنة وغيرها. وبالاستناد إلى ذلك لم تعد النظرة إلى الثقافة الإسلامية في البوسنة كثقافة «مفروضة» وإنما ثقافة محلية للسكان كغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام.

ولا شك أنه كان للدراسات/ الإصدارات الكثيرة حول هذه الموضوعات التي نشرت في سراييفو خلال الخمسينيات والستينيات أثرها في نمو «الروح البوسنوية» التي فرضت نفسها على القيادة السياسية في البلاد، حيث اعترفت أخيراً بالبشانقة كشعب على قدم المساواة مع الشعوب الأخرى في يوغسلافيا، بمناسبة الإحصاء العام للسكان في ١٩٧١م، ومع هذا الاعتراف، الذي وفّر حرية أوسع للعمل في هذا المجال في البوسنة، أخذ المفهوم الآخر للاستشراق يتضح أكثر ويعبر عن نفسه من خلال كبار المستشرقين.

وهكذا، في هذا الإطار، كان مدير معهد الاستشراق عبدو سوتشكا[2] أول من تعرّض لهذا في إطار افتتاحه لندوة «الثقافة العربية الإسلامية» التي عقدها

---

(١) «من هنا ليس من المفهوم لماذا ينزعج المسلمون لدينا حينما ينتقد أحدنا قبولهم الإسلام في الماضي... المسلمون لدينا لم يقبلوا العثمانيين كإخوة لهم فقط بل كانوا قاعدة لهم خلال عدة قرون. وهكذا فقد كان المسلمون يعتبرون المحتلين الأتراك إخوة لهم فيما كانوا يعتبرون إخوتهم المسيحيين الذين يدافعون عن الاستقلال أعداء لهم ويضيقون عليهم. وهكذا فقد كانوا ضد حريتهم الذاتية لأنهم مع قبولهم للإسلام تغربوا عن قوميتهم بقبولهم»:

Miroljub Jevtic, Od islamske deklaracije do verskog rata u BiH, Beograd (Filip Visnjic), p.21.

وللمزيد حول آراء هذا المستشرق انظر المقابلة التي أجريت معه في بلغراد ونشرت مقتطفات منها في العربية في كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا، ص٢٤١-٢٤٥.

(٢) عبدو سوتشسكا A.Suceska ولد في قرية قرب روغاتيتسا Rogatica في ١٩٢٧م، وانتقل إلى بلغراد حيث درس القانون في جامعة بلغراد سراييفو (١٩٥٠م) وانتقل إلى معهد الاستشراق مديراً له خلال سنوات ١٩٦٩-١٩٧٤م، اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني. من أهم مؤلفاته «الأعياد- دراسة في القوى المحلية في بلادنا خلال الحكم التركي»، تاريخ الدول والقوانين في يوغسلافيا وغيرها. نشرت له مؤخراً دراسة في العربية ضمن كتاب عن وقف النقود: دراسات عن وقف النقود- مفهوم آخر للربا في المجتمع العثماني، تقديم وتحرير/ محمد. الأرناؤوط، تونس (مؤسسة التميمي) ٢٠٠١م.

المعهد خلال ١٨-١٩ أيار ١٩٧٣م[١]. ففي الكلمة الافتتاحية له التي جاءت بعنوان «خصائص الاستشراق لدينا» اعترف سوتشسكا ان الاستشراق حتى مطلع القرن العشرين كان يتواجد في أوروبا الغربية، وركّز على أن الاستشراق في يوغسلافيا «أخذ يتطور بشكل جدي بعد الحرب العالمية الثانية مع أن قسم الاستشراق في جامعة بلغراد تأسس منذ ١٩٢٦م» ليصل إلى أنه بسبب «الظروف التاريخية فإن الاستشراق لدينا يحمل خصوصية تميّزه عن غيره من البلاد الأوروبية الأخرى التي لها تقاليد في هذا المجال»[٢]. وهكذا فإن الاستشراق في يوغسلافيا «كبلد بلقاني على اتصال وارتباط قوي مع شعوب الشرق وثقافاته خلال عدة قرون، وتحت الحكم العثماني عدة قرون أخرى، فقد التفت ليأخذ بالبحث العلمي في تلك الأمور المتعلقة بيوغسلافيا مباشرة»، ومن هنا فإن «المستشرقين في يوغسلافيا بالمقارنة مع غيرهم في أوروبا الشرقية، يدرسون الظواهر التي تحمل طابعاً شرقياً، والتي ترتبط ببلادنا بشكل مباشر»[٣]. ويلاحظ هنا أن الموقف الذي يحاول بلورة مفهوم آخر للاستشراق إنما جاء في ١٩٧٣م، أي بعد سنتين فقط من الانعطاف الكبير (١٩٧١م) الذي جعل من السبعينيات «السنوات الذهبية» للمسلمين في يوغسلافيا سواء في البوسنة أو في كوسوفا. وفي هذا الإطار تم تأسيس فرع ثالث للاستشراق في جامعة بريشتينا (١٩٧٣م)، حيث تشكلت نواة أخرى من المستشرقين الألبان (حسن كلشي وفتحي مهدي وغيرهم) في الوقت الذي لم تكن فيه ألبانيا (بسبب طبيعة النظام السياسي) معنية بافتتاح قسم مماثل في تيرانا. ولذلك فإن هذا المفهوم الآخر للاستشراق سيتبلور أكثر فأكثر مع مرور السنوات.

وهكذا فقط كانت سنة ١٩٧٥م، التي شهدت الاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيس معهد الاستشراق في سراييفو، مناسبة للتعبير أكثر عن هذا

---

(١) صدرت أبحاث هذه الندوة في عدد كامل من مجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية»، عدد ٢٤، سراييفو ١٩٧٤م.

(2) Simpozij o arapsko – islamskoj kulturi, POF XXIV, Sarajevo, 1976. Avdo Suceska, Specficnost nase orijentalistike, Ibid, p.9.

(3) Ibid., pp.9 - 10.

التمايز/ المفهوم الآخر للاستشراق. فقد ركّز مدير المعهد آنذاك سليمان غروزدانيتش[1] في كلمته الافتتاحية بهذه المناسبة على الظروف الجديدة التي انطلق منها الاستشراق في سراييفو (بروز البوسنة من جديد بعد التنازع الصربي- الكرواتي عليها طيلة يوغسلافيا الملكية) «حيث أصبحت كياناً مستقلاً تتيح لشعوبها تنمية ثقافتهم بحرية ومساواة» وانتهى إلى أنه «لم يعد المطلوب من الاستشراق (البوسنوي على الأقل) البحث في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني» وإنما وسّع من مفهومه لكي يشمل «حماية ونشر التراث الثقافي الذي أبدعه شعبنا خلال ذلك العهد»[2]. وفي نهاية كلمته ميّز غروزدانيتش بين دافعين للاستشراق في البوسنة/ يوغسلافيا: الدافع القومي والدافع العام. وهكذا سيعتبر غروزدانيتش أن جذور الاستشراق البوسنوي (القومي) إنما كانت عند الرواد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (أي قبل تأسيس يوغسلافيا وقبل تأسيس فرع الاستشراق في بلغراد) الذين «عملوا بحماس لكشف ونشر المخطوطات المتعلقة بالتاريخ السياسي والثقافي للبوسنة»[3]. ومن الواضح هنا أن غروزدانيتش، الذي كان أول من ركّز على الدافع «القومي» للاستشراق الجديد في يوغسلافيا إنما يجد مرجعيته في سراييفو، حيث يعيد الاعتبار إلى باشاغيتش وخانجيتش وغيرهما وليس في بلغراد وبايراكتاروفيتش.

وفي الحقيقة إن التركيز على ما هو «قومي» إنما جاء في وقت بدأت فيه الروح القومية تنتشر في يوغسلافيا، وتتحول إلى نقاش/ خلاف علني بين

---

(١) سليمان غروزدانيتش S.Grozdanic (١٩٣٣-١٩٩٦) ولد في بريدور Prijedor وانتقل إلى سراييفو للدراسة في قسم الاستشراق، حيث تابع دراساته العليا/ الدكتوراة هناك. بدأ العمل في قسم الاستشراق (١٩٥٨) وأصبح مديراً لمعهد الاستشراق خلال ١٩٧٤-١٩٨٢ وخلال ١٩٨٥-١٩٨٩، اشتغل أولاً في دراسة الأدب العربي القديم والحديث، حيث نشر دراسات وترجمات كثيرة، ثم اهتم بالتراث الشرقي للبوسنة. من أهم مؤلفاته «في آفاق الأدب العربي» و«التراث النثري للبوسنة والهرسك في اللغات الشرقية» وغيرها.

للمزيد عنه انظر مقالتنا: سليمان غروزدانيتش- حياة في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، جريدة «الحياة» عدد ٢٦/ ٧/ ٢٠٠١م.

(2) Sulejman Grozdanic, Orijentalni institute u Sarajevu/ Povodom, 25 Godicnjice, POF XXV, Sarajevo, 1976, p.4.

(3) Ibid.

الوحدات الفدرالية (صربيا والبوسنة وكرواتيا وسلوفينيا وكوسوفو ومكدونيا بشكل خاص). وفي هذا الإطار برز إلى السطح، ولأول مرة، نقاش/ خلاف علني بين ما يمكن تسميته مدرسة بلغراد ومدرسة سراييفو في الاستشراق تمركز حول «المركزية الأوروبية».

وكانت السبعينيات بالنسبة للاستشراق اليوغسلافي قد شهدت بداية تطورات جديدة نتيجة للمستجدات الداخلية والخارجية. فعلى المستوى الداخلي تميّزت السبعينيات بظهور جيل جديد من المستشرقين/ المستعربين (سليمان غروزدانيتش، راده بوجوفيتش، داركو تانا سكوفيتش، حارث سيلاجيتش، فتحي مهدي وغيرهم) الذين تميزوا عن الجيل السابق بالتركيز على اللغة العربية والإطلاع الأوسع على المصادر العربية والتواصل مع الاستشراق الجديد في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. كما شهدت السبعينيات، بعد التعديلات الدستورية التي تتوجت بدستور ١٩٧٤، مرونة سياسية أكثر في المركز (أخذ بالاعتبار وجود حزب شيوعي حاكم) سمحت للخصوصيات/ الطموحات القومية أن تعبّر عن نفسها أكثر من السابق. وهكذا فقد افتتح في ١٩٧٣ قسم ثالث للاستشراق في بريشتينا، عاصمة إقليم كوسوفا، مما أدخل في الاستشراق اليوغسلافي عنصراً جديداً (الألبان).

ومن ناحية أخرى فقد سمحت الظروف التي تعلّم وتكوّن فيها الجيل الجديد من المستشرقين أن يكونوا على تواصل أوسع مع العالم الذي يدرسونه (العالم العربي الإسلامي) ومع العالم الآخر الذي يدرسه (أوروبا الغربية والولايات المتحدة) مما وفر لهم فرصة التفاعل أكثر مع المصادر الأصلية ومع الأبحاث العربية/ الإسلامية (التي تعبر عن وجهة نظر مختلفة عن العلاقة بين الشرق والغرب) أو مع الدراسات الاستشراقية الحديثة (على تنوعها) في أوروبا الغربية والولايات المتحدة مما سيسهم في طرح قضايا جديدة منذ مطلع الثمانينيات يؤدي النقاش/ السجال فيها إلى تبلور الافتراق في الاستشراق اليوغسلافي، الذي سيمهد للافتراق في الاتحاد اليوغسلافي في مطلع التسعينيات. ومن أهم هذه القضايا التي أدت إلى الاختلاف/ الافتراق:الموقف من المركزية الأوروبية.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى كتابين كان لهما الأثر الواضح في إثارة هذا النقاش/ السجال حول المركزية الأوروبية في الاستشراق اليوغسلافي. وأول هذين الكتابين كان «الاستشراق» لإدوارد سعيد، الذي قريء بالإنكليزية ثم بالعربية واليوغسلافية بعد صدوره[1]، والذي كان له تأثيره المتباين على هذا الجيل من المستشرقين اليوغسلاف. وهكذا فقد كان من اللافت للنظر أن أوائل العروض العربية لهذا الكتاب نشر من قبل أحد أفراد هذا الجيل من المستشرقين اليوغسلاف (حارث سيلاجيتش)، الذي نشر عرضه عن الطبعة الإنكليزية الأولى في مجلة «المعرفة» السورية مع صدور الترجمة العربية[2].

أما الكتاب الآخر الذي كان له تأثيره المتباين أيضاً فكان «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الإيطالي فرانشسكو غابريلي بعد ترجمته وصدوره في يوغسلافيا[3]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكتاب الذي صدر في ١٩٦٧م، لم يلفت النظر في حينه ولكن ترجمته إلى اللغة الصربوكرواتية، والمقدمة الخاصة له التي كتبها داركو تاناسكوفيتش[4]، هي التي أثارت هذا التأثير المتباين.

---

(١) حارث سيلاجيتش، «مسؤولية الاستشراق»، مجلة «المعرفة» عدد ٢٨٨، دمشق ١٩٨١م، ص ٢١٨-٢٢٦.

(٢) بعد الطبعة الإنكليزية (Orientalism, New Yourk (Pantheon Books, 1978 والعربية الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت (مؤسسة الأبحاث العربية) ١٩٨١م صدر أول عرض للكتاب في العربية ثم تتالت العروض في يوغسلافيا السابقة إلى أن ظهرت ترجمتان للكتاب في عام واحد/ ١٩٩٩م، الأولى في سراييفو التي أنجزها رشيد حافظوفيتش والثانية في زغرب التي أنجزتها بليانا روميتش:

Edward W. Said, Orijentalizam- Zapadnjacke Predodzbe o Orijentu. Preveo Resid Hafizovic Sarajevo (Svjetlost, 1999).

Edward W. Said, Orijentalizam, Prevela Biljana romic, Zagreb (Konozor) 1999.

(3) Francesko. Gabrijeli, Istorja arapske knjizevnosti, prev, Milana Piletic- Srdjan Music, Sarajevo (Svijetlost, 1985).

(٤) داركو تاناسكوفيتش D. Tanskovic ولد في زغرب ١٩٤٨م وتخرج من قسم الاستشراق في بلغراد، حيث تابع دراساته العليا/ الدكتوراة. انضم إلى قسم الاستشراق في بلغراد (١٩٧١) وعُيّن سفيرا ليوغسلافيا في تركيا خلال ١٩٩٥- ١٩٩٩م. استغل أولاً في الفيلولوجيا العربية ثم أخذ يهتم بالإسلاميات من مؤلفاته «اللغة العربية في تونس المعاصرة» (رسالة الدكتوراة)، وكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ (دراسة وتحقيق) وغيرها.

ويمكن القول إن هذا الخلاف/السجال الجديد في الاستشراق اليوغسلافي بدأ في ١٩٨٤م، حين نشر أسعد دوراكوفيتش[١] عرضاً لكتاب الباحث فضل الرحمن «روح الإسلام»[٢]، الذي كان قد صدرت ترجمته في يوغسلافيا خلال ١٩٨٣م. ففي هذا العرض أشاد دوراكوفيتش بجهود المؤلف (فضل الرحمن) في تصحيح الأخطاء حول شخصية الرسول محمد ﷺ والإسلام بشكل عام التي أرساها الاستشراق الممثل للمركزية الأوروبية، بما في ذلك نقده لأعمال المستشرق المجري غولدتسيهر في هذا المجال[٣].

وقد ردّ على ذلك بروح سجالية قوية داركو تاناسكوفيتش في ١٩٨٦، الذي يمكن اعتبار مقالته الفاتحة الحقيقية للنقاش/ السجال في الاستشراق اليوغسلافي حول المركزية الأوروبية. فقد حملت مقالته عنواناً يصيب الهدف مباشرة «الوجه السلبي لتجاوز المركزية الأوروبية في الاستشراق اليوغسلافي»[٤]. وهكذا ينطلق تاناسكوفيتش من العنوان ذاته ليقول إن وجود وجه سلبي لأية ظاهرة يعني فيما يعنيه وجود إيجابي للظاهرة، وهو كذلك مع «المركزية الأوروبية» في الاستشراق اليوغسلافي. وبالاستناد إلى هذا يعبّر تانا سكوفيتش عن تمنّيه فيما لو كان هناك موقف إنساني وعلمي إيجابي لأجل تجاوز

---

(١) أسعد دوراكوفيتش E. durakovic ولد في قرية قرب بوغونيو في ١٩٤٨م وانتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق حيث تابع دراساته العليا/الدكتوراة هناك. بدأ العمل في قسم الاستشراق/ بريشتينا (١٩٧٦م) ثم انتقل إلى معهد الاستشراق/ سراييفو (١٩٩١م) وبعدها إلى قسم الاستشراق/ سراييفو (١٩٩٦م). اشتغل في الأدب العربي الحديث ثم اهتم بالتراث الشرقي للبوسنة. من مؤلفاته «نظرية الإبداع المهجري» و«البلاغة العربية في البوسنة- رسالة أحمد بن حسن البوسنوي في الاستعارة» وغيرها.

(٢) فضل الرحمن Fazlur Rahman باحث باكستاني، أستاذ الفكر الإسلامي في قسم لغات الشرق الأدنى في جامعة شيكاغو، حيث أصدر أهم كتبه: «الإسلام» و«النبوة في الإسلام» «الفلسفة والسلفية» و«الإسلام وضرورة التحديث». وقد ترجم الكتاب الأخير إبراهيم الويس وصدر في لندن (دار الساقي) ١٩٩٣م.

(3) E. Durakovic, "Poimanje islama U istoriji". Kulture Istoka, 12-, G. Milanovac, 1984, pp.102 - 103.

(4) Darko Tanaskovic, "Nalicje prevazilaazenja everopocentrizma u Jugoslovenskoj orientalistici. "Sveske, No. 1617-, Sarajevo 1986.

حقيقي للمركزية الأوروبية، ولكن ما يراه إنما هو موقف سلبي وضار يعبّر عن مركزية أخرى (شرقية) مناهضة لأوروبا. وبعد أن يركّز على ضرورة التواصل ما بين أوروبا والشرق، من منطلق أوروبي، ينتهي إلى أن «الدافع الأساسي للبحث سواء في العالم أو في يوغسلافيا يأخذ بالرأي الشائع في السنوات الأخيرة في أن الكيان الثقافي المحلي والحياة يغتنيان أكثر بالاندماج في العالم وليس في استبدال مركزية بمركزية أخرى»[1].

وهكذا بعد الحديث عن العلم ينتقل تاناسكوفيتش بالتدريج إلى السياسة حين يقول إن «الاتجاه الرئيسي للاستشراق في يوغسلافيا يسير بالانسجام مع الخيارات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تضمن الاستقرار الداخلي لمجتمعنا والسمعة الدولية ليوغسلافيا غير المنحازة والاشتراكية[2]. وبعبارة أخرى أن الحديث عن «اتجاه رئيسي» يعني فيما يعنيه وجود تيار «آخر» لا ينسجم معه وهو الهدف الذي يسعى إليه تانا سكوفيتش. وهكذا فهو يرى أنه لا يمكن للاستشراق اليوغسلافي الأصيل أن يتأسس على المركزية الأوروبية لأنه إذا كان كذلك (أي مبنياً على المركزية الأوروبية) فلن يكون نتاجاً للواقع اليوغسلافي بل جسماً غريباً خارج المكان والزمان. ففي ظروف يوغسلافيا، المتعددة القوميات والأديان، يمكن لكل مركزية (بما في ذلك المركزية الأوروبية) أن تؤدي إلى إثارة النعرات الشوفينية والدينية[3]» وعلى الرغم من تسليمه بوجود أساس لاعتراض البعض على المركزية الأوروبية إلا أنه يبدأ في تسييس النقاش بالقول إن «الأسباب القوية التي تدفع الاستشراق (في يوغسلافيا) للاعتراض بقوة على المركزية الأوروبية ليست دائماً ذات طبيعة علمية». ومع الانتقال من التعميم إلى التخصيص يبدأ تاناسكوفيتش في تسمية

---

(١) المرجع السابق، ص٣١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣١٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣١٤.

رموز الاتجاه الآخر (المقابل لـ«الاتجاه الرئيس»). وهكذا فهو يبدأ بانتقاد سليمان غروزدانيتش[1] «الذي بدأ منذ عقد بالترويج لـ«سياسة جديدة مختلفة في الاستشراق اليوغسلافي» وتوصل إلى أن الهدف من الاستشراق لم يعد دراسة الشرق الغرائبي بل أصبح الاستشراق يمثل مصلحة علمية-ثقافية في المجال القومي كما في المجال العالمي»[2].

وبعد ذكر هذا الاسم/ الرمز (مدير معهد الاستشراق في سراييفو لسنوات طويلة) ينتقل تاناسكوفيتش إلى الهجوم على «الاتجاه الآخر» الذي يتهمه بأن ينتقد المركزية الأوروبية ليؤسس مركزية أخرى (المركزية الشرقية) «تسيطر عليها العناصر الحديثة للأصولية الإسلامية والمركزية العربية، وتشكك في الإسهام الإيجابي لعدد كبير من المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين في فهم الإسلام وثقافته»، لينتهي إلى أن هذا «الاتجاه الآخر» إنما هو «اتجاه مركزي شرقي معادٍ لأوروبا الغربية في الاستشراق اليوغسلافي»[3].

وبعد هذا التوصيف/ التسييس لـ «الاتجاه الآخر» يركز تاناسكوفيتش هجومه على أسعد دوراكوفيتش بسبب عرضه المذكور لكتاب «روح الإسلام». وهكذا يأخذ تاناسكوفيتش على دوراكوفيتش أنه ركّز كثيراً على نقد المؤلف (فضل الرحمن) لآراء المستشرقين (الأوروبيين الغربيين) حول بعض «القضايا الصحيحة» (تفسير بعض الجوانب في شخصية الرسول، تعدد الزوجات، وضع المرأة في الإسلام إلخ). وهكذا يعتبر أن استعراض دوراكوفيتش للنقد الموجه

---

(١) سليمان غروزدانيتش S.Grozdanic ولد في مدينة برويدور / البوسنة في ١٩٣٣م وتخرج من قسم الاستشراق/ سراييفو، حيث تابع فيه دراساته العليا/ الدكتوراة. عمل أولاً في قسم الاستشراق/ سراييفو ثم مديراً لمعهد الاستشراق في سراييفو اهتم بالأدب العربي القديم والحديث ثم اشتغل لاحقاً بالتراث الشرقي للبوسنة. من أهم مؤلفاته «مختارات من الشعر العربي القديم»، «رسالة الغفران» للمعري (ترجمة ودراسة) و«الأدب النثري للبوسنة والهرسك في اللغات الشرقية» وغيرها.

(2) Tanaskovic, Nalicje, p. 315.

(٣) المرجع السابق، ص٣١٧.

ضد المستشرق غولدتسيهر إنما هو «ماركة مسجلة للأصولية الإسلامية التي ترفض قيام الاستشراق الغربي بسبر غور الوحي الإسلامي»[١].

وفي نهاية المقال يطرح تاناسكوفيتش سؤالاً استفزازياً: هل تسهم هذه الحداثة الإسلامية المعادية لأوروبا (الغرب) تحت شعار نقد المركزية الأوروبية في تجاوز المركزية الأوروبية بالفعل؟ أما الجواب فيراه في أن النقد الموجّه للمستشرق غابرييلي بمناسبة صدور كتابه في يوغسلافيا إنما يعبّر عن تبلور مركزية جديدة في الاستشراق اليوغسلافي، ألا وهي المركزية العربية[٢].

ويبدو أن مقال تاناسكوفيتش، بعنوانه ومضمونه، قد حرّك المشاعر والأفكار التي كانت تمور تحت مظلة الاستشراق اليوغسلافي مما جعلها تعبر عن نفسها بحرية أكبر في العناوين والمضامين حول هذا الموضوع الذي فرض نفسه (المركزية الأوروبية). ولكن كان من اللافت للنظر محاولة تاناسكوفيتش لأدلجة هذا الموضوع، وبالتحديد اتهام «الاتجاه الآخر» بأخطر تهم كانت تطرح في يوغسلافيا آنذاك (الأصولية الإسلامية) وتقود المتهمين بها (عزت بيغوفيتش وأصحابه) إلى المحكمة والسجن[٣].

وهكذا فقد كان الدور اللاحق لـ راده بوجوفيتش[٤] الذي نشر في مطلع ١٩٨٧م إسهامه في هذا النقاش بعنوان معبّر «هل يمكن للاستشراق أن يكون دون استشراق/ مركزية أوروبية؟»[٥]. وهكذا يبدو أن العنوان ذاته يطرح الإشكالية

(١) المرجع السابق، ص٣٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٢.

(٣) للمزيد حول عزت بيغوفيتش والتهمة التي ألصقت به والمحاكمة التي جرت له انظر مقدمة الترجمة العربية لكتابة الأهم: علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق الغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ميونيخ- الكويت (مؤسسة بافاريا- مجلة النور) ١٩٩٤م.

(٤) راده بوجوفيتش R.Bozovic ولد في ازمايفو عام ١٩٣٨م وتخرج من قسم الاستشراق/ جامعة بلغراد، حيث تابع دراساته العليا. بدأ العمل في القسم نفسه إلى أن أصبح رئيساً للقسم وعميداً للكلية. نشر عدة مختارات شعرية من الأدب العربي وترجم بعض مؤلفات بدر شاكر السياب ونجيب محفوظ. من كتبه «العرب في الشعر الشخصي باللغة الصربو كرواتية».

(5) Rade Bozovic, "Da li orijentalistika moze bez «orientalizma" ili everopocentrizma?», Kulture Istoka, No.11, G Milanovac, 1987.

التي أخذت تثير الخلاف بين المستشرقين في يوغسلافيا. فهو في العنوان يميز بين نوعين من الاستشراق، بين الاستشراق بالصيغة اليوغسلافية الشائعة Orijentalistika التي تعبر فيها اللاحقة ka عن المجال العلمي/ المعرفي للمشتغلين فيه، وبين الاستشراق بالصيغة الأوروبية الغربية Orientalism الذي يضع مرادفاً له «المركزية الأوروبية». وهكذا يصبح العنوان/ التساؤل المهم: هل يمكن للاستشراق اليوغسلافي (الأورينتاليستكا) أن يوجد بشكل مستقل عن الاستشراق الممثّل للمركزية الأوروبية (الأورينتاليزم)؟

في إجابته على هذا التساؤل/ العنوان ينطلق بوجوفيتش من نقد الاستشراق الغربي (الأورينتاليزم) من خلال أبرز أعلامه الذين لم يستطيعوا حسب رأيه أن يتحرروا من المركزية الأوروبية. وهكذا فهو ينقد المستشرق المعروف هـ.أ.ر. جب H.A.R.Gib الذي لا يتساءل في كتاب «إلى أين الإسلام؟»[1] عما أوصل الأوروبيين إلى مصر، وحتى بعد ثلاثين سنة حين نشر كتابه الآخر «الإسلام» اكتفى في سياق حديثه عن السنوسية أن يقول أن هذه الطريقة كانت في صراع مع «توسع القوى المسيحية»[2]. ومن هذا المثال/ الرمز يعمّم بوجوفيتش الحديث ليقول أنه في الاستشراق الغربي (الاورينتاليزم) يلاحظ «وجود محاولة عجيبة لفهم الإسلام كدين الحنق والخوف والانتقام» التي يندرج فيها جب أيضاً[3].

وفي هذا السياق الذي ينتقد فيه الاستشراق الغربي (الأورينتاليزم) يصل بوجوفيتش إلى المستشرق الإيطالي فرانشسكو غابريلي وكتابه «تاريخ الأدب العربي»، حيث ينتقد مؤلف مقدمة الطبعة اليوغسلافية دون أن يسميه (داركو تاناسكوفيتش) لدفاعه عن بعض مواقف غابريلي التي تتمثّل فيها المركزية الأوروبية. وهكذا يتوجه بالنقد المباشر لغابريلي في كتابه هذا (مع الإشارة إلى أن كبار المستشرقين في الغرب قد مدحوه) لإقحامه الرسول محمد (ص) في

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

(٣) المرجع السابق، ص٣٨.

سياق لا علاقة له بموضوع الكتاب (الأدب العربي)، حين يتحدث عن «خطف» الرسول لزينب بنت جحش لاتخاذها زوجة له[1].

وبعد هذا النقد القوي للاستشراق الغربي (الأورينتاليزم) ينتقل بوجوفيتش إلى القسم الثاني من مقالته، التي يقول فيها أنه ليس من المهم التساؤل عن وجود أو عدم وجود مركزية أوروبية لدينا، وإنما الأهم التساؤل عن قدرة الاستشراق اليوغسلافي على السير في الدروب الجديدة (غير المسلوكة) بروح علمية ودون تركة الماضي. وبعبارة أخرى يشدّد بوجوفيتش في هذا القسم على أنه «آن الأوان للتخلي عن منهج الأساطير الثقافية والبدء في اعتبار البحث في مجال الشرق إنما هو في سياق التطور الحضاري الشامل لكوكبنا»، و«بهذا الشكل نتحرر من الشبهة التي يثيرها الاستشراق العالمي لدى بعض المثقفين في الشرق»[2].

وفي القسم الثالث والأخير يمسّ بوجوفيتش العصب الحساس، الذي حاول تاناسكوفيتش أن يؤدلجه أو يسيّسه باتهام الآخرين «الأصولية الإسلامية». فبوجوفيتش يقدّر أن بعض المستشرقين في البوسنة يهتمون بتراثهم المحلي/ الشرقي، ولذلك يخلص إلى القول في جملة مهمة إلى أن «التحرر من المنهج القديم (الاستشراق الغربي) يعني فيما يعنيه عدم الشعور بالخجل للتراث الإسلامي لدينا»[3].

أما الإسهام اللاحق في هذا النقاش فقد جاء بعد عدة شهور من قبل حارث سيلاجيتش[4] الذي نشر مقالته بعنوان «المركزية الأوروبية والاستشراق»[5].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠.

(٤) حارث سيلاجيتش S.Siladzic ولد في سراييفو عام ١٩٤٥م. تخرج من كلية اللغة العربية والشريعة في بنغازي، وتابع دراسة التاريخ في جامعة بريشتينا. عمل أولاً (١٩٧٩م) في قسم الاستشراق في جامعة بريشتينا، ثم انتقل إلى قسم الاستشراق في سراييفو، حيث اشتغل في السياسة أيضاً (وزير خارجية ورئيس حكومة ما بعد الاستقلال ثم رئيس الجمهورية). من كتبه «الحركة القومية الألبانية في صحافة البوسنة والهرسك» و«ألبانيا والولايات المتحدة الأمريكية من خلال الوثائق».

(5) Haris Silajdzic, «Evropocentrizam i orijentalistika», Odjek, No.170 Sarajevo 1987.

ويلاحظ هنا في العنوان أيضاً. كما لدى بوجوفيتش، أن سيلاجيتش يضع أيضاً المركزية الأوروبية في مقابل «الأورينتاليستيكا» وليس «الأورينتاليزم». ويعترف سيلاجيتش الذي كان أول من عرَّف بكتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، أن الدافع المباشر لكتابة هذه المقالة أو المشاركة إنما كانت مقالة فرانشسكو غابريلي «دفاعاً عن الاستشراق» التي ترجمها حينئذ داركو تاناسكوفيتش والتي أراد منها صاحبها أن يدافع عن ذلك الاستشراق الذي يتهم بأنه كان «وسيلة أو على الأقل متعاوناً ومتحالفاً مع التوسع الاستعماري الأوروبي والاستغلال الاستعماري»[1]. ويشير سيلاجيتش في هذا الصدد إلى أن مقالة غابريلي إنما جاءت رداً على النقد الجديد للاستشراق/ الأورينتاليزم، وبالتحديد كتاب أنور عبدالملك الجديد «الاستشراق في أزمة»[2]. ويلاحظ سيلاجيتش في نقده لهذا المقال الذي ظهر في مطلع السبعينيات، حين كان تحرك الغرب باتجاه الشرق يتم في إطار الصراع الشامل مع الإيديولوجية الماركسية، أن غابريلي يعتبر كفاح شعوب الشرق للتحرر من كل أشكال الاستعمار إنما يعبّر عن «توجه مناهض للغرب ويمثّل «ثأر الشرق» إلخ» ولكنه يحكم على الشرق بالتبعية للغرب لأنه حتى الماركسية التي يحارب الشرق بها الغرب إنما هي «نتاج غربي»[3].

وبالمقارنة مع غيره يوجه سيلاجيتش نقداً مباشراً بالاسم لداركو تاناسكوفيتش المترجم لهذا المقال، الذي يحاول فيه بدوره أن يدافع عن مواقف غابرييلي بالقول إنها لا تزال راهنة. فسيلاجيتش يرفض القول إنها لا تزال راهنة بهذا التعميم، كما سيوضح ذلك لاحقاً، وإنما ما يجعلها راهنة ذلك الوضع في الاستشراق اليوغسلافي الذي يتسم بخلق مركزية مقابل مركزية أخرى. ولتوضيح رأيه يقول سيلاجيتش أن الوضع في الاستشراق الأوروبي/ الأمريكي أخذ يتغير مع كتاب أدوارد سعيد، وأن هذا الموقف الجديد لم يعد يرتبط بـ«الشرقيين» فقط بل أخذ يميّز الجيل الجديد من المستشرقين كبروان وهدستون وبولك وغيرهم.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٠.

وهكذا فهو يستشهد بما يقوله ل. بروان L.Brown من جامعة كولومبيا في كتابه «السياسة الدولية والشرق الأوسط» بأن جيله قد اختار ذلك الطريق العلمي الذي يضمن تصويب المواقف الناشئة عن «الأفق الضيق للمركزية الأوروبية»[1]. ويضيف سيلاجيتش أن قراءة كتاب و.بولك W.Polk من جامعة هارفارد «العالم العربي» تكفي للاقتناع بأن كتاب أدوارد سعيد ليس نتاجاً لحالة سجالية وإنما هو استمرار لتوجه جديد في الدراسات المتعلقة بالشرق في الولايات المتحدة. وفي هذا السياق يرى سيلاجيتش أيضاً أن الفصل الخامس من كتاب م.هدستون M.Hudston «السياسة العربية» يقارب مواقف أدوارد سعيد، ولذلك يخلص إلى القول إن مثل هذا المواقف المضادة للاستشراق التقليدي/ الممثلة للمركزية الأوروبية لا تنحصر في الولايات المتحدة بل تبرز أيضاً في أوروبا ذاتها. وهكذا يستشهد بكتاب جاك فاردنبرغ Vardenburg «الإسلام في مرآة الغرب»، الذي يحلل فيه أعمال خمسة من كبار المستشرقين، وينتهي إلى أن أربعة منهم يتعاملون بعدائية مع الموضوعات التي يدرسونها[2].

وبعد هذا الاستعراض يعود سيلاجيتش لنقد غابريلي من جديد، الذي يحاول في مقالته المذكورة أن يشير إلى وجود مستشرقين أدانوا العدوان الإيطالي على ليبيا مثل ليون كايتاني L.Caetani، ولكن سيلاجيتش يركز على أن هذا يمثل الاستثناء بينما تجاهل غابريلي كل المستشرقين الإيطاليين الآخرين الذين كان لهم دورهم في تسهيل أو تأييد العدوان الإيطالي على ليبيا[3].

وبالاستناد إلى كل ذلك يرى سيلاجيتش أن المركزية الأوروبية وموديلاتها، بما في ذلك الاستشراق الممثل للمركزية الأوروبية، تتراجع أمام ديناميكية التواصل التكنولوجي والمعلوماتي في العالم. ومما يساهم في هذا، حسب رأيه، بروز عدد متزايد من الباحثين في الشرق الذين يجمعون بين ميزة الإطلاع على المصادر الشرقية والتكوين العلمي الحديث، مما

---

(١) المرجع السابق، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١.

يساعد على أن «يوضح الشرق نفسه بنفسه». ولذلك يرى سيلاجيتش أن الأهم (بالنسبة إلى الاستشراق في يوغسلافيا) هو الاتجاه العلمي للجيل الجديد الذي يضمن خلق وعي بمعايير سليمة حتى في العلم الذي يتعلق بالشرق/ الاستشراق[١].

وبالمقارنة مع هاتين المقالتين أو المشاركتين اللتين تعبران عن روح علمية/ تفاؤلية بالمستقبل، جاءت المقالة أو المشاركة الأخيرة لياسنا شاميتش[٢] في ١٩٨٨م «المركزية الأوروبية ودراسة الاستشراق»[٣] لتسهم أكثر في أدلجة هذا النقاش. وفي الحقيقة تتميز هذه المقالة أو المشاركة بدفاعها المباشر عن داركو تاناسكوفيتش، الذي أطلق هذا النقاش، حيث إنها تستهجن توجيه النقد إلى مثل هذا المستشرق في يوغسلافيا، كما كان تاناسكوفيتش يستهجن بدوره توجيه النقد إلى غابريلي وغولدتسيهر وغيرهم[٤].

وفي الحقيقة إن المهم في هذه المقالة أو المشاركة في النقاش تمثل إعادة تشخيص الهجوم الموجه للمركزية الأوروبية باعتباره هجوماً على أوروبا والأوربة وتوجهاً نحو الشرق والشرقنة. وهكذا تسلِّم شاميتش بأن يوغسلافيا كما يشاع عنها تربط ما بين الشرق والغرب، ولكن يوغسلافيا عليها أن تنظر إلى أوروبا وليس إلى الشرق، لأن أوروبا وليس الشرق هي التي وضعت أسس العلوم الحديثة والمناهج العلمية[٥]. وبالاستناد إلى هذا تعتبر شاميتش أن مهمة المستشرقين اليوغسلاف ليست «دراسة الشرق من داخله» وإنما الاقتراب منه من الخارج ودراسته بشكل تحليلي بالمقارنة مع أوروبا[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص١١.

(٢) ياسنا شاميتش J. Samic ولدت في سراييفو وتخرجت من قسم الاستشراق/ جامعة سراييفو، حيث تابعة دراستها هناك. عملت في القسم حتى بداية الحرب (١٩٩٢م) حيث انتقلت بعدها إلى باريس، حيث لا تزال هناك.

(3) Jasna Samic, «Evropocentrizam I orijentalistika», Odjek, No.170 Sarajevo, 1987.

(٤) المرجع السابق، ص٢١٥.

(٥) المرجع السابق، ص٢١٤.

(٦) المرجع السابق، ص٢١٥.

ومن هنا تستهجن شاميتش الرأي «الآخر» وتتساءل كيف يمكن للمستشرقين اليوغسلاف الذين درسوا بأسلوب التفكير الأوروبي أن يعايشوا الشرق والإسلام كجزء منهم؟[1]. ومع هذا «الاستهجان» توجّه شاميتش سهام النقد إلى أسعد دوراكوفيتش دون أن تسميه باعتباره «يمثّل جزءاً من ظاهرة أخذت ترسل جذورها في الاستشراق اليوغسلافي»[2]. وبالاستناد إلى هذا تتضح خطورة المقالة أو المشاركة في النهاية حين تؤدلج شاميتش هذه «الظاهرة» وتؤلب الآخرين (السياسيين) ضد ممثليها باعتبارهم «خطرين على كل المجتمعات وليس على مجتمعنا فقط» لأن «إسلامهم عبارة عن إيديولوجية خطرة جدا»[3]. ولا تكتفي شامتش بنقد دوراكوفيتش باعتباره من ممثلي هذه «الظاهرة» بل توجه نقدها أيضاً إلى راده بوجوفيتش وتعتبر أن مقالته المذكورة «هل يمكن للاستشراق أن يكون دون استشراق/ مركزية أوروبية؟» بالإضافة إلى مقالة دوراكوفيتش إنما «تريد العودة بنا إلى القرون الوسطى، بل إلى ما دون ذلك»[4].

وفي الحقيقة إن مقالة أو مشاركة شاميتش الحادة عبّرت بصراحة أكثر عن تسييس هذا النقاش، وبالتحديد اتهام الطرف الآخر بأنه أصبح يمثّل «خطراً على المجتمعات»، وجاءت في وقت (١٩٨٨م) أخذ فيه الاستقطاب القومي/ السياسي يتزايد في يوغسلافيا ويستقوي بالاستشراق أيضاً، مما مهّد بدوره للصراع بقوة السلاح[5].

---

(١) المرجع السابق، ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢١٦.

(٤) المرجع السابق، ص٢١٦.

(٥) للمزيد حول الاستشراق اليوغسلافي في التحضير والتبرير للحرب المأساوية في البوسنة لدينا كتاب صدر مؤخراً في الإنكليزية والبوسنوية للمستشرق الأمريكي والباحث في شؤون البلقان نورمان تسيغر:

Norman Cigar, The Role of Serbian Orientalists in Justification of Genoside against Muslims of the Balkans, Sarajevo (IRCA- HIL- BCC) 2000.

ومع تعمّق الخلافات بين الجمهوريات اليوغسلافية، التي كانت تنذر بأسوأ مصير، جاءت الذكرى الأربعون لتأسيس معهد الاستشراق في سراييفو التي تزامنت مع عقد ندوة «انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في البوسنة»[1]. ولا شك أن تنظيم مثل هذه الندوة، وطبيعة الأوراق التي قدمت فيها، إنما كانت تعكس «الروح البوسنوية» في الاستشراق اليوغسلافي، وبالتحديد المفهوم الآخر للاستشراق الذي قدّم صورة مختلفة تماماً عن ظروف انتشار الإسلام ونتائج ذلك في البوسنة. وقد كان من اللافت للنظر إن افتتاح هذه الندوة تمّ بحضور علي عزت بيغوفيتش، الذي كان قد انتخب رئيساً لجمهورية البوسنة آنذاك بعد خروجه من السجن. وفي كلمته الافتتاحية ركّز مدير المعهد آنذاك أحمد عليتش[2] على ما تغيّر حتى ذلك الحين في مفهوم الاستشراق حين قال «لدينا اعتقاد راسخ بأن الاستشراق أحد أهم العلوم القومية، وهو متساو في أهميته لكل الشعوب التي كانت تحت الحكم العثماني»[3]. وبعبارة أخرى فقد قَوْمَنَ أو بَشْنق عليتش الاستشراق باعتباره national discpline (في البوسنوية nacionalna displina)، أي إنه لم يعد أداة منهجية مأخوذة من المركز (أوروبا

---

(١) نشرت أعمال هذه الندوة في عدد خاص من مجلة المعهد:

Naucni skup «Sirenje Islama i islamska kultura u bosanskom ejaletu», POF, 4,1, Sarajevo, 1991.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل نسخ هذا العدد كانت قد وصلت المعهد حين تعرض للقصف في آذار ١٩٩٢م فاحترقت مع غيرها من موجودات المعهد. وقد صدرت طبعة ثانية من هذا العدد في ١٩٩٥م بفضل مساعدات مالية من هيئة «الإغاثة الإسلامية- بريطانيا»، كما هو وارد في الغلاف الداخلي لهذا العدد.

(٢) أحمد عليتشيش A.Alicic ولد في قرية نفسينيه في ١٩٣٤م وانتقل إلى سراييفو للدراسة في قسم الاستشراق. بدأ العمل في تدريس العربية في مدرسة الغازي خسرويك ثم انتقل إلى معهد الاستشراق (١٩٦١م) وأصبح مديراً له خلال ١٩٨٤- ١٩٨٥م وخلال ١٩٨٩-١٩٩٢م. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني وفي المصادر العثمانية. من أهم مؤلفاته «تنظيم إيالة البوسنة خلال ١٧٨٩- ١٨٧٨م» و«الحركة في سبيل الحكم الذاتي للبوسنة خلال ١٨٣١- ١٨٣١م» وغيرها.

(3) Ahmed S. Alicic, Cetrdeset godina postojonja i rada Orientalnog instituta, Ibid, pp.1112-.

الغربية) لدراسة الآخر (الشرق)، بل هو علم كباقي العلوم المحلية (القومية) التي تعبّر عن الذات وتدرس التراث الذاتي. وفي هذا الإطار فقد أشار المدير السابق للمعهد عبدو سوتشسكا إلى الروح التي سادت في هذه الندوة (الأولى من نوعها في البوسنة/ يوغسلافيا) حينما قال إنه «في العلم رفضت بشكل عام الأطروحة التي تقول بأن الإسلام قد فُرض على سكان البوسنة، مع أن بعض المؤرخين لا يستبعدون إمكانية وجود ضغوط نفسية واقتصادية في سياسة نشر الإسلام»[1].

وللأسف فقد أعقب الندوة المصير الذي كان يخشى من حدوثه ألا وهو انهيار يوغسلافيا. وإذا كانت البداية تمثّلت في حرب سريعة في سلوفينيا وكرواتيا فإن البوسنة بالذات شهدت مأساة فاقت كل التوقعات أسهم فيها للأسف بعض المستشرقين من مدرسة بلغراد، سواء في التحضير لها أو في تبريرها فيما بعد[2]. وقد تمثّلت هذه المأساة فيما تمثّلت في القصف الصربي المتعمّد لمعهد الاستشراق في سراييفو في ١٩٩٢، حيث تم تدميره بما فيه من وثائق ومخطوطات لا تقدر بثمن. وفي الواقع ليس من الصعب تفسير خطوة كهذه، إذ إن معهد الاستشراق كان يعتبر من المحركين لـ«الروح البوسنوية» التي كانت وراء الانبعاث الثقافي/ القومي للبشانقة خلال العقود السابقة. وفي المقابل فقد اعتبر المستشرقون في سراييفو أن الحرب ضد البوسنة، التي كانت تهدف لتدمير الكيان الثقافي/القومي للبشانقة، إنما كانت تشملهم ولذلك فقد عملوا في ظروف صعبة للغاية لإثبات ذاتهم القومية بواسطة عملهم[3].

---

(1) Avdo Suceska, Uvodna rijec, Ibid, p.24

(٢) للمزيد حول ذلك انظر مقالتنا: حوار/ صراع الحضارات: دور الاستشراق في النموذج اليوغسلافي، مجلة «الأدب»، عدد ٣-٤، بيروت ٢٠٠٠م.

(٣) للمزيد حول ذلك انظر مقالتنا: كيف أصبحت ترجمة «ألف ليلة وليلة» تعبيراً عن الهوية والبوسنوية الجديدة، جريدة «المستقبل» ٢٥/ ١/ ٢٠٠١م.

وبعد انتهاء الحرب في البوسنة في ١٩٩٥م، واستقرار استقلال هذه الجمهورية عن يوغسلافيا، كان من الطبيعي أن يتحرر الاستشراق البوسنوي من الإطار الثنائي الذي كان يحكمه في الإطار اليوغسلافي (ثنائي بلغراد/ سراييفو) وأن يلتفت أكثر إلى التراث الشرقي للبوسنة (نشر الأعمال الكاملة لصفوت بك باشأغيتش، الأعمال الكاملة لمحمد خانجيتش إلخ). وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أحدث دراسة صدرت في سراييفو للمستشرق أسعد دوراكوفيتش، التي تلخص كل هذه التطورات التي شهدها الاستشراق اليوغسلافي بعد الحرب العالمية الثانية.

ففي هذه الدراسة ينطلق دوراكوفيتش من أن الاستشراق في أزمة منذ الستينيات، منذ كتاب أنور عبد الملك «الاستشراق في أزمة» (١٩٦٣م)، وكتاب فرانشيسكو غابرييلي «دفاعا عن الاستشراق» (١٩٦٥م)، وكتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» (١٩٧٨م)، مما مهد بدوره للنقاش/ الخلاف داخل الاستشراق اليوغسلافي حول القضايا ذاتها التي كانت تُطرح عند الآخرين كالموقف من النزعة الأوروبية المركزية، وهو لا يخفي رأيه في أن الاستشراق الأوروبي إنما كان يهدف بالفعل إلى «تشريق» Orientalization الشرق للسيطرة عليه، مما أخذ يدفع الكثير من العاملين في هذا المجال إلى التحرج من استخدام هذا المصطلح (الاستشراق) والاستعاضة عنه ببدائل أخرى كـ «اللغات الشرقية وآدابها» «والدراسات الشرق أوسطية» إلخ. وفي ما يتعلق بيوغسلافيا، وبالذات بالبوسنة، ألا وهو خصوصية البوسنة والاستشراق البوسنوي. ففي هذا الكيان التاريخي/ الجغرافي يلتقي الشرق والاستشراق على نحو فريد: «في هذا المجال/ الكيان أبدعت خلال مئات السنين المعارف والآداب في اللغات الشرقية المهمة من الناحية الكمية والناحية النوعية، التي تمثّل ربما أهم جانب في التاريخ الثقافي لهذا الكيان الذي لم يعد في الشرق والتي هي في الوقت نفسه موضوع الاستشراق»، مما «لا نجد له مثيلاً في أوروبا». ومن هنا يطرح دوراكوفيتش السؤال الذي كان

يتم التلميح إليه في السابق: هل يمكن أوروبياً أن يسمي البشانقة الأوروبيون أنفسهم مستشرقين حين يدرسون تراثهم الثقافي في اللغات الشرقية؟ وبالاستناد إلى هذا السؤال هل يمكن القول إن صفوت باشأغيتش هو «مستشرق» كما هو فرانسيسكو غابريلي في إيطاليا وألكسندر بوبوفيتش في السوربون؟ ومن هنا يرى دوراكوفيتش أنه في الوقت الذي أصبح فيه الكثير من المستشرقين في العالم يفضلون عدم استخدام هذا المصطلح (الاستشراق) فإنه من المبرر أكثر للعاملين في هذا المجال في البوسنة أن يبادروا إلى تسمية جديدة لما يقومون به من عمل أو بحث علمي (الاستشراق)[1].

(1) Esad Durakovic, Orijentalistika- Problemi metodologije i nominrnanja, Znakovi vreme, br, 910- Sarajevo,2000 pp. 293 - 294.

دور الاستشراق البوسنوي
في التعريف بالأدب العربي
والاعتناء بالمخطوطات الشرقية في البوسنة

في الحديث هنا عن «دور الاستشراق البوسنوي» يبدو من الضروري أولاً التوقف عند مفهوم «الاستشراق البوسنوي» وخصوصيته بالنسبة إلى الاستشراق الأوروبي بشكل عام أو بالنسبة إلى الاستشراق اليوغسلافي الذي انبثق عنه.

صحيح أن البوسنة احتفت في ٢٠١٠م بالذكرى الستين لتأسيس قسم الاستشراق في جامعة سراييفو ومعهد الاستشراق في سراييفو إلا أن السؤال لا يزال مفتوحاً والجواب مختلفاً حول بداية الاستشراق في البوسنة وحول طبيعة الاستشراق لدى شعب مسلم (البشانقة)، كان يعتبر جزءاً من الشرق لعدة قرون وكان له إسهامه المميّز في الثقافة الإسلامية.

صحيح أن الفتح العثماني للبوسنة جرى على يد السلطان محمد الفاتح نفسه في ١٤٦٣م، وتواصل مع فتح الهرسك المجاورة لها في ١٤٨٣م إلا أن الوجود العثماني العسكري وما لحق به من امتداد ديني/ ثقافي في البوسنة يعود إلى ما قبل ذلك. فقد توغّل العثمانيون لأول مرة في جنوب البوسنة خلال ١٣٣٦-١٣٣٨م، إلا أنهم ردّوا، ثم عادوا بقوة في ١٤٤٨م حيث أصبح لهم وجود دائم في جيب هودي جد، حيث بنى الوالي عيس بك السراي الخاص به حوالى ١٤٥٠م، الذي ستنسب له البلدة الجديدة (سراي بوسنة أو سراييفو)، ثم بنى هناك الجامع السلطاني حوالى ١٤٥٧م

وأنشأ حوله وقفه الخاص الذي كان نواة البلدة الجديدة مما استحق معه لقب «مؤسس سراييفو»[1].

والمهم هنا أنه مع استقرار البوسنة والهرسك تحت الحكم العثماني برزت وتطورت بسرعة المدن الجديدة التي تحولت إلى مراكز للثقافة الجديدة الشرقية في البوسنة (سراييفو، موستار، ترافنيك إلخ). وفي هذه المراكز التي غدت معروفة بمدارسها المختلفة تخرّجت أجيال من طلاب العلم الذين تابع بعضهم الدراسة في أمهات المراكز في الدولة العثمانية (استانبول، حلب، دمشق، والقاهرة إلخ)، حيث عاد بعضهم من هناك بحصيلة معرفية غنية ومخطوطات إلى البوسنة ليشتغل في التأليف والتدريس والإفتاء إلخ. وفي هذه المراكز تكوّنت المكتبات الخاصة والمكتبات العامة وشبه العامة (مكتبات المدارس والمساجد) التي حفلت بالمخطوطات الشرقية، في اللغات التي غدت مشتركة مع المسلمين في العالم (العربية والتركية والفارسية). وفي هذه المراكز برزت خلال قرون الحكم العثماني أجيال من العلماء الذين حرصوا على اقتناء المؤلفات/ المخطوطات في اللغات الشرقية المذكورة وأسهموا بدورهم في إغناء رصيد البوسنة من هذه المخطوطات بما ألّفوه في مختلف المجالات (علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ إلخ) باللغات الشرقية بالإضافة إلى لغتهم الأم التي أصبحت تكتب بالحروف العربية[2].

وفي مثل هذا الوسط الثقافي يبدو من الواضح أن علماء وأدباء البوسنة على الأقل كانوا على معرفة بالآداب الشرقية (العربية والتركية والفارسية) حيث إن مشاركتهم الأدبية باللغات الشرقية كانت تفترض معرفتهم بها[3].

---

(١) للمزيد عن ذلك انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد وسراييفو، عمان (دار البشير) ١٩٩٣م، ص١٦١-١٦٣. وللمزيد حول نشوء سراييفو والوقفية المؤسّسة لها انظر دراستنا: دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة- سراييفو نموذجاً، مجلة «أوقاف» عدد ٨، الكويت ٢٠٠٥م، ص٤٧-٥٧.

(٢) للمزيد حول كتابة اللغة البوسنوية بالحروف العربية انظر مقالتنا: الكتابة بالحروف العربية لدى غير العرب، مجلة «العربي» عدد ٢٩٩، الكويت ١٩٨٣م، ص٤٨-٥٣.

(٣) للمزيد عن ذلك انظر كتابنا: التأليف باللغة العربية في البوسنة، إربد- عمان (موسسة حمادة- دار الشروق) ٢٠٠٠م.

ويمكن القول إن التمايز بين «الشرق» و"الاستشراق» في البوسنة بدأ في ١٨٧٨م، حين قامت إمبراطورية النمسا والمجر باحتلال البوسنة والهرسك بتفويض من مؤتمر برلين لإدارة هذه الولاية العثمانية التي بقيت اسمياً تابعة للدولة العثمانية[١]. إلا أن الإدارة النمساوية المجرية سعت منذ البداية إلى تطبيق إجراءات إدارية واقتصادية وتعليمية مختلفة لتكريس الفصل بين هذه الولاية وبين الدولة العثمانية تمهيداً لإلحاقها نهائياً بالإمبراطورية النمساوية المجرية في ١٩٠٨م[٢].

وإلى تلك السنوات الانتقالية، التي كانت فيه البوسنة تنتقل بالمفهوم السياسي والإداري والاقتصادي والثقافي من «الشرق» إلى «الغرب» لدينا شخصيتان مركزيتان تمثلان هنا نقطة الافتراق بين العالم البوسنوي «الشرقي» والعالم البوسنوي «المستشرق».

أما الأول فقد كان علي فهمي جابيتش (١٨٥٣-١٩١٨م) الذي ولد في موستار ودرس فيها إذ كانت مركزاً معتبراً للثقافة الشرقية الإسلامية آنذاك، وبرز في علوم الدين واللغة والأدب حتى أصبح مدرِّساً ومفتياً لموستار ثم أستاذاً للغة العربية وآدابها في جامعة استانبول خلال ١٩٠٢-١٩٠٨م. وقد اشتهر جابيتش بكتابين نشرهما في استانبول باللغة العربية ويدلان على معرفته الجيدة باللغة العربية وآدابها. أما الكتاب الأول فقد كان مختارات شعرية من صدر الإسلام سمّاها «حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة» اشتملت على ستين شاعرا،

---

(١) للمزيد حول هذا الاحتلال وردود الفعل في الداخل والخارج انظر: الأرناؤوط، الإسلام في يوغسلافيا، ص١٨٢-١٨٥، نويل ماكوم، البوسنة، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٧م، ص١٧٤-١٧٧.

(٢) حول هذه الإجراءات لدينا كتاب مرجعي صدر مؤخراً في الإنكليزية للباحث البوسنوي المعروف فكرت كارتشيتش:

Fikret Karcic, The Bosniaks and The Challenges Of Modernity-Late Ottoman And Hapsburg Times, Sarajevo (El-Kalem) 1999.

وللمزيد عنه انظر عرضنا له في العربية: البشناق وتحديات الحداثة، جريدة «الغد»، عمّان ١٩/١٠/٢٠٠٤م.

بينما كان الكتاب الثاني «طلبة الطالب في شرح لامية أبي طالب» التي شرح فيها القصيدة اللامية المنسوبة إلى أبي طالب والد الإمام عليّ[1].

وأما الثاني فقد كان صفوت بك باشأغيتش (١٨٧٠-١٩٣٤م)، الذي ينحدر من أسرة معروفة ذات ثقافة شرقية. فقد كان أبوه إبراهيم من علماء بلاده[2] وأتاح له اطلاعه الواسع على التراث الشرقي للبوسنة أن يبادر إلى التعريف بالشخصيات البوسنوية التي تميّزت بإنجازاتها في اللغات الشرقية مثل الكاتب الموسوعي حسن كافي الاقحصاري[3] والشاعر درويش باشا الموستاري[4] والشاعر محمد نرجسي[5] وغيرهم. وقد تابع الابن صفوت هذا العمل الرائد ولكن في إطار آخر، إذ كان أول بوسنوي مسلم يلتحق بجامعة فيينا ويدرس اللغات الشرقية والتاريخ حسب المناهج العلمية الحديثة على يد أعلام الاستشراق النمساوي ليناقش في ١٩١٠م أطروحته للدكتوراة «البوسنويون والهرسكيون في الأدب الإسلامي»[6]. وقد رشّح باشأغيتش في ١٩١٠م، ليشغل منصب أستاذ اللغة العربية في جامعة زغرب ليؤسس هناك

(١) للمزيد عن جابيتش انظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا، ص١٨٦-١٨٧.
وللمزيد عن مؤلفاته المذكورة انظر: عامر ليوبوفيتش- سليمان غروزدانيتش، الأدب النثري للبوسنة والهرسك باللغات الشرقية، ترجمة جمال الدين سيد محمد، القاهرة (المركز القومي للترجمة) ٢٠٠٨م، ص ٣٥٩-٣٦٣.

(٢) للمزيد عنه انظر: محمد الخانجي، الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة، تقديم وتعليق محمد الأرناؤوط، الكويت ٢٠١٠م، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) للمزيد عنه انظر مقالتنا في الموسوعة العربية الكبرى، ج ٣، دمشق، ٢٠٠١، ص٦٢.

(٤) للمزيد عن درويش باشا انظر مقالتنا: وقفية درويش باشا الموستاري، جريدة "العرب"، الدوحة ٢٣/٤/٢٠٠٨م.

(٥) للمزيد عن الشاعر محمد نرجسي انظر في العربية: ليوبوفيتش- غروزدانيتش، الأدب النثري، ص٣٣٩-٣٤٧.

(٦) كتبت الأطروحة في اللغة الألمانية ثم قام باشأغيتش بترجمتها إلى البوسنوية ونشرها في سرايفو خلال ١٩١٢م:
Safvet-beg Basagic,Bosnjaci i Hercegovci u islamskoj knjizevnosti, Sarajevo (Zemaljska stamparija) 1912

نواة للدراسات الاستشراقية، ولكن انشغاله بالانتخابات لبرلمان البوسنة جعله يعزف عن ذلك[1].

وإذا كان باشأغيتش بهذا المعنى الواسع للكلمة أول «مستشرق»، بعدما أصبحت البوسنة جزءاً من الإمبراطورية النمساوية المجرية، فقد انعكس هذا على أطروحته التي تناول فيها الموضوع بمنهجية جديدة عرّف فيها بالعلماء والأدباء البشانقة الذين ألّفوا في مختلف العلوم باللغات الشرقية وبمؤلفاتهم المخطوطة وأماكن وجودها إلخ. وكان ممن اطلع على هذا العمل الرائد، بعد أن قام باشأغيتش بترجمته ونشره في سراييفو في ١٩١٢م، الشاب البوسنوي محمد خانجيتش قبل ذهابه إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، حيث استفاد منه ومن إقامته في القاهرة للاطلاع على بعض المصادر العربية والتركية لينجز هناك كتابه «الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنة»[2].

ولكن إذا كان باشأغيتش أول «مستشرق» بمعنى ما، فإن مواطنه فهيم بايراكتاروفيتش (١٨٨٩-١٩٧٠م) يعتبر أول مستشرق بالمعنى المعروف للكلمة بل إنه أصبح يعتبر «عميد الاستشراق» في يوغسلافيا التي تأسست في ١٩١٨م بضم البوسنة وكرواتيا وسلوفينيا إلى صربيا والجبل الأسود. فقد أسّس بايراكتاروفيتش أول قسم للاستشراق في يوغسلافيا والبلقان في ١٩٢٦م، وذلك في جامعة بلغراد التي كانت عاصمة الدولة الجديدة. ونظراً إلى أن بايراكتاروفيتش كان يعتبر أقرب إلى الاستشراق الأوروبي المركزي فقد كان

---

(١) فاز باشأغيتش في الانتخابات وأصبح نائباً لبرلمان البوسنة ثم رئيسا للبرلمان، وبذلك أصبح من الشخصيات المعروفة على مستوى الإمبراطورية النمساوية المجرية، ولكن بعد انهيار هذه الإمبراطورية وضم البوسنة إلى الدولة اليوغسلافية الجديدة ساءت حالته المادية والصحية واضطر إلى بيع مكتبته. للمزيد عنه انظر مقالتنا: مكتبة باشأغيتش من سراييفو إلى براتيسلافا: مجموعة تضم أندر المخطوطات الشرقية، جريدة «الحياة» ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٠م.

(٢) صدر هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة ١٩٣١م ثم صدر بتحقيق د.عبداللطيف الحلو في القاهرة عام ١٩٩٢م (دار هجر) وبتحقيق سيد كسري حسن في بيروت عام ١٩٩٣م، ولدينا الآن طبعة جديدة أصدرتها مؤسسة البابطين في الكويت عام ٢٠١٠م.

اهتمامه بهذا المجال (التراث الشرقي للبوسنة) محدوداً، إذ إنه انشغل أكثر باللغة الفارسية وأدبها[١].

ومع تأسيس أول قسم للاستشراق في بلغراد، الذي سيبقى الوحيد من نوعه طيلة وجود يوغسلافيا الأولى ١٩١٨-١٩٤١م، سيبرز الجيل الأول من «المستشرقين» البوسنويين (نديم فيليبوفيتش إلخ) الذين تخرجوا في هذا القسم وأسهموا لاحقاً في تأسيس «الاستشراق البوسنوي» الذي تميّز لاحقاً عما كان موجوداً في بلغراد[٢].

وإذا كان قسم الاستشراق في جامعة سراييفو قد تأسس مع تأسيس الجامعة (١٩٥٠م) واستلهم القسم الأول في تركيزه على الجانب الفيلولوجي (دراسة اللغات والآداب العربية والتركية والفارسية) فإن معهد الاستشراق في سراييفو الذي تأسس في السنة ذاتها (١٩٥٠م) كان يختلف عنه في تكوينه ومهامه. فقد تأسس المعهد من خليط من الباحثين «الشرقيين» الذين تخرجوا في المؤسسات التعليمية التقليدية مثل بسيم قرقوت[٣] وصالح عليتش[٤] ومحمد مويتش[٥] ومن الباحثين «المخضرمين» الذين جمعوا بين التعليم التقليدي والتحصيل

---

(١) للمزيد عن بايراكتاروفيتش انظر مقالتنا: فهيم بايراكتاروفيتش عميد الاستشراق في يوغسلافيا، جريدة «الحياة» ٧/ ٢/ ٢٠٠١م.

(٢) للمزيد عن التمايز بين الاستشراق الصربي والاستشراق البوسنوي انظر كتابنا، مراجعة الاستشراق، ص٣١-٤٣.

(٣) ولد بسيم قرقوت في ترافنيك وذهب إلى القاهرة لمتابعة دراساته حيث تخرج من كلية الشريعة والقانون في الأزهر. بعد عودته إلى البوسنة عمل فترة في التدريس ثم التحق بمعهد الاستشراق فور تأسيسه وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق بجامعة سراييفو. توج حياته العلمية بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة البوسنوية (سراييفو ١٩٧٧م) التي اعتبرت أفضل ترجمة صدرت في ذلك الوقت.

(٤) ولد صالح عليتش في قرية قرب فيسوكو حيث بدأ تعليمه على النمط التقليدي ثم ذهب إلى القاهرة ليتابع دراسته في الأزهر حيث حصل على العالمية. انضم في ١٩٥٠م إلى معهد الاستشراق وعمل محرراً لمجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية».

(٥) ولد محمد مويتش في موستار وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا. اشتغل في فيلولوجيا اللغة العربية وآدابها، حيث نشر عدة دراسات في مجلة المعهد وغيرها من المجلات العلمية في يوغسلافيا السابقة.

الأكاديمي الحديث مثل حميد حاجي بيغيتش[1] وعمر موشيتش[2] وحازم شعبانوفيتش[3] وغيرهم ومن «المستشرقين» الذين تخرجوا من قسم الاستشراق في بلغراد مثل نديم فيليبوفيتش[4] وبرنيسلاف جورجيف[5] وغيرهم. ومن ناحية أخرى فإن الهدف من تأسيس معهد علمي للاستشراق (الذي كان الوحيد من نوعه في يوغسلافيا السابقة) كان يختلف بطبيعة الحال عن الهدف من تأسيس قسم الاستشراق في جامعة سراييفو. فقد نصّ المرسوم المؤسس للمعهد على جملة مهام:

- جمع ونشر المخطوطات الشرقية والوثائق المتعلقة بالبوسنة.
- دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية وآدابها وتأثيرها في اللغة البوسنوية وثقافتها.

---

(١) ولد حميد حاجي بيغيتش في سراييفو ودرس فيها على الطريقة التقليدية ثم التحق بجامعة استانبول ليتخرج في كلية الحقوق. انضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه واشتغل في تحقيق ونشر المصادر العثمانية عن البوسنة بالإضافة إلى ترجمته لبعض الأعمال الأدبية عن التركية.

(٢) ولد عمر موشيتش في سراييفو ودرس فيها على الطرقة التقليدية ثم درّس في مدارسها الإسلامية. انضم إلى معهد الاستشراق بعد تأسيسه وعمل محاضراً للغة العربية في قسم الاستشراق بجامعة سراييفو. اهتم بمؤلفات البوسنويين في اللغة العربية ونشر عن ذلك عدة دراسات.

(٣) ولد حازم شعبانوفيتش في قرية قرب فيسوكو وانتقل إلى سراييفو للدراسة حيث تخرج من المدرسة الإسلامية العليا. تابع دراساته العليا في جامعة بلغراد فحصل على دكتوراة في التاريخ وانضم إلى معهد الاستشراق فور تأسيسه. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثمانية وله دراسات مرجعية في ذلك مثل « باشوية البوسنة» إلخ.

(٤) ولد نديم فيليبوفيتش في بلدة غلاغوفيتش وانتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق هناك. بدأ العمل أولاً في قسم الاستشراق بجامعة سراييفو فور تأسيسه في ١٩٥٠م ثم انتقل للعمل في معهد الاستشراق مديراً له خلال ١٩٦٤-١٩٦٩م. اشتغل في تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني، وخاصة في ما يتعلق بانتشار الإسلام والحراك الفكري الاجتماعي، وله في ذلك دراسات مرجعية مثل «الأمير موسى والشيخ بدر الدين» إلخ.

(٥) ولد في مدينة سرمسكي كارلوفتس في فويفودينا وانتقل إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق هناك حيث تابع دراساته العليا. انضم إلى معهد الاستشراق في بلغراد فور تأسيسه وكان أول مدير له خلال ١٩٥٠-١٩٦٤م ثم أصبح رئيساً لأكاديمية العلوم والفنون في البوسنة خلال ١٩٦٨-١٩٧١م. اشتغل في مجال تاريخ الشعوب اليوغسلافية خلال الحكم العثماني.

• دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية[1].

وبناء على ذلك يمكن القول إن «الاستشراق البوسنوي» منذ انطلاقته المؤسسية والعملية في ١٩٥٠ أخذ بعداً يميّزه عن الاستشراق الأوروبي بالمعنى المألوف للكلمة. فقد كُلّف المعهد بـ «جمع ونشر المخطوطات الشرقية» التي «تتعلق بتاريخ البوسنة» و«دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية وتأثيرها في اللغة البوسنوية وثقافتها» و«دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية»، أي إن «الاستشراق البوسنوي» ارتبط منذ تأسيسه وانطلاقته بمفهوم مغاير عن الاستشراق الأوروبي التقليدي من حيث النظر إلى «التراث الشرقي» الموجود في البوسنة. فإذا كان هذا «التراث الشرقي» بالنسبة إلى الاستشراق الأوروبي التقليدي يمثل «الآخر» أو موضوع الدراسة للتعرف على «الآخر» سواء لفهمه أو لإخضاعه فإنه بالنسبة إلى الاستشراق البوسنوي أصبح يمثل الذات وليس الآخر، وهو ما تبلور لاحقاً بشكل أوضح مع عمل المعهد[2].

وهكذا يمكن القول إن سنوات الخمسينيات للقرن العشرين كانت سنوات التأسيس والتأصيل والتفعيل لتحويل هذا المفهوم الجديد للاستشراق في البوسنة إلى واقع ملموس مع أنشطة المعهد في هذا المجال:

• تكوين مكتبة خاصة بمعهد الاستشراق تجمع ما يمكن جمعه من المخطوطات الشرقية في البوسنة. وقد نجحت إدارة المعهد في إغناء هذه المكتبة بالمخطوطات الشرقية حتى غدت من أهم المكتبات في البلقان في هذا المجال.

• إصدار مجلة علمية دورية باسم «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية» تحولت إلى منبر معروف على المستوى البلقاني والأوروبي بنشر الدراسات عن المخطوطات الشرقية الموجودة في البوسنة.

---

(1) Behija Zlatar, Orijentali institut u Sarajevu 19502000-, Sarajevo (Orijentalni institut) 2000, p.9.

(٢) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: مراجعة الاستشراق، ص١٧-١٨.

• إصدار سلسلة النشريات العلمية في المعهد التي اشتملت أيضا على نشر دراسات عن المخطوطات الشرقية في البوسنة وعن الآداب الشرقية.

• تكوين أجيال جديدة من المستشرقين وذلك بالتوسع بضم العناصر الشابة من خريجي قسم الاستشراق ضمن المشاريع العلمية للمعهد.

وفي ضوء ذلك يمكن أن نتابع بتفصيل أكثر دور الاستشراق البوسنوي في المجالين المحددين للدراسة، أي في التعريف بالأدب العربي والاعتناء بالمخطوطات الشرقية في البوسنة، مع أنه بعد حوالى ربع قرن من تأسيس قسم الاستشراق ومعهد الاستشراق أصبحت لدينا في سراييفو «كلية الدراسات الإسلامية» التي وجد بين أساتذتها من يهتم بالأدب العربي (يوسف راميتش) و«حولية مكتبة الغازي خسرو بك» التي أصبحت تنشر أيضا دراسات وتحقيقات للمستشرقين البوسنويين وغيرهم عن التراث الشرقي للبوسنة.

١- دور الاستشراق البوسنوي في التعريف بالأدب العربي

كانت البداية خلال الخمسينيات مع نشر بعض قصص «ألف ليلة وليلة» تلك التي اختارها وترجمها بسيم قرقوت (ثم نشرها في كتاب خلال ١٩٦٠م بعنوان «قصص عربية قديمة»[1]. وإلى تلك الفترة يعود نشاط سليمان غروزدانيتش (١٩٣٣-١٩٩٦م) الذي كان له إسهامه الكبير سواء في تدريس الأدب العربي في قسم الاستشراق في جامعة سراييفو وفي التعريف به من خلال الترجمات من أقدم عصوره إلى أحدث رموزه. ويمكن القول إن غروزدانيتش بتدريسه للأدب العربي وترجماته الكثيرة أسّس لقاعدة واسعة نظرية وعملية استفاد منه تلاميذه الذين تابعوه في هذا المجال. ويلاحظ على أعمال غروزدانيتش أنها جمعت ما بين الدراسات عن الأدب العربي وما بين الترجمات لأعمال معروفة في الأدب المعروفة وما بين المختارات التي جمعت ما بين أدباء عصر من العصور. وتجدر

---

(1) Besim Korkut, Stare arapske pripovetke, Sarajevo (dzepna knjiga) 1960.

الإشارة إلى أن الترجمات والمختارات أيضا لم تخل من دراسة أو مقدمة عنها تضاف إلى الدراسات الأخرى التي تعبّر عن مدى اطلاع غروزدانيتش على الأدب العربي.

وكان غروزدانيتش قد تخرّج في قسم الاستشراق في سراييفو وأصبح مدرّساً للأدب العربي في ١٩٥٨م، وتابع فيه دراساته العليا حيث ناقش في ١٩٧٠م أطروحته للدكتوراة «المسرحية الذهنية عند توفيق الحكيم»، ثم انتقل إلى معهد الاستشراق مديراً له خلال ١٩٧٤-١٩٨٢م. وإذا استثنينا الدراسات المبكرة التي نشرها عن توفيق الحكيم في ١٩٦٤م[١]، وعن المسرحية المعاصرة في مصر في ١٩٦٦م[٢]، والدراسات الأخرى عن عبدالله بن المقفع ورسالته عن الصداقة ودراسته عن أبي العلاء المعري فإن الكتب التي أصدرها تبيّن سعة معرفة غروزدانيتش على الأدب العربي قديمه وحديثه:

- الشعر العربي القديم، مختارات من قصائد الفند الزماني والشنفرى وسعد ابن مالك البكري وتأبط شراً إلخ، اختارها وقدم لها سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٧١م[٣].
- سليمان غروزدانيتش، في آفاق الأدب العربي، سراييفو ١٩٧٥م[٤].
- عبدالوهاب البياتي، رسائل حب إلى امرأة، ترجمها وقدم لها: سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٧٥م[٥].

---

(1) Sulejman Grozdanic, «Teufik al-Hakim i radjanje arapske drame», Izraz (Sarajevo) februar 1964.

(2) Sulejman Grozdanic, «Drama u Egiptu danas», Pozoriste (Tuzla), br.6, 1966.

(3) Stara arapska poezija, uvodna studija,izbor i prijevod Sulajman Grzodanic, Sarajevo (Svijetlost) 1971.

(4) Sulajman Grozdanic, Na horizontima arapske knjizevnosti, Sarajevo (svijetlost) 1975.

(5) Abul Vehab al-Bajati, Ljubavno pismo zeni, predgovor, izbor i prijevod Sulajman Grozdanic, Sarajevo (V.Maslesa) 1975.

- يوسف إدريس، الشيخ بابا وقصص أخرى، ترجمها مع آخرين وقدم لها: سليمان غروزدانيتش، بلغراد ١٩٧٧م[1].
- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ترجمة ودراسة: سليمان غروزدانيتش، سرايیفو ١٩٧٩م[2].
- نجيب محفوظ، بين القصرين، ترجمة وتقديم: سليمان غروزدانيتش، سرايیفو ١٩٩٠م[3].
- ألف ليلة وليلة، مختارات من ترجمة بسيم قرقوت ودراسة سليمان غروزدانيتش[4].

وبالإضافة إلى إسهامه الكبير في تدريس الأدب العربي والتعريف به فقد انشغل غرزدانيتش أيضاً بعد انتقاله إلى معهد الاستشراق بالاهتمام بالتراث البوسنوي في اللغات الشرقية، حيث كان له أيضاً إسهامه الذي ستتعرف عليه في القسم الثاني.

وفي الواقع لا بد من القول إن هذا الاهتمام البوسنوي للتعريف بالأدب العربي دراسة وترجمة قد تزامن مع وجود اهتمام عام في يوغسلافيا السابقة بالعالم الثالث نتيجة لنشوء حركة عدم الانحياز وتطور العلاقات مع العالم العربي، مما أوجد جمهوراً قارئاً معنياً بهذا الأدب وترحيباً من دور النشر بمثل هذه الأعمال.

وإذا كان غروزدانيتش يمثّل الجيل الأول في الاستشراق البوسنوي الذي فتح الأبواب على دراسة وترجمة الأدب العربي منذ أقدم عصوره إلى

(1) Jusuf Idriz, Sejh baba I druge pripovjetke, izbor i predgovor Sulejman Grozdanic, Beograd (Udruzeni izdavaci) 1977.

(2) Abu al-Ala al-Ma'arri, Poslanica o oprostenju, uvodna studija, izbor I prijevod Sulejman Grozdanic, Sarajevo (Udruzeni izdavaci) 1979.

(3) Nedzib Mahfuz, Put izmedju dva dvorca, prevod I pogovor Sulejman Grozdanic, Sarajevo (Svijetlost) 1990.

(4) 1001 noc, izbor I predgovor Sulejman Grozdanic, Sarajevo (V. Maslesa) 1989.

أحدث رموزه، فإن أسعد دوراكوفيتش[1] يمثّل الجيل الثاني الذي يعبّر أيضاً عن التداخل ما بين قسم الاستشراق ومعهد الاستشراق وما بين الاهتمام بالأدب العربي دراسة وترجمة والاهتمام بالتراث الشرقي للبوسنة. وكان دوراكوفيتش قد تخصّص أيضاً في الأدب العربي الحديث حيث تناول في أطروحته للماجستير «الأدب العربي في كتاب حديث الأربعاء لطه حسين» بينما تناول في أطروحته للدكتوراة «نظرية الإبداع في أدب المهجر بالولايات المتحدة الأمريكية»[2].

وكان دوراكوفيتش قد التحق في ١٩٧٦م، بقسم الاستشراق في جامعة بريشتينا، الذي كان قد افتتح في ١٩٧٣م باعتباره الثالث في يوغسلافيا السابقة، وانتقل في ١٩٩١م، إلى معهد الاستشراق في سراييفو ثم إلى قسم الاستشراق في ١٩٩٦م، الذي أصبح رئيساً له منذ عام ٢٠٠٠م. وفي ما يتعلق بإسهامه في دراسة وترجمة الأدب العربي فقد بدأ أولاً بالشعر العربي الحديث حيث شارك في ترجمة مختارات من «الشعر الفلسطيني المعاصر» التي صدرت في ١٩٧٩م، قبل أن يصدر أول مختارات شعرية لمحمود درويش في ١٩٨٤م، وتوجه بعد ذلك إلى الأدب العربي الكلاسيكي من شعر ونثر حيث أصدر أول ترجمة بوسنوية كاملة من اللغة العربية لـ «ألف ليلة وليلة». وتدل الكتب التي نشرها دوراكوفيتش، بالإضافة إلى مقالاته وأبحاثه الكثيرة في الصحف والمجلات، على حجم الإسهام الذي قدّمه للتعريف بالأدب العربي قديمه وحديثه:

---

(١) ولد أسعد دوراكوفيتش في قرية قرب بوغوينو عام ١٩٤٨م وانتقل إلى سراييفو للدراسة في مدرسة الغازي خسرو بك المشهورة، ثم توجه إلى بلغراد للدراسة في قسم الاستشراق هناك حيث تابع دراساته العليا. بدأ عمله في قسم الاستشراق في بريشتينا عام ١٩٧٦م ثم انتقل إلى معهد الاستشراق في ١٩٩١م، حيث عايش سنوات الحرب فيه ١٩٩٢-١٩٩٥م وانتقل في ١٩٩٦م إلى قسم الاستشراق الذي أصبح رئيساً له منذ ٢٠٠٠م، وانتخب في ٢٠٠٢م عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق تقديراً لجهوده في خدمة الثقافة العربية.

(٢) صدرت هذه الأطروحة في اللغة العربية بترجمة المؤلف تحت عنوان «نظرية الإبداع المهجري في الولايات المتحدة»، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٨٥م.

- الشعر الكويتي المعاصر، مختارات لـفهد العسكر وأحمد العدواني وخالد سعود الزيد إلخ، اختارها وقدم لها: محمد موفاكو وترجمها أسعد دوراكوفيتش، كروشافاتس ١٩٨٢م[1].
- محمود درويش، قصائد مقاومة، اختارها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، كروشافاتس ١٩٨٤م[2].
- الشعر الأردني المعاصر، مختارات لـمصطفى التل وجميل ذياب وحسين زيد الكيلاني وحسني فريز إلخ، اختارها وقدم لها: محمد موفاكو، وترجمها: أسعد دوراكوفيتش، كروشافاتس ١٩٨٤م[3].
- الشعر السوري المعاصر، قصائد لأورخان ميسر ونزار قباني وأحمد سليمان الأحمد وعلي الجندي ومحمد الماغوط إلخ، اختارها وقدم لها: محمد موفاكو، وترجمها: أسعد دوراكوفيتش، كروشافاتس ١٩٨٥م[4].
- جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، زغرب ١٩٨٧م[5].
- جبران خليل جبران، ثمرات النفس الفواحة، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، زغرب ١٩٨٧م[6].

---

(1) Savremena poezija Kuvajta,izbor i predgovor Muhamed Mufaku, prevod Esad Durakovic, Krusevac (Bagdala)1982.

(2) Mahmud Dervis, Orpori, izbor, predgovor i prevod Esad Durakovic, Krusevac (Bagdala) 1984.

(3) Savremena poezija Jordana,izbor i predgovor Muhamed Mufaku, prevod Esad Duraovic, Krusevac (Bagdala) 1984.

(4) Savremena poezija Sirije, izbor i predgovor Muhamed Mufaku, prevod Esad Durakovic, Krusevac (Bagdala) 1985.

(5) Halil Dzubran,Mirisni plodovi duse, izbor, prijevod i pogovor Esad Durakovic, Zagreb (Gravicki zavod) 1987.

(6) Halil Dzubran, Suza i osmijeh, prijevod i pogovor Esad Durakovic, Zagreb (Gravicki zavod) 1987.

- شعر المشرق العربي في القرن العشرين، مختارات لـعبد الوهاب البياتي وجبرا إبراهيم جبرا وبلند الحيدري ونازك الملائكة إلخ، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٤م(١).
- جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو (٢)١٩٩٥.
- حنان الشيخ، قصة زهرة، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٨م(٣).
- ألف ليلة وليلة ١-٤، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٩م(٤).
- جبران خليل جبران، مختارات، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ٢٠٠٠م(٥).
- المعلقات السبع، ترجمة وتقديم أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ٢٠٠٤م(٦).

وبالإضافة إلى هذا الانشغال الكبير بدراسة وترجمة الأدب العربي فقد اهتم دوراكوفيتش أيضاً بالتراث الشرقي للبوسنة خلال عمله في معهد الاستشراق، وهو ما سنعرض له في القسم الثاني.

---

(1) Poezija arapskog Istoka XX vijeka, izbor i prijevod Esad Durakovic, Sarajevo (Bosanska knjiga) 1994.

(2) Dzebra Ibrahim Dzebra, U potrazi za Velidom Mesudom, prijevdi i pogovor Esad Durakovic, Sarajevo (ZID) 1995.

(3) Hanan al-Sejh, Zehrina prica, prijevod i pogovor Esad Durakovic, Sarajevo (ZID) 1998.

(4) Hiljadu I jedna noc I-IV, prijevod I predgovor Esad Durakovic, Sarajevo (Ljiljana) 1999.

(5) Halil Dzubran,Suza i osmijeh, Mirisni plodovi duse, prijevod i predgovor Esad Durakovic, Sarajevo (Ljiljan) 2000.

(6) Esad Durakovic, Muallaqe- Sedam zlatnih arabljanskih oda, Sarajevo (Sarajevo Publishig) 2004

وللمزيد عن هذا الإسهام انظر عرضنا له في العربية: قراءة بوسنوية جديدة للمعلقات، جريدة «الحياة» ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٤م.

ومع هذا الانشغال للاستشراق البوسنوي بدراسة وترجمة الأدب العربي صدرت في سراييفو ترجمات أدبية أخرى لأسماء معروفة في العالم العربي مثل رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» التي ترجمتها دليلة دزداريفيتش وصدرت في ١٩٩٥م[1] ورواية مؤنس الرزاز «أحياء البحر الميت» التي ترجمها محمد كيتسو وصدرت في سراييفو في ١٩٩٨م[2]. ومع أن فوز الروائي المعروف نجيب محفوظ بجائزة نوبل شجع أولاً غروزدانيتش على ترجمة روايته «بين القصرين» التي صدرت في ١٩٩٠م، إلا أن أهم أعماله («ثرثرة على النيل» و«ميرامار» و«اللص والكلاب» إلخ) صدرت لاحقاً خلال ٢٠٠٠-٢٠٠٧م بترجمة محمد كيتسو[3].

ويمكن القول هنا إنه مع هذا الإسهام الكبير لغروزدانيتش ودوراكوفيتش أصبح لدينا قاعدة جيدة تسمح للجيل الثالث من المستشرقين البوسنويين أن يتعمق أكثر ويتوسع أكثر في دراسة الأدب العربي وترجمته. وقد ترافق هذا مع حدث مهم ألا وهو استقلال البوسنة في ربيع ١٩٩٢م، وتحرر البوسنة من كابوس الحرب ١٩٩٢-١٩٩٥م، التي لم تمنع هؤلاء من الاستمرار في عملهم، حيث إن الوضع الجديد للبوسنة (الذي ليس مرضياً لكل

---

(1) Tajib Salih, Vrijeme seobe na sjever, prijevod i pogovor Delila Dizdarevic, Sarajevo (Svijetlost) 1995.

(2) Munis Rezaz, Zivi u Mortvome moru, prijevod i pogovor Mehmed Kico, Sarasjevo (ZID) 1998.

(٣) صدرت هذه الأعمال حسب التسلسل التالي:

1. Nedzib Mahfuz, Razgovori na Nilu, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2000.
2. Nedzib Mahfuz, Kao u Hiljadu i jednoj noci, Travnik 2001.
3. Nedzib Mahfuz, Pansion Miramar, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2005.
4. Nedzib Mahfuz, Lopov i psi,prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2005.
5. Nedzib Mahfuz, Novi Kairo, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2005.
6. Nedzib Mahfuz, Kvart Han al-Halili, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2005.
7. Ndzib Mahfuz, Postovani gospodin, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2007.
8. Nedzib Mahfuz, Ogledala, prijevod Mehmed Kico, Sarajevo, 2007.

الأطراف بعد) شهد ازدهاراً جديداً لمؤسسة الاستشراق بعد التواصل الجديد لقسم الاستشراق مع العالم العربي وانطلاق معهد الاستشراق في مبناه الجديد بعد تدميره بالكامل خلال الحرب. وفي هذا السياق فقد تجددت في سراييفو الندوات والمؤتمرات الأدبية الدورية والدولية التي يشارك فيها الأدباء والكتاب من أنحاء العالم، وأصبح الأدباء والكتّاب العرب يشاركون أكثر خلال السنوات الاخيرة في «أيام سراييفو الشعرية» التي تعقد في أيار من كل عام في سراييفو، مما أسهم ويساهم في تعارف وتفاعل أفضل بين الطرفين. ومن ذلك كانت مشاركة الشاعر محمود درويش في أيار ٢٠٠٨م، الذي كان له حضوره الكبير وتواصله المؤثر مع المعنيين بشعره بين المستشرقين البوسنويين[١].

وهكذا نجد مع الجيل الثالث، من تلاميذ دوراكوفيتش وغيره من المستشرقين البوسنويين، أن العمل يتواصل أكثر على دراسة وترجمة الأدب العربي المعاصر. وفي هذا السياق فقد صدرت في سراييفو ٢٠٠٦م رواية غسان كنفاني «رجال تحت الشمس» التي ترجمها وقدم لها منير موييتش[٢]. وكان مويتش قد تخرّج من قسم الاستشراق في جامعة سراييفو وتابع فيه دراساته العليا حيث اختار لرسالة الماجستير «الأسلوبية العربية في أعمال حسن كافي الاقحصاري» ولرسالة الدكتوراة «الاستعارات والصور في الأسلوبية العربية»[٣]. كما صدرت في سراييفو ٢٠٠٨م ترجمتان لاسمين معروفين في الأدب العربي المعاصر: «ليلى والمجنون» لصلاح عبد الصبور بترجمة منير مويتش، ومختارات لمحمود درويش بعنوان «أشواك لا نهاية لها»

---

(١) للمزيد حول ذلك انظر ما كتبه أحد المشاركين عن اللقاء الأخير: إسماعيل أبو البندورة، محمود درويش في سراييفو، جريدة «العرب»، الدوحة ١٦/ ٩/ ٢٠٠٨م.

(2) Gassan Kanafani, Ljudi na suncu, prijevod Munir Mujic, Sarajevo (Connectum) 2006.

وللمزيد عن هذه الترجمة انظر عرضنا لها في العربية: نظرات بوسنوية إلى رواية كنفاني «رجال تحت الشمس»، جريدة «الحياة» ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٦م.

(٣) نشرت رسالة الماجستير عن كلية الآداب في جامعة سراييفو في ٢٠٠٧م بينما لا تزال رسالة الدكتوراة تنتظر النشر.

ترجمها وقدم لها ميرزا سارايكتيتش[1]. وكان سارايكيتش بعد انضمامه إلى قسم الاستشراق في ٢٠٠٤م كمدرّس لمادة «الأدب العربي الحديث» انشغل بالشعر العربي المعاصر، وخاصة الشعر الفلسطيني المعاصر، وترجم لعدد من الشعراء مثل صلاح عبد الصبور ومحمد علي شمس الدين ومحمود درويش والمتوكل طه وغيرهم[2].

٢- الاعتناء بالمخطوطات الشرقية في البوسنة

على الرغم من الحروب والمآسي التي حلت بالبوسنة في القرون الماضية، ويكفي أن نذكر هنا إحراق سرايبفو في تشرين الاول ١٦٩٧م على يد الجيش النمساوي وما ألحقه من أضرار بالغة[3]، فقد بقيت في البوسنة آلاف المخطوطات في اللغات الشرقية التي تعتبر من تراث البوسنة. وقد بقيت هذه المخطوطات حتى نهاية القرن التاسع عشر موزعة مابين المكتبات الخاصة للعلماء والأسر العريقة وما بين المكتبات شبه العامة (الملحقة بالمدارس والمساجد) والمكتبات العامة (مكتبة الغازي خسرو بك). وكانت أضخم حاضنة للمخطوطات الشرقية مكتبة الغازي خسرو بك التي تأسست أولاً كمكتبة للمدرسة التي تحمل الاسم ذاته في ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م، مع أن وقفيتها كانت تسمح لها بأن تكون مكتبة عامة[4]، إلا أنها دُمّرت خلال الهجوم النمساوي على سرايبفو في ١٦٩٧م. وقد انبعثت

(1) Mahmud Dervis, Beskraj od trnja, izbor i prijevod Mirza Sarajkic, pogovor Esad Durakovic, Sarajevo (Zalihica) 2998; Salah Abd al-Sabur, Lejla I Medznun, prijevod Mirza Sarajkic, Sarajevo (Dobra knjiga) 2008.

(٢) للمزيد عنه وعن ترجمته انظر مقالنا: «أشواك لا نهاية لها» لمحمود درويش، جريدة «الحياة» ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٩م.

(٣) بعد الهجوم النمساوي وإحراق سرايبفو في تشرين الأول ١٦٩٧م شكّل والي البوسنة خليل باشا لجنة لتقدير الأضرار التي لحقت بجوامع المدينة، حيث تبيّن أن ٩٣ جامعاً من أصل الجوامع الـ ١٠٤ الموجودة آنذاك كانت في «حالة خراب». للمزيد عن ذلك أنظر كتابنا: الإسلام في يوغسلافيا، ص٢١٩-٢٢٠.

(٤) للمزيد عن هذه المكتبة والوقفية المؤسسة لها انظر دراستنا: وقفية مدرسة خسرو بك في سرايبفو، مجلة «أوقاف» عدد ١٣، الكويت ٢٠٠٧م، ص١٠٩-١٢٤.

هذه المكتبة فيما بعد وتطورت بشكل واضح منذ ١٨٦٤م، حين استقلّت في مبنى خاص في جوار الجامع الذي يحمل الاسم ذاته.

ومع الاحتلال النمساوي المجري للبوسنة في ١٨٧٨م، وسعي الإدارة الجديدة لـ «أوروبة الشرق» تمّ تأسيس معاهد علمية جديدة ومكتبات متخصصة ملحقة بها، ومن ذلك «المتحف البوسنوي» و«المعهد البلقاني» حيث انتقلت إلى مكتبته المتخصصة مئات المخطوطات الشرقية التي جمعت من أرجاء مختلفة من البوسنة[١].

وبعد انهيار إمبراطورية النمسا والمجر في أواخر ١٩١٨م، وضم البوسنة إلى الدولة اليوغسلافية واختيار سراييفو مركزاً لـ «الجماعة الإسلامية» التي تمثّل كل المسلمين في يوغسلافيا وترعى أمورهم الدينية والثقافية، ومن ذلك مكتبة الغازي خسرو بك، نمت هذه المكتبة واغتنت بآلاف المخطوطات الشرقية التي وردت إليها من المكتبات الخاصة حتى ضاقت بمبناها فانتقلت في ١٩٣٥م إلى المبنى الواسع الذي لا تزال فيه حتى الآن في وسط سراييفو. وقد اهتم بالمخطوطات الشرقية الموجودة في هذه المكتبة العالم البوسنوي محمد الخانجي[٢] بعد عودته إلى سراييفو من القاهرة، حيث بدأ بوضع فهرس شامل لها قيّد فيه حوالى ألفي بطاقة إلا أنه توفي فجأة في ١٩٤٤م قبل إكمال عمله[٣].

ومن ناحية أخرى يمكن القول إن اهتمام «الاستشراق البوسنوي» الجديد والمنهجي قد بدأ مع صفوت باشأغيتش (١٨٧٠-١٩٣٤م)، الذي اهتم بالمخطوطات الشرقية في البوسنة وخارجها (التي تعود لمؤلفين بوسنويين) لأجل إنجاز أطروحته للدكتوراة «البوسنويون والهرسكيون في الأدب الإسلامي»

---

(١) كانت هذه من «الإنجازات» التي قامت بها الإدارة النمساوية المجرية الجديدة لاستيعاب المسلمين ضمن الدولة الجديدة. للمزيد عن ذلك انظر كتاب كارتشيتش المذكور: Karcic, The Bosnjaks, pp.88-98.

(٢) للمزيد عنه انظر مقالتنا: محمد خانجيتش أو محمد الخانجي- من أعلام البوسنة في القرن العشرين، جريدة «الغد»، عمّان ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٤م.

(٣) للمزيد عن ذلك انظر مقالتنا: جهود ثلاثة علماء في فهرسة التراث الشرقي للبوسنة، جريدة «الحياة» ١٤/ ٨/ ٢٠٠٤.

التي ناقشها في جامعة فيينا خلال ١٩١٠م. وبناء على اهتمامه وتقديره لهذه المخطوطات فقد أخذ باشأغيتش يكوّن مجموعته الخاصة من المخطوطات الشرقية التي ورث نواتها من والده العالم إبراهيم باشأغيتش، حيث أصبحت هذه المجموعة معروفة في المنطقة ودوائر الاستشراق الأوروبي بعدما أصبحت تضم حوالى ٦٠٠ مخطوطة مختارة بعناية. وكانت هذه المجموعة تنقسم إلى قسمين يحتوي الأول منها على مؤلفات لعلماء البوسنة باللغات الشرقية ويشتمل الثاني على ما ألفه علماء المسلمين خارج البوسنة. أما من حيث الموضوعات فقد اشتملت هذه المخطوطات على مؤلفات في علوم القرآن (٣٥ مخطوطة) وعلوم الحديث (٣٢ مخطوطة) وفي الفقه وأصوله (٤٨ مخطوطة) وفي العقائد وعلم الكلام (١٧٩مخطوطة) وغيرها[1]. ولكن الظروف الصعبة التي مرّ بها باشأغيتش في السنوات الأولى القاسية لوجود البوسنة ضمن الدولة اليوغسلافية دفعته إلى عرض هذه المجموعة للبيع، حيث اشترتها مكتبة جامعة براتيسلافا التي أصدرت لها فهرساً خاصا في ١٩٦١م، وأقامت لها معرضاً متنقلاً في صيف ١٩٩٦م، حين أعلنتها اليونسكو كنزاً عالمياً تحت رعايتها[2].

ومع تأسيس معهد الاستشراق في سراييفو خلال ١٩٥٠م، فقد نصّ المرسوم المؤسّس له، كما مرّ معنا، على أهم مهامه التي تتضمن «جمع ونشر المخطوطات الشرقية» و«دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية». وبالاستناد إلى ذلك فقد أخذ المعهد يكوّن بسرعة مجموعته الخاصة من المخطوطات الشرقية في المكتبة المتخصصة للمعهد، حيث ضمّت إليها حوالى ٣٥٠٠ مخطوطة كانت موجودة في مكتبة المتحف الوطني مما آل إليها من «المعهد البلقاني» الذي أغلق في نهاية العهد النمساوي المجري وكذلك بالشراء من الأفراد حتى أصبحت هذه المكتبة بعد حوالى عقدين تضم واحدة من أهم

(1) Dr. Salvet beg Basagic, Popis orijentalrih rukopisa moje biblioteke, Sarajevo (Zemaljska stamparija) 1917.

(٢) للمزيد عنه انظر مقالتنا: مكتبة باشأغيتش من سراييفو إلى براتيسلافا، جريدة «الحياة» ٢٠٠٠/١١/٢٦م.

المجوعات الخاصة على مستوى البلقان، حيث إن عددها وصل إلى حوالى خمسة آلاف مجموع تضم حوالى سبعة آلاف مؤلف. وقد ضمت هذه المجموعة مخطوطات قديمة كتبت في العالم الإسلامي كان أقدمها «النوازل من الفتاوى» للسمرقندي التي تعود إلى ٤١٣هـ/ ١٠٣٢م، وإلى مخطوطات نُسخت في البوسنة أو كتبت على أيدي علمائها في مختلف المجالات[1].

ونظراً لأهمية هذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات فقد اعتنى بها العاملون في معهد الاستشراق لكي يضعوها في خدمة أكبر عدد من الباحثين قي البوسنة وخارجها، ولذلك فقد أخذوا بوضع الفهارس المتخصصة لها. وفي هذا السياق فقد نشر صالح تراكو خلال ١٩٨٤م «فهرس مخطوطات معهد الاستشراق في مجال الطب والصيدلة والصحة»[2]، كما أصدر صالح تراكو وليلى غازيتش خلال ١٩٨٦م «فهرس المخطوطات الفارسية في معهد الاستشراق»[3].

ولكن هذا العمل المتواصل الذي قام به معهد الاستشراق منذ تأسيسه في ١٩٥٠م، لأجل جمع وحفظ المخطوطات الشرقية تعرض إلى ضربة قاضية في بداية الحرب على البوسنة حين استهدف بالمدفعية الصربية الثقيلة في ١٧/ ٥/ ١٩٩٢م، فتحول إلى أنقاض واحترقت كل مكتبة المعهد بما في ذلك الكنز المذكور من المخطوطات الشرقية وحوالى ربع مليون وثيقة عن البوسنة خلال الحكم العثماني[4]. وبعد انتهاء الحرب وانبعاث معهد الاستشراق في

---

(1) Salih Trako - Lejla Gazic, Rukopisna zbirka Orijentalonog institute u Sarajevu, POF (boseban otisak) XXV, Sarajevo 1976, p.15.

(2) Salih Trako, Katalog rukopisa iz medicine, farmalogije i hiinje u Orijentalonom institutu u Sarajevu, POF 32033, Sarajevu 1982 - 1983, pp.199 - 265.

(3) Salih Trako, Katalog perziskih rukopia Orijentalnog institute, Sarajevo (Orijentalni institute) 1986.

(٤) للمزيد حول هذه النكبة التي حلت بالمعهد انظر مقالنا: في الذكرى العاشرة لتدمير معهد الاستشراق في سراييفو- ثروة من المخطوطات الشرقية تجمعت خلال ألف عام وتلاشت في يوم واحد، جريدة «العرب اليوم»، عمان ٢٨/ ١٢/ ٢٠٠٢م.

مبنى آخر قام اثنان من أبرز العاملين في المعهد في ١٩٩٧م بإصدار «فهرس مخطوطات معهد الاستشراق في مجال الأدب»[1]، الذي يعرف بـ ٥٦٤ مخطوطة كانت موجودة في مكتبة المعهد وأخذت معطياتها مما نـشر سابقاً عنها في الفهارس والأبحاث التي نشرت خلال العقود السابقة[2].

وبالإضافة إلى هذه الفهارس، التي تمثّل أحد جوانب الاعتناء بالمخطوطات الشرقية في البوسنة، فقد انشغل الاستشراق البوسنوي بجانب آخر مهم ألا وهو التعريف بالمخطوطات الشرقية الموجودة في البوسنة. وقد اتخذ هذا الاعتناء خلال العقود الماضية شكلين مختلفين: الاهتمام بنشر مخطوطة بعينها حسب الأصول العلمية أو التعريف بمخطوطة أو أكثر لكاتب بوسنوي ضمن دراسة شاملة عن هذا الكاتب.

وفي ما يتعلق بالشكل الأول فقد لعبت مجلة معهد الاستشراق (إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية)، التي كانت الوحيدة من نوعها في يوغسلافيا السابقة، دوراً كبيراً في التعريف بهذه المخطوطات الشرقية ونشر بعضها. ويمكن القول إنه على مدى الستين سنة من عمر المعهد والمجلة لا يكاد يخلو عدد واحد من إسهام للاستشراق البوسنوي في هذا الجانب. وهكذا فقد تضمن العدد الأول للمجلة الذي صدر في ١٩٥٠ دراسة للعالم المخضرم شاكر سيكريتش[3]

(1) Salih Trako- Lejla Gazic, Katalog rukopia Orijentalnog institute – Lijepa knjizevnost, Sarajevo (Orijentalni institute) 1997.

(٢) للمزيد عن هذا الفهرس انظر عرضنا له في كتابنا: البوسنة بين الشرق والغرب، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ٢٠٠٥م، ص٧٩-٨٢.

(٣) ولد شاكر سيكريتش عام ١٨٩٣م في قرية قرب فوينيتسه في أسرة ذات تقاليد علمية عريقة، التحق بمدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو ثم تخرج من المدرسة الشرعية القضائية العليا. ونظراً لتفوقه فقد حصل على منحة حكومية لدراسة الاستشراق في جامعة بودابست، حيث تابع هناك دراسته العليا واختار لموضوع أطروحة الدكتوراة «الطرق الصوفية في البوسنة والهرسك». بعد عودته إلى سراييفو عمل مدرساً للغة العربية في المدرسة الشرعية القضائية العليا، ومع تأسيس قسم الاستشراق في جامعة سراييفو انضم إليه أستاذاً للغتين العربية والفارسية إلى موته المفاجئ في ١٩٦٦م. اشتهر بكتابه عن تعليم اللغة العربية (سراييفو ١٩٣٦-١٩٣٧م) ودراساته عن الطرق الصوفية وترجماته من التركية والفارسية.

بعنوان «سودي كشارح لغلستان السعدي»[١]، بينما نشر عمر موشيتش في العدد الخامس درسة بعنوان «منهاج النظام في دين الإسلام لمحمد بروزاتس»[٢]، ونشر رشيد حيدروفيتش[٣] في العدد المزدوج ٦-٧ دراسة بعنوان «مجموعة الملا مصطفى فراقي»[٤]، ونشرت نيفينا كرستيتش[٥] في العدد المزدوج ٢٠-٢١ مخطوطة مصطفى الاقحصاري «رسالة في القهوة والدخان والأشربة» مع ترجمة لها[٦]، ونشر جمال تشهايتش[٧] في العدد المزدوج ٢٢-٢٣ دراسة بعنوان «ضيائي حسن جلبي الموستاري»[٨] وغيرها[٩].

ويمكن القول إن الإسهام الجديد للعاملين في المعهد كان يتمثل في إعداد ببلوغرافيات جديدة أو محدّثة عن هذا التراث الشرقي في البوسنة، بالاستناد إلى ما نشر سابقا، تشمل التعريف بالمؤلفين والمؤلفات

(1) Dr. Sacir Sikric, Sudi kao komentator Sadijna Gulistana, POF I, Sarajevo (1950), pp.51 - 67.

(2) Omer Music, Minhagu -n- nizam fi dini -l - islam od Muhamada Prozorca, POF V-VI, Sarajevo 1954 - 1955, pp.181 - 198.

(٣) لم أجد له ترجمة.

(4) Resid Hajdarovic, «Medzuma Mula Mustafe Firakije», POF XXII-XXIII, Sarajevo 1972 - 1973, pp.301 - 314.

(٥) لم أجد لها ترجمة.

(6) Nevena Krstic, «Mustafa Ibn Muhammad al-Aqhasari, Rasprava o kafi, duvanu I picima», POF XX-XXI, Sarajevo 1970 - 1971, pp.71 - 107.

وانظر الطبعة العربية لهذه الرسالة في كتابنا: الكتابة في اللغة العربية، ص٤١-٨٥.

(٧) ولد جمال تشهايتش عام ١٩٣٠م في قرية قرب كيسلياك، تخرج من قسم الاستشراق في جامعة سراييفو وتابع دراساته العليا في جامعة طهران. بعد عودته إلى سراييفو التحق بمعهد الاستشراق عام ١٩٦٤م واستمر يعمل فيه حتى وفاته في ١٩٨٩م. اهتم بالتصوف والطرق الصوفية ومن أهم مؤلفاته «الطرق الصوفية في أرجاء يوغسلافيا» الذي صدر عن معهد الاستشراق في ١٩٨٦م.

(8) Dzemal Cehajic, «Diya'i Hasan Calabi al-Mostari», POF XXII - XXIII, Sarajevo 11972 - 1973, pp. 329 - 344.

(٩) للمزيد عن ذلك انظر ببلوغرافيا الأعمال والأبحاث المنشورة في مجلة المعهد:

Bisera Nurudinovic,"Pregled izdanja Orijentalnog institute sa bibliografijom radova u njima",POF(Posebab otisak) Sarajevo 1976, pp.4397-.

المخطوطة منها والمطبوعة مع أماكن وجودها وطباعتها وما ترجم منها وما كتب عنها ففي الدراسات الاستشراقية الأوروبية. وفي هذا السياق يمثل صدور كتاب حازم شعبانوفيتش «أدب المسلمين في البوسنة والهرسك باللغات الشرقية» في ١٩٧٣م، إسهاماً قيّماً مع أنه توفي قبل أن يكمله. ففي هذا المرجع البيلوغرافي لدينا معطيات بيوغرافية وببلوغرافية كاملة عن ١٦٢ شخصية بوسنوية ومسودات أولية عن ٦٦ شخصية بوسنوية عرفت بالتأليف باللغات الشرقية[1].

وإلى جانب ذلك فقد أطلق معهد الاستشراق سلسلة «إصدارات خاصة» التي اشتملت على نشر كتب للعاملين في المعهد عن التراث الشرقي، كما إن العاملين في المعهد نشروا دراسات لهم في هذا المجال صدرت عن دور نشر معروفة في البوسنة. وهكذا لدينا من منشورات المعهد في عام ٢٠٠٠م دراسة وتحقيق أسعد دوراكوفيتش لمخطوطة أحمد بن حسن البوسنوي «مفيد على الفريدة» التي هي عبارة عن شرح لرسالة الاستعارة للسمرقندي[2]. وفي هذا السياق تجدر الإشارة أيضاً إلى تحقيق منير مويتش لمخطوطة حسن كافي الاقحصاري «تمحيص التلخيص» للقزويني التي نشرها في الأصل العربي مع ترجمة إلى اللغة البوسنوية ودراسة عنها في عام ٢٠٠٧م[3]. كما عمد بعض العاملين في المعهد إلى نشر بعض المخطوطات الشرقية التي تعود لمؤلفين بوسنويين مترجمة إلى

---

(1) Hazim Sabanovic, Knjizevnost Muslimana na orijentalnim jezicima, Sarajevo (Svijetlost) 1973.

(2) Esad Durakovic, Arapska stilistika u Bosni- Ahmed sin Hasanov Bosnjak o metafori, Sarajevo (Orijentalni institute), 2000.

(3) Munir Mujic, Arapska stilistika u djelu Hasan Kafije Pruscaka, Sarajevo (Filozofski fakultet) 2007.
وللمزيد عن هذا الكتاب المهم انظر عرضنا له في العربية: تاريخ البلاغة العربية لدى كتّاب البوسنة، جريدة «العرب»، الدوحة ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٨م.

اللغة البوسنوية، كما فعل عامر ليوبوفيتش وفهيم ناميتاك في ١٩٨٣م، عندما أصدرا بعض مؤلفات حسن كافي الاقحصاري مع دراسة عنه[1]. وفي هذا السياق فقد كان من أواخر ما أصدره المعهد في ٢٠٠٨م، كتاب «مراد نامه لدرويش باشا بايزيد أغيتش: موضوع الحب في أدب التصوف» لعدنان كادريتش، الذي يتضمن أول ترجمة بوسنوية لأهم عمل للشاعر البوسنوي درويش باشا، حيث لدينا هنا ترجمة تركية معروفة لـ «سخا نامه» للشاعر الفارسي مولانا بنائي قُدّمت للسلطان مراد الثالث[2].

وفي هذا السياق لدينا تطور جديد يتمثل بتوجه بعض الباحثين للتعريف بهذا التراث الشرقي للبوسنة ضمن دراسات مونوغرافية. وهكذا فقد أصدر عامر ليوبوفيتش وسليمان غروزدانيتش كتابهما المرجعي «الأدب النثري للبوسنة والهرسك باللغات الشرقية» في ١٩٩٥م، حيث عرّفا فيه بـ ١٦٠ مؤلفا في اللغات الشرقية لـ ٦٠ كاتبا من البوسنة في مختلف المجالات (علوم الدين، علوم اللغة والأدب، التاريخ وأدب الرحلات إلخ)[3].

ومع هذا الكتاب المرجعي عن المخطوطات الشرقية للمؤلفين البوسنويين واصل عامر ليوبوفيتش البحث في هذا المجال وأصدر في ١٩٩٦م كتابه «مؤلفات البشانقة باللغة العربية في مجال المنطق» الذي عرّف فيه بعشرة مخطوطات في علم المنطق باللغة العربية لسبعة مؤلفين

---

(1) Hasan Kafi Pruscak, Izabrani spisi, uvod i prijevod Amir Ljubovic i Fehim Nametak, Sarajevo (V.Maslesa) 1983.

(2) Adnan Kadric, Muradnama Dervis - pase Bajezidagica: Objekt ljubavi u tesavuskoj knjizevnosti, Sarajevo (Orijentalni institute) 2008.

وللمزيد عن هذا انظر عرضنا للكتاب في العربية: الحب والتصوف من الأدب الفارسي والتركي إلى البوسنوي، جريدة «العرب»، الدوحة ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٨

(3) Amir Ljubovic- Sulejman Grozdanic, Prozna knjizevnost Bosne i Hercegovina, Srajevo 1995.

بوسنويين (حسن كافي الاقحصاري ومحمد موسى علامك ومصطفى ايوبوفيتش ومحمد الجايناوي وإبراهيم الاقحصاري وفاضل الأوزيتشي ومحمد بن يوسف البوسنوي)[1].

ومع تقديرنا للجهد الكبير الذي بذله الاستشراق البوسنوي في التعريف بالأدب العربي والاعتناء بالمخطوطات الشرقية في البوسنة إلا أنه يمكن القول إن هذه الحصيلة كان يمكن أن تكون أكبر مع وجود اهتمام عربي أكبر من المؤسسات المعنية، وتعاون مشترك بين قسم ومعهد الاستشراق والجهات المعنية بالمخطوطات العربية وتحقيقها.

(1) Amir Ljubovica, Logicka djela Bosnjaka na arapskom jeziku, Sarajevo (Orijentalni institut) 1996.

ملحــق:

ببلوغرافيا
الأدب العربي المترجم في البوسنة

- قصص عربية قديمة، اختارها وترجمها بسيم قرقوت، سراييفو ١٩٦٠م.
- الشعر العربي القديم، مختارات من قصائد الفند الزماني والشنفرى وسعد بن مالك البكري وتأبط شراً والمهلهل وعمرو بن قميئة وامرئ القيس وأبي داود الأيادي وعبيد بن الأبرص والمرقش الأكبر والأفوه الأودي وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم والمرقش الأصغر والحارث بن حلزة والمثقب العبدي والمنخل اليشكري وأوس بن حجر وطفيل الغنوي والنابغة الذبياني وعدي بن زيد وجران العود وعبدالقيس بن خفاف وحاتم الطائي وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وعروة بن الورد وعلقمة بن العبد والخنساء والأعشى ودريد بن الصمة ولبيد بن ربيعة، اختارها وترجمها وقدّم لها: سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٧١م.
- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ترجمة ودراسة: سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٧٩م.
- طه حسين، الأيام، ترجمها وقدم لها: نياز دزداريفيتش، سراييفو ١٩٧٩م.
- فؤاد التكرلي، الوجه الآخر، ترجمة ياسنا سيميتش وذهني أماموفيتش، زغرب ١٩٨٠م.

- الشعر الكويتي المعاصر، مختارات من قصائد فهد العسكر وأحمد العدواني وخالد سعود الزيد ومحمد الفايز وعلي السبتي وخليفة الوقيان ورضا الفيلي وعبدالله العتيبي ويعقوب السبيعي وسليمان الفليح، اختارها وقدم لها محمد موفاكو وترجمها: أسعد دوراكوفيتش، كروشفاتس ١٩٨٢م.
- محمود درويش، قصائد مقاومة، ترجمها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، كروشفاتس ١٩٨٤م.
- الشعر الأردني المعاصر، مختارات من قصائد مصطفى التل وجميل دياب وحسين زيد الكيلاني وحسني فريز وعيسى الناعوري وخالد الساكت وحسين خريس وتيسير سبول وحيدر محمود ومهنا أبو غنيمة وخالد محادين ومحمد القيسي وهايل العجلوني ومحمد سمحان وإبراهيم العجلوني، اختارها وقدم لها: محمد موفاكو، وترجمها: أسعد دوراكوفيتش، كروشفاتس ١٩٨٤م.
- الشعر السوري المعاصر، مختارات من قصائد أورخان ميسر ونزار قباني وأحمد سليمان الأحمد وعلي الجندي ومحمد الماغوط ومحمد عمران وخالد محيي الدين البرادعي وعبدالكريم الناعم وعلي كنعان وعلي سليمان وممدوح عدوان وسهيل إبراهيم وعائشة أرناؤوط وبندر عبد الحميد وفؤاد كحل ورياض الصالح حسين، اختارها وقدم لها: محمد موفاكو، وترجمها: أسعد دوراكوفيتش، كروشفاتس ١٩٨٥م.
- جبران خليل جبران، ثمرات النفس الفواحة، ترجمها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، زغرب ١٩٨٧م.
- جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، ترجمها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، زغرب ١٩٨٧م.
- ألف ليلة وليلة، مختارات من ترجمة بسيم قرقوت وتقديم سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٩٠م.
- جبران خليل جبران، ثمرات النفس الفواحة، ترجمها وقدم لها أسعد دوراكوفيتش، ط٢ زغرب ١٩٩٠م.

- جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، ترجمها وقدم لها أسعد دوراكوفيتش، ط٢ زغرب ١٩٩٠م.
- نجيب محفوظ، بين القصرين، ترجمها وقدم لها: سليمان غروزدانيتش، سراييفو ١٩٩٠م.
- شعر المشرق العربي في القرن العشرين، مختارات من قصائد عبدالوهاب البياتي وجبرا إبراهيم جبرا وبلند الحيدري ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب وهايل العجلوني وإبراهيم العجلوني وجميل دياب وحسني فريز وحسين خريس ومحمد القيسي وحسني زيد الكيلاني وحيدر محمود ومحمد سمحان وتيسير سبول وفهد العسكر ومحمد الفائز ورضا الفيلي وسليمان الفليح وعلي السبتي وأحمد العدواني وعبدالله العتيبي وخليفة الوقيان وخالد حادي وإيليا أبي ماضي وميخائل نعيمة ومعين بسيسو ومحمود درويش وأحمد سليمان الأحمد وعائشة أرناؤوط وخالد محيي الدين البرادعي ورياض الصالح الحسين ونزار قباني وفؤاد كحل وعلي كنعان ومحمد الماغوط وعبدالكريم الناعم وعلي سليمان ومحمد عمران، ترجمها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٤م.
- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ترجمتها وقدمت لها: دليلة دزداريفتش، سراييفو ١٩٩٥م.
- جبرا إبراهيم جبرا، البحث عن وليد مسعود،ترجمها وقـدّم لها: أسعد دوراكوفيتش،

سراييفو ١٩٩٥م.

- طه حسين، الأيام، ترجمة وتقديم: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٨م.
- مؤنس الرزاز، أحياء البحر الميت، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ١٩٩٨م.
- حنان الشيخ، قصة زهرة، ترجمها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٨م.

- قصائد للمجنون قيس بن الملوح وشعراء عرب آخرين، ترجمها: سعيد محمد ماشيتش، وقدم لها: أشرف كوفاتشوفيتش، سراييفو ١٩٩٩م.
- ألف ليلة وليلة، اختارتها وقدمت لها: عادلة بيغوفيتش شبوح، وترجمها: علي بيتيتش، سراييفو ١٩٩٩م.
- ألف ليلة وليلة ١-٤، ترجمة ودراسة: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ١٩٩٩م.
- جبران خليل جبران، مختارات، اختارها وقدم لها: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ٢٠٠٠م.
- نجيب محفوظ، ثرثرة على النيل، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٠م.
- نجيب محفوظ، ليالي ألف ليلة وليلة، ترجمة: محمد كيتسو، ترافنيك ٢٠٠١م.
- أسعد دوراكوفيتش، المعلّقات السبع، ترجمة ودراسة: أسعد دوراكوفيتش، سراييفو ٢٠٠٤م.
- نجيب محفوظ، خان الخليلي، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٥م.
- نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٥م.
- نجيب محفوظ، اللص والكلاب، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٥م.
- نجيب محفوظ، ميرامار، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٥م.
- غسان كنفاني، رجال تحت الشمس، ترجمة منير مويتش، سراييفو ٢٠٠٦م.
- نجيب محفوظ، حضرة المحترم، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٧م.
- نجيب محفوظ، المرايا، ترجمة: محمد كيتسو، سراييفو ٢٠٠٧م.
- محمود درويش، أشواك لانهاية لها، اختيار وتقدم: ميرزا سارايكيتش وخاتمة لأسعد دوراكوفيتش، سراييفو، ٢٠٠٨م.
- البوصيري، قصيدة البردة، ترجمة خليل هارله وأنس كاريتش، سراييفوا ٢٠٠٨م.

- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ترجمة سعاد إسماعيل هوجيتش، سراييفوا ٢٠١٠م.
- عبد العزيز سعود البابطين، بوح البوادي، ترجمة جمال الدين لاتيتش، سراييفوا ٢٠١٠م.
- صلاح عبد الصبور، ليلى والمجنون، ترجمة: منير مويتش، سراييفو ٢٠١٠م.
- بهاء طاهر، الحب في المنفى، ترجمة زهرة علي سباهيتش، سراييفو ٢٠١٠م.
- جمال الغيطاني، الزيني بركات، ترجمة نديم تشاتوفيتش، سراييفو ٢٠١٠م.

من «الاستشراق» إلى «علم الشرق»: ثلاثة إسهامات مهمّة من البلقان

شكّل ظهور كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد في ١٩٧٨م حدثاً علمياً وثقافياً مهما على مستوى العالم[١]، وخاصة في ما يتعلق بالدراسات الشرقية في الغرب والعلاقات بين الشرق والغرب، حتى أصبح العام الذي صدر فيه هذا الكتاب يؤرخ به (ما قبل «الاستشراق»، ومابعد «الاستشراق»). وكان من حسن حظي أنني عايشت صدور هذا الكتاب في وسط مناسب، في أحدث قسم للاستشراق في يوغسلافيا السابقة (جامعة بريشتينا)، الذي افتتح عام ١٩٧٣م بعد قسم الاستشراق في بلغراد (١٩٢٦م) وقسم الاستشراق في سراييفو (١٩٥٠م)، وحمل مزيجاً من مدرسة بلغراد ومدرسة سراييفو[٢]. في ذلك الحين كان القسم يزخر بنخبة من المستشرقين تمثّل يوغسلافيا الآفلة ويوغسلافيا الذاهبة نحو المجهول (حسن كلشي وفتحي مهدي وراده بوجوفيتش وحارث سيلاجيتش وأسعد دوراكوفيتش وغيرهم)، ومن هنا كان التفاعل مع صدور كتاب «الاستشراق» مختلفاً. كان حارث سيلاجيتش أكثرنا انفتاحاً على

(1) Edwaed W.Said, Orientalism, New York (pantheon books) 1978.

(٢) للمزيد عن «مدرسة بلغراد» و«مدرسة سراييفو» والاستشراق بشكل عام في يوغسلافيا السابقة انظر كتابنا: مراجعة الاستشراق: ثنائية الذات/ الآخر - نموذج يوغسلافيا، بيروت (المدار الإسلامي) ٢٠٠٢م، ص٢٠-٢٢.

الغرب بحكم إتقانه للغة الإنكليزية، ولذلك كان أول من قرأ «الاستشراق» في الإنكليزية ومن أوائل من استعرضوه في يوغسلافيا وفي اللغة العربية، حيث نشر عرضاً عنه في مجلة «المعرفة» السورية في شباط ١٩٨١م[1]، أي عشية صدور الترجمة العربية[2]. ولكن روح إدوارد سعيد في «الاستشراق»، وبالتحديد نقده القوي للمركزية الأوروبية، سرعان ما برزت في كتابات أسعد دوراكوفيتش ضد تجليات المركزية الأوروبية في الاستشراق اليوغسلافي (مدرسة بلغراد بالتحديد) التي أسهمت عشية انهيار يوغسلافيا في تعميق الفرز بين «مدرسة بلغراد» و«مدرسة سراييفو» الذي أخذ بعداً فكرياً سياسياً أيضاً[3].

ومع انجرار يوغسلافيا إلى التشظي كان كتاب «الاستشراق» شاهداً على ذلك. فبدلاً من ترجمة واحدة لسوق واحدة كبيرة كانت معنية بمثل هذه الدراسات، تأخرت ترجمات كتاب «الاستشراق» بسبب الأوضاع الصعبة التي سادت في يوغسلافيا بعد وفاة تيتو (١٩٨٠م)، وتتوّجت بسلسلة نزاعات وحروب استمرت حتى ١٩٩٩م، فصدرت الترجمة الأولى في سراييفو خلال ١٩٩٩م، التي أنجزها رشيد حافظوفيتش[4] والثانية في زغرب في العام ذاته

---

(١) حارث سيلاجيتش، مسؤولية الاستشراق: قراءة في كتاب «الاستشراق» للأستاذ إدوارد سعيد، مجلة "المعرفة" عدد ٢٨٨، دمشق ١٩٨١م، ص ٢١٨-٢٢٦.

وقد نشر سيلاجيتش بعده خلال ١٩٨١م عرضين في مجلة «برغلد» Pregled (عدد ٧١، آذار ١٩٨١م) وفي جريدة «كنيجفنا ريتش» Knjizevna Rec (عدد ١٦٢، عام ١٩٨١م).

(٢) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة والإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت (مؤسسة الأبحاث العربية) ١٩٨١م.

(٣) للمزيد انظر كتابنا: مراجعة الاستشراق، ص٣٢-٤٠.

وانظر حول «مدرسة بلغراد» ودورها في الحرب على البوسنة:

Dr. Norman Cigar, The Rol of Serbian Orientalists in Justification of Genocide Against Muslims of the Balkanss, Sarajevo 2000.

(4) Edward Said, Orientalism - Zapadnjacke predodzbe o Orijentu, preveo Resid Hafizovic, Sarajevo (Svjetlost) 1999.

من ترجمة بيليانا روميتش[1] والثالثة في بلغراد عام ٢٠٠٠م من ترجمة درينكا غويكوفيتش[2]، بينما صدرت الترجمة المكدونية التي أنجزها زوران أنتشفسكي في ٢٠٠٢م[3] والألبانية في سكوبيه ٢٠٠٨م بترجمة جواد لوشي[4].

ومن هنا يمكن القول إن تأثير «الاستشراق» بقي محدوداً في المجال اليوغسلافي، سواء بسبب الأوضاع الصعبة التي أعقبت صدوره وصولاً إلى انهيار يوغسلافيا وآخر حرب نجمت عنها (حرب كوسوفو ١٩٩٩م) أو بسبب تأخر الترجمات إلى اللغات الرئيسة (الصربوكرواتية أولاً ثم «اللغات» السائدة: الصربية والكرواتية والبوسنوية). ومع ذلك يمكن الحديث عن ثلاثة إسهامات مهمة استلهمت «الاستشراق» لإدوارد سعيد وأنتجت معرفة جديدة مهمة عن البلقان ترتقي إلى المستوى العالمي، ألا وهي «البلقان المتخيل» لماريا تودوروفا و«بونابرت المسلم» لكاثرين فلمنغ و«علم الشرق» لأسعد دوراكوفيتش.

«البلقان المتخيّل»

تنتمي ماريا تودوروفا (ولدت ١٩٤٩م) إلى جيل حارث سيلاجيتش وأسعد دوراكوفيتش وبقيت مثلهما تدرّس في المنغلق البلقاني (جامعة صوفيا) إلى ١٩٨٨م، إلى أن اشتغلت في جامعات أوروبية وأمريكية وتعرّفت هناك في إطار اهتمامها بالهويات على «الاستشراق» الذي أحدث انقلاباً في مسيرتها الأكاديمية. فقد تأثرت بشكل واضح بكشف إدوارد سعيد في «الاستشراق» عن خلفيات وآليات «تخييل الشرق» أو تكريس «شرق متخيّل» لتقوم بدورها بالكشف عما يوازي ذلك مع «التبلقن» Balkanism لتنشر في ١٩٩٧م كتابها

(1) Eward W.Said, Orijentalizam, prevela Biljana Romic, Zagreb (Konzor) 1999.

(2) Edward W.Said, Orijentalizam, prevela Drinka Gojkovic, Beograd 2000.

(3) Edward W.Said, Orijentalizam, prev.Zoran Ancevski, Skopje 2002.

(4) Edward W.Said, Orientalizm, perktheu Xhevat Llosh, Shkup (Logos) 2008.

«البلقان المتخيّل» الذي شهرها في العالم[١] وجعلها تواصل مسيرتها الأكاديمية مع كتب أخرى مثل «هويات بلقانية» إلخ[٢].

وتعترف تودوروفا في مقدمتها للكتاب أنها لو بقيت في بلغاريا لما تمكّنت من إنجاز مثل هذا الكتاب، الذي ما كان ليكون لولا اطلاعها في الغرب على «الاستشراق»، ولكانت كتبت كغيرها عن القوميات الإثنية في البلقان. ومع اعترافها في المقدمة بـ «الدَّين الثقافي الكبير» الذي تدين به لإدوارد سعيد إلا أنها تعترف أيضا بأنها «نُصحت» بتجنّب «الاصطفاف الثقافي المباشر مع إدوارد سعيد» لكي لا تحمل على كتفها عبء النقد المتزايد لأفكاره. وفي نهاية الأمر تلخّص تودوروفا علاقتها بأدوارد سعيد بأن «تأثيره كان مهما دون شك» عليها، ومع ذلك أو بسبب ذلك سعت إلى أن تميّز نفسها عن إدوارد سعيد وتقدّم مقاربتها الخاصة عن «التبلقن» التي استفادت فيها كثيراً من مقاربة سعيد لـ«الاستشراق».

وكانت ميليتسا باكيتش- هايدن في دراستها «الاستشراق: حالة يوغسلافيا السابقة» التي نشرت في ١٩٩٥م[٣] قد سبقت تودورفا في دراسة العلاقة بين «التبلقن» و«الاستشراق» منطلقة من أنه هناك أكثر من استشراق أو من «سيطرة استشراقات»، وأن الخطاب الغربي عن البلقان هو مجرد «شكل آخر من الاستشراق» لأن «ما يجعل التبلقن والاستشراق وجهين لنوع واحد هو إعادة إنتاج المنطق الذي يشكّل الأساس المشترك لهما». ولكن تودوروفا، وهي ترفض التصور المسبق عن وجود بلقان واحد وشرق واحد وغرب واحد، تقرّ

---

(1) Maria Todorova, Imagining the Balkans, Oxford (Oxford Yniversity Press) 1997.

وقد صدرت الترجمة الصربية له بعد سنتين:

Marija Todorova, Imaginarni Balkan, preveli Dragana Stracevic i Alekasandra Bajazetov- Vucen, Beograd (XX vek) 1999.

(2) Maria Torodrova, Balkan Identities: Nation and Memory, London (C.Hurst & Co.Publishers) 2004.

(3) Milica Bakic- Hayden, «Nesting orientalism: the Case of Former Yugoslavia», Slavic review 54, 1995, pp.917 - 931.

بوجود ما هو مشترك في الخطاب الغربي عن البلقان والشرق: خلق وتكريس صورة متخيّلة وملفّقة لخدمة أجندة معينة. وهكذا تحلّل تودوروفا في كتابها أسس «تخيّل البلقان» كما بدا خلال الحروب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣م، وإلى ما انتهى إليه «البلقان المتخيّل» مع حروب يوغسلافيا السابقة ١٩٩٢-١٩٩٥م مع تكريس صورة تبرّر ما يحدث هناك باعتباره يعبّر عن «الآخر» (البلقان) المختلف عن أوروبا/ الغرب كما يعبّر عن تعاطي أوروبا/ الغرب مع ذلك «الآخر» المختلف (البلقان).

صحيح أن الحروب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣م، كما تقول تودوروفا، أفرزت مصطلح «البلقنة» Balkanization الذي يعني تقسيم الدول الكبيرة إلى كيانات، ولكن تعاطي الغرب آنذاك كان مختلفاً عن تعاطيه مع حروب يوغسلافيا. فقد ظهرت فوراً في الغرب مبادرات لإحلال السلام في البلقان، ومن أهمها ما بادرت إليه مؤسسة كارنيجي لإرسال لجنة من شخصيات معروفة إلى البلقان في ١٩١٣م، لزيارة المنطقة ووضع تقرير عن أسباب الحروب وسبل إحلال السلام، وهو ما نشر في ١٩١٤م. ولكن مع اندلاع حروب يوغسلافيا ١٩٩٢-١٩٩٥م، وضمن ذلك الحرب على البوسنة التي كانت أكثر مأساوية، وتردّد الغرب في التدخل لوضع حد لأكبر مجازر ترتكب بحق المسلمين في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية، كان من اللافت للنظر أن مؤسسة كارنيجي قد اكتفت في ١٩٩٣م بإعادة إصدار تقرير ١٩١٤م مع مقدمة جديدة للدبلوماسي الأمريكي المعروف جورج كنان G.Kenan، سفير الولايات المتحدة السابق في موسكو وبلغراد وأحد رموز الحرب الباردة (صاحب مقاربة «الاحتواء»)[1].

---

(1) The Other Balkan Wars- A 1913 Carnegie Endowment Inguiry in etrospect with e New Inttroduction and reflections on the Present conflict by George Kennan,Washington 2007.

وللمزيد عن جورج كنان بمناسبة صدور مذكراته عن سنوات خدمته في بلغراد انظر مقالنا: درس دبلوماسي من بلغراد، جريدة "المستقبل"، بيروت ١/ ١٠/ ٢٠١١م.

وحسب تودوروفا فإن مقدمة كنان (الذي أصبح يعتبر خبيراً في الشرق بحكم خدمته الدبلوماسية) كانت ترسّخ الصورة المسبقة أو المتخيلة عن البلقان «الآخر» والمختلف عن الغرب، التي لم تعد فيها «البلقنة» تعبيراً عن تقسيم الدول الكبيرة بل أصبحت تعبّر أيضاً عن العودة إلى الحالة البدائية والمتخلّفة والبربرية التي يسهل فيها تبرير القتل والمجازر. وبالاستناد إلى تكريس مثل هذه الصورة المتخيلة عن البلقان، كما تضيف تودوروفا، أصبح بوسع الكتّاب الصحفيين في الغرب أن يستخلصوا من النتائج ما يكفي مثل أن «فكرة قتل الناس لأمر حدث في ١٤٩٥م غير واردة في الغرب ولكنها واردة في البلقان». وبعبارة أخرى يصبح العنف والقتل الجماعي «ميزة» للبلقان والشرق، بينما تذكّر تودوروفا جورج كنان أن دولته قتلت خلال ٧٠ يوماً في حرب الخليج ١٩٩١م نصف ماقتل في كل الحروب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣م[1].

«بونابرت المسلم»

بالمقارنة مع تودوروفا البلغارية التي توصلت إلى «الاستشراق» خلال عملها في الغرب فإن كاثرين فلمنغ الأمريكية (أستاذة التاريخ في جامعة نيويورك) في كتابها «بونابرت المسلم» الصادر في ١٩٩٩م[2] كشفت عن مدى صدقية «الاستشراق» بالنسبة إلى البلقان، أو استفادت من كتاب إدوارد سعيد في تطبيقه على حالة بلقانية محرجة للغرب: حالة الوالي الألباني علي باشا الذي حكم

(1) Todorova, Imaginig the Balkans, p.18.

(2) Katherine E.Fleming, The Myslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece, Priceton (Princeton University Press) 1999.

ولم يترجم هذا الكتاب إلا إلى الألبانية نظراً لاهتمام الألبان بصورة علي باشا.

Katherine E.Fleming, Bonaparti Mysliman: Diplomacia dhe orientalizmi ne Greqine e Ali pashes, per.Venera Domi, Tirane (Dituria) 2003.

وفي ما يتعلق باللغات الأخرى فقد ترجمت لاحقاً دراستها «الاستشراق، البلقان وعلم التأريخ» التي نشرتها عام ٢٠٠٠م في «المجلة التاريخية الأمريكية» إلى اللغة الصربية في مجلة «الفلسفة والمجتمع» التي تصدر في بلغراد:

Kathryn E.Fleming, «Orientalizam, Balkan i balkanska istoriografija», Filozofijai drustvo XVIII, Beograd 2005, pp.11 - 31.

«باشوية يانينا» التي كانت تغطي تقريباً اليونان القارية خلال ١٧٨٧-١٨٢٠م وتمرّد لا على الباب العالي ساعياً إلى بناء كيان حديث يستلهم فيه الغرب، ولكن الغرب رفضه نتيجة لصورة متخيلة عن البلقان والشرق تخدم أجندة أخرى.

في مقدمة كتابها يبدو بوضوح «انحياز» فلمنغ إلى إدوارد سعيد في «الاستشراق»، بالمقارنة مع تودوروفا التي اعترفت بتأثيره وحرصت على الإبقاء على مسافة بينها وبين سعيد و«الاستشراق»، فإنّ فلمنغ تقول إن الاستشراق كما شرّحه إدوارد سعيد يصبح في حالة علي باشا «المظلوم» تعبيراً عن حالة إمبريالية وثقافية وإلى حد ما سياسية: تعبيراً عن شكل جديد للسيطرة على التاريخ والإيديولوجيا. وتعترف فلمنغ بصراحة أن المؤرخين من جيلها أصبحوا لا يميلون إلى الاعتماد على الأدبيات الاستشراقية بعدما عرّاها إدوارد سعيد باعتبارها «تهدف إلى رسم صورة معينة عن الشعوب غير الغربية»[1].

وتنطلق فلمنغ من أن البلقان حتى ذلك الحين كان يعتبر جزءاً من الشرق المتخيل أو الجسر الجغرافي والاقتصادي والثقافي بين أوروبا الغربية والدولة العثمانية، وبالتالي فإن باشوية أو «دولة» علي باشا كانت تمتد في الجزء المهم المجاور للغرب: من ألبانيا الجنوبية إلى ضواحي أثينا.

وبعبارة أخرى فقد أصبح علي باشا الألباني، أو الأوروبي المسلم، أقرب «جار» إلى أوروبا الغربية التي حرصت على تعيين قناصل لها في عاصمته يانينا، وهو ما حرص عليه علي باشا لتعزيز تمرّده أو استقلاله عن السلطان العثماني. كان تمرد علي باشا على السلطان مهماً للدول الأوروبية المتحيّرة في تعاملها مع الدولة العثمانية (ما بين خيار الإجهاز عليها وخيار تأجيل تقسيمها) وكان من المفترض بالدول الأوروبية دعم كيان علي باشا الذي يستلهم التقدم الأوروبي، ولكن ظهوره في تلك المنطقة الحسّاسة تصادف مع بروز النزعة الفيلوهيلينية بعد تحول وجهة السفر من إيطاليا إلى اليونان القديمة باعتبارها مهد الحضارة الأوروبية.

---

(1) Fleming, The Myslim Bonaparte, p.26.

وهكذا مع سيل الكتابات الاستشراقية عن علي باشا تشكّلت في الغرب صورة أخرى تخدم المشروع الإحيائي للفيلوهلينية وليس المشروع التحديثي لأوروبي مسلم: صورة الشرقي المستبّد والغارق في القسوة والشهوات الجنسية مع النساء (حريم مؤلف من ٥٠٠ امرأة) والأولاد، وليس صورة المتمرّد على حكم السلطان والراغب في التحديث على النمط الأوروبي والمتسامح مع الأديان إلخ. وفي الواقع تشكّلت هذه الصورة الأحادية المغرضة عن علي باشا مع تشكل صورة أخرى غير دقيقة عن المنطقة التي كان يحكمها (أسطورة اليونان) باعتبارها أصل الحضارة الأوروبية والتي لا يزال الحضور اليوناني متواصلاً وقائماً فيها. ومن هنا كان ظهور علي باشا في هذه المنطقة بالذات بمشروعه الاستقلالي والتحديثي يربك الصورة الجديدة عن «أسطورة اليونان» ويجعل أوروبا أمام خيارين أو تاريخين كما تقول فلمنغ:

١- الخيار أو التاريخ الدبلوماسي (يعتمد على الصورة الواقعية) الذي كان يفترض دعم أوروبا الغربية لمشروع علي باشا للاستقلال عن الدولة العثمانية وتأسيس كيان حديث مختلف في البلقان/ الشرق عن النموذج العثماني الموجود (مختلط إثنياً بكونه يضم الألبان واليونان ومتسامح دينياً) ويمكن أن يندمج تدريجياً في أوروبا.

٢- الخيار أو التاريخ الثقافي (الصورة المتخيلة) الذي يخدم المشروع الفيلوهيليني لإعادة بعث اليونان لإثبات التواصل التاريخي بين اليونان القديمة مهد الحضارة الأوروبية واليونان الحديثة التي يجب دعم استقلالها بالقوة عن الدولة العثمانية.

وبعبارة أخرى ترى فلمنغ هنا وجود تضارب بين الخيار/ التاريخ الدبلوماسي الواقعي وبين الخيار/ التاريخ الاستشراقي غير الواقعي الذي يمهّد للسيطرة على المنطقة: فمع النزعة الفيلوهيلينية/ الاستشراقية برزت الرغبة أو الشهوة بامتلاك البلقان أو انتزاع البلقان من الدولة العثمانية لكي يتحقق فيه التواصل التاريخي المزعوم بين اليونان القديمة واليونان الحديثة، ولأجل ذلك كان لا بد من التضحية بعلي باشا الذي تعتبره فلمنغ «مظلوما» سواء من طرف المؤرخين الأوروبيين أو الأتراك الحاليين[1].

---

(1) Ibid., pp.16 - 21.

بالمقارنة مع تودوروفا وفلمنغ اللتين جاءتا «الاستشراق» من أقسام التاريخ، فإن أسعد دوراكوفيتش يتميّز بكونه حصيلة الاستشراق في يوغسلافيا السابقة، حيث إنه تخرّج من قسم الاستشراق في بلغراد عام ١٩٧٦م، وعمل في قسم الاستشراق في بريشتينا (١٩٧٦-١٩٩١م)، وانتقل الى «معهد الدراسات الشرقية» في سراييفو (١٩٩١-١٩٩٤م)، ثم إلى قسم الاستشراق في جامعة سراييفو حيث لا يزال يعمل هناك. ومن ناحية أخرى فقد برز دوراكوفيتش على مستوى الاستشراق في يوغسلافيا السابقة بكتابته النقدية ضد النزعة المركزية الأوروبية وتجلياتها في الاستشراق اليوغسلافي (مدرسة بلغراد)، التي اعتمد فيها آنذاك على أطروحات إدوارد سعيد، بالإضافة إلى مؤلفاته المرجعية وترجماته الرائدة لعيون الأدب العربي من امرئ القيس إلى جبرا إبراهيم جبرا ومحمود درويش[1]. وفي هذا السياق نرى أن كتابه «علم الشرق: العالم الخاص بالنص المقدّس»[2] من أهم ما صدر في المجال اليوغسلافي السابق منذ «الاستشراق»، وخاصة بعدما أن ترجم إلى الإنكليزية والعربية أيضاً وأصبح في متناول اليد ضمن المثلث الأكاديمي البلقاني- الغربي- العربي.

وفي الحقيقة يمكن القول إن هذا الكتاب المهم، الذي يشتمل على جانبين نظري وتطبيقي، إنما تعود نواته إلى دراسته «الاستشراق: مشكلات المنهج والمسميات» التي نشرها في عام ٢٠٠٠م[3]، والتي كانت خلاصة تجربته في التحرّر من «الاستشراق» المعبّر عن المركزية الأوروبية في التعاطي مع العالم وفي التطلّع إلى بديل مناسب في الاسم والمنهج، وهو ما وصل إليه في ٢٠٠٧م

(١) للمزيد عن مؤلفاته وترجماته انظر مقدمة المترجم لآخر ما صدر له في العربية:
أسعد دوراكوفيتش، دراسات في أدب البوسنة والهرسك وفي الأدب العربي، ترجمة وتقديم: جمال الدين سيد محمد، القاهرة (المركز القومي للترجمة) ٢٠١١م، ص٢١-٣٣.

(2) Esad Durakovic, Orijentologija - Univerzu sakralnog teksta, Sarajevo (Tugra) 2007.

(3) Esad Durakovic, ‹Orijentalistka-problemi metodologije I nominiranja›, Znakovi vremena 910-, Sarajevo 2000, pp.275 - 294.

مع «علم الشرق». فمع هذا المصطلح، الذي استقرّ عليه بديلاً لـ«الأورينتايزم» و«الأورينتاليستيكا» و«الدراسات الشرقية»، أراد دوراكوفيتش أن يعيد الاعتبار إلى العلم وإلى التعاطي مع الموضوع (الأدب العربي) من الداخل.

في الجانب النظري أو التنظيري للكتاب، الذي يرد ضمن عدة صفحات في المدخل، ينطلق دوراكوفيتش من أن حصيلة عمله خلال ثلاثة عقود في دراسة الأدب العربي جعلته مستاء من التعاطي الفيلولوجي/ الخارجي مع هذا الأدب، الذي يشترك فيه الدارسون العرب والمستشرقون الأوروبيون، وهو ما جعله يبحث عن تناول هذا الأدب من الداخل/ الإبداع. وفي هذا السياق يحمل دوراكوفيتش المسؤولية إلى الاستشراق Orientalism والدراسات الشرقية Oriental Studies التي يعتبرها «ملوّثة إيديولوجيا»، ويترك للقارئ أن يلمح تأثير إدوارد سعيد هنا، ويقترح مصطلحاً بديلاً «لا مركزي أوروبي في مقاربة هذا الحقل من البحث»: علم الشرق[1].

وباستثناء «المدخل» الذي يشمل هذا الجانب النظري المباشر يمثّل الكتاب نتاجاً أصيلاً لهذه المقاربة التي أرادها دوراكوفيتش أن تكون نموذجاً لـ«علم الشرق» وليس لـ «الاستشراق». فدوراكوفيتش ينطلق من أن المشكلة الأساسية في تناول الأدب العربي سواء من العرب أو المستشرقين كانت في مقاربتهم الفيلولوجية له، التي أفادت دون شك في توضيح الكثير من جوانبه اللغوية وتوضيحها، بينما أنهم يهتموا بالمقاربة الإبداعية له من الداخل. وبعبارة أخرى كان لابد من الاهتمام بقيمه الفنية وتواصلها عبر العصور بتواصل قيمه الإبداعية بدلاً من تقسيم مصطنع لهذا الأدب إلى عهود حسب الأسر الحاكمة. وبالاستناد إلى ذلك ينتهي دوراكوفيتش إلى نتيجتين مهمتين قد تبدوان مختلفتين للوهلة الأولى:

١- أن مهد الأدب العربي هو عصره القديم أو ما يدعى «الأدب الجاهلي»، وأن هذا العصر القديم أثّر في الأدب العربي لاحقاً بطريقة

---

(١) د.أسعد دوراكوفيتش، علم الشرق، ترجمة: عدنان حسن، الكويت (مؤسسة البابطين) ٢٠١٠م، ص٦.

مشابهة لكيفية تأثير الأدب اليوناني القديم في ما أصبح يعرف بالأدب الأوروبي.

٢- النص القرآني هو النص المحوري أو القطبي للأدب العربي الذي بقي يقوم بدوره هذا عبر مئات السنين من تطور الأدب العربي، حتى إن كل الأدب «ما بعد القرآني» وخصوصاً الشعر صار يُعرّف وفقاً له.

ولكن مثل هذا الكتاب المهم، الذي لم تكن ترجمته إلى العربية بالأمر السهل، يحتاج إلى تفاعل أوسع معه من قبل النقّاد والأكاديميين في الجامعات العربية الذين اعتادوا لعقود على تدريس الأدب العربي على نمط واحد انتقده بحق دوراكوفيتش في كتابه هذا. فالطبعة العربية الأولى (الكويت ٢٠١٠م) على أهميتها صدرت بكمية محدودة (٥٠٠ نسخة) وهي لا تتوافر في المكتبات الجامعية ولا تباع في المكتبات نظراً لأنها صدرت عن مؤسسة غير ربحية (مؤسسة البابطين). ومن هنا يبدو من المفيد إصدار طبعة جديدة من «علم الشرق»، بعد تلافي الهنات في الترجمة هنا وهناك، وعقد أكثر من حلقة نقاشية حوله في الجامعات العربية حتى يتم التفاعل المطلوب ويتحقق المراد بتخطي التصورات المسبقة والقوالب الجامدة في دراسة وتدريس الأدب العربي.

القسم الثالث

مؤسسـات وشخصيات

قسم الاستشراق في بلغراد
سبق في التأسيس على مستوى البلقان
وتوسّع متواصل باتجاه الشرق

كانت بلغراد حتى مطلع القرن التاسع عشر كما رأينا تسمى «بوابة الشرق» نظراً لأن الرحالة القادمين من أوروبا الوسطى والغربية كانوا يشعرون بمجرد دخولهم إلى بلغراد أنهم قد عبروا الحد الفاصل بين الغرب والشرق. ولا عجب في ذلك لأن بلغراد، بالإضافة الى مشهدها الشرقي العام، كانت تعتبر من مراكز الثقافة الإسلامية في البلقان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولكن مع استقلال صربيا عن الدولة العثمانية في ١٨٧٨م، فُهم التحرر عن الدولة العثمانية على أنه تحرر من «الشرق» (مع ما كان يعني ذلك من التخلص من المنشآت العمرانية الثقافية والتخلّص من المسلمين الموجودين في صربيا) و"التحاق» بالغرب أو «الأوروبة» بتعبير ذلك الوقت.

ولكن مع الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣م ومع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، توسّعت صربيا من جديد على حساب التركة العثمانية (مكدونيا وكوسوفا والسنجق والبوسنة) مما جعل حدود الدولة الجديدة (يوغسلافيا) تجمع من جديد الشرق مع الغرب. وفي هذا السياق عاد إلى الدولة الجديدة الشاب البوسنوي فهيم بايراكتاروفيتش الذي كان قد درس الاستشراق في فيينا وتخصص في بريطانيا (١٩١٩م) والجزائر (١٩٢٢-١٩٢٤م) مع أعلام المستشرقين الأوروبيين في ذلك الوقت، حيث قُدّر له أن يشتهر بسرعة كـ"رائد الاستشراق العلمي» في يوغسلافيا الجديدة.

وفي الواقع إن الاهتمام باللغات الشرقية في صربيا حتى ١٩١٨م، كان ينحصر في اللغة التركية/ العثمانية، بينما كان الاهتمام بالآداب الشرقية ينحصر في جامعة بلغراد ضمن مادة «الأدب العالمي» التي كان يدرّسها د.بوغدان بوبوفيتش B.Popovic في قسم الآداب المقارنة، حيث كان يتطرق بإيجاز إلى الآداب الفارسية والعربية والتركية. ولكن الفضل يعود إليه باقتراح تخصيص مادة مستقلة للآداب الشرقية، وهو ما أدى إلى تعيين فهيم بايراكتاروفيتش مدرساً في هذا القسم في العام الجامعي ١٩٢٥-١٩٢٦م. وفي الواقع لقد بدأ بايراكتاروفيتش بتدريس الأدب الفارسي، الذي جذبه أكثر واشتغل فيه دراسة وترجمة. ومن هذه النواة تمّ، تأسيس قسم مستقل للاستشراق في العام الدراسي اللاحق ١٩٢٦-١٩٢٧م.

ولا بد من القول إن تعبير «قسم» هنا يحمل بعض المبالغة على الرغم مما فيه من ريادة على مستوى البلقان (أول قسم من نوعه)، وهو ما جعل الجامعة تحتفي بالذكرى الـ ٧٥ لتأسيسه. فقد بقي طيلة يوغسلافيا الملكية (١٩١٨-١٩٤١م) يقتصر على أستاذ واحد (ف.بايراكتاروفيتش) وغرفة واحدة فقط للمحاضرات وعدد محدود جداً من الطلاب. وهكذا تخرّج في هذا «القسم» طيلة وجوده في يوغسلافيا الملكية حوالى عشرة طلاب فقط، ومعظم هؤلاء كانوا من المسلمين (البشانقة والألبان) الذين تعلموا العربية والتركية في المدارس الشرعية في سراييفو وسكوبيه. ولاشك في أن عدم الإقبال على مثل هذا «القسم» يعود إلى عدم الاهتمام بالشرق الذي ميّز يوغسلافيا الملكية. وفي ما يتعلق بالمواد التي كان يدرسها الطلاب في القسم فقد كانت تقتصر على مدخل إلى الفيلولوجيا الشرقية واللغة العربية واللغة التركية والأدب الفارسي، بالإضافة إلى علم العروض والوثائق العثمانية من حين إلى آخر.

وقد تأثر «القسم» بطبيعة الحال بانهيار يوغسلافيا الملكية في ١٩٤١م، ولكنه نهض من جديد في ١٩٤٥م، مع يوغسلافيا الجمهورية التي كانت تمثّل قطيعة مع الماضي، بل يمكن القول إن تلك السنوات شهدت التأسيس الجديد له. ولا شك أن هذا يعود فيما يعود إلى سياسة الانفتاح على الشرق التي ميّزت

يوغسلافيا التيتوية. وهكذا تزايد الإقبال على هذا القسم حتى ارتفع عدد الطلاب في العام الدراسي ١٩٥١-١٩٥٢م إلى قريب من ٦٠ طالباً. ومع هذا الإقبال المتزايد توسع «الكادر» التدريسي في القسم، حيث انضم للعمل في ١٩٥٢م خريجان متميّزان هما ماريا جوكانوفيتش M.Djukanovic وحسن كلشي H.Kaleshi، اللذان سيصبحان فيما بعد من أعلام الاستشراق في يوغسلافيا. وفي هذا الوقت (في العام الدراسي ١٩٥٢-١٩٥٤م) توسع القسم حيث انتقل إلى مكان جديد يضم قاعتين للمحاضرات وغرفة للمطالعة/ نواة المكتبة اللاحقة للقسم.

وخلال الخمسينيات، مع توسع علاقات يوغسلافيا مع العالم العربي/ الإسلامي، شهد القسم مزيداً من التطور. ففي العام الدراسي ١٩٥٥-١٩٥٦م انضمت إليه مدرّستان جديدتان، عذراء محمد باشيش يفتيتش (للغة العربية) ولوبينكا رايكوفيتش (للغة التركية)، كما انضم إليه في ١٩٥٩م سلافيوليوب جينجيتش (للغة التركية) وأول محاضر عربي من مصر (كامل البوهي). ومن ناحية أخرى، فقد نوقشت في القسم في ١٩٥٦م أول رسالة دكتوراة (رسالة ماريا جوكانوفيتش «السيرة الذاتية المسجعة لفرفالي علي باشا») ونوقشت في ١٩٦٠م الرسالة الثانية (رسالة حسن كلشي «أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في مكدونيا»).

وفي منتصف الخمسينيات (العام الدراسي ١٩٥٥-١٩٥٦م) طرأ تطور جديد على القسم مع تعيين د. دوشان غلوماتس المتخصص في الدراسات العبرية. فقد تمّ تقسيم القسم الأول إلى فرعين، فرع (أ) الذي بقي على ما هو عليه (مدخل إلى الفيلولوجيا الشرقية مع التركيز على اللغتين العربية والتركية والأدب الفارسي) والفرع (ب) الذي أصبح يتضمن اللغة العبرية وآدابها مع دراسة اللغة العربية والآثار الشرقية كمواد مساعدة. ومن المثير أن هذا الفرع (ب) لم يسجل فيه أي طالب حتى إغلاقه في ١٩٦٠م، في الوقت الذي كان يتصاعد فيه الإقبال على الفرع (أ)، وفي هذا دلالة كبيرة على المناخ العام الذي كان يميّز يوغسلافيا في ذلك الوقت.

وهكذا مع الإقبال المتزايد على الفرع (أ) توسع الكادر من جديد في العام الدراسي ١٩٦١/ ١٩٦٢م، مع تعيين ميلان بوبوفيتش (للغة العربية) ومحاضر عربي آخر (زاهد العزي) ومحاضر عربي ثالث في ١٩٦٢م (سيد عبد العليم). وخلال هذه السنوات بدأ وضع ونشر الكتب المنهجية للطلاب، حيث نشر بايراكتاروفيتش في ١٩٦٢م «أسس النحو التركي» بينما نشرت محاضراته «في الأدب الفارسي» بعد وفاته في ١٩٧٠م.

ويمكن القول إن السبعينيات قد شهدت طفرة كبيرة في تطور القسم. ففي هذه السنوات انضم للعمل في القسم عدد من الخريجين الذين سيصبحون لاحقاً (في الثمانينيات والتسعينيات) من المستشرقين المعروفين في يوغسلافيا وخارجها كميلان أداموفيتش وراده بوجوفيتش وداركو تاناسكوفيتش وفويسلاف سيميتش. ومع هذا الجيل بالذات ستشهد الدراسات العربية/ الإسلامية وخاصة ترجمة الأدب العربي، طفرة في الكم والنوع.

ومن ناحية أخرى فقد شهدت تلك السنوات توسعاً جديداً للقسم باتجاه الشرق الأقصى. ففي العام الدراسي ١٩٧٤-١٩٧٥م، تأسس كرسي للدراسات الصينية، الذي تحول في ١٩٨٥م إلى فرع للغة الصينية وآدابها. وقد حظي هذا الكرسي/ الفرع باهتمام كبير من الصين، إذ أرسلت له حوالى أربعين محاضراً وأستاذاً منذ تأسيسه وحتى الآن. وبعد سنتين (العام الدراسي ١٩٧٦- ١٩٧٧م) أسس كرسي للغة اليابانية وآدابها، بينما أسس في العام الدراسي ١٩٩٥-١٩٩٦م كرسي اللغة العبرية وآدابها. وبهذه المناسبة استضاف القسم في ذلك العام المؤتمر العالمي التاسع للباحثين الأوروبيين في الدراسات العبرية.

وعلى الرغم من الريادة التي كانت لهذا القسم على المستوى البلقاني أو اليوغسلافي، إلا أن القسم لم يعد وحده في يوغسلافيا الجمهورية التي كرست سياسة الانفتاح على الشرق. فقد تأسس في ١٩٥٠م قسم الاستشراق في سراييفو، كما تأسس في العام ذاته معهد الاستشراق في سراييفو الذي بقي الوحيد من نوعه في يوغسلافيا، بينما تأسس القسم الثالث للاستشراق في بريشتينا في ١٩٧٣م. ومع أن هذه المراكز الاستشراقية الجديدة تأسست

في معظمها بكوادر تخرجت في قسم الاستشراق في بلغراد إلا أن الظروف السياسية في يوغسلافيا التيتوية سمحت بنوع من التمايز بين هذه المراكز. ومع تفاقم الوضع في يوغسلافيا بعد موت تيتو في ١٩٨٠م، كان من الملاحظ أن بعض المستشرقين في يوغسلافيا، انجرّوا لخدمة النظام الجديد في صربيا (نظام ميلوشيفيتش) ولعبوا دوراً في التحضير للحرب في البوسنة والتبرير لها فيما بعد، وهو ما كرس له المستشرق الأمريكي نورمان تسيغر كتابه «دور المستشرقين الصرب في تبرير الإفناء الجماعي للمسلمين في البلقان»[1].

وإذا تركنا الأمر أخيراً للمستشرقة الصربية أنجيلكا متروفيتش، التي انضمت للقسم في ١٩٨٣م، وتخصصت في تاريخ الاستشراق واللغة العربية المعاصرة، لوجدناها تعبّر عن مسيرة القسم خلال ٧٥ سنة بجملة واحدة إذ تقول: «على الرغم من الظروف المواتية إلا أن الاستشراق اليوغسلافي لم يتمكن بعد من بلورة ملامحه الخاصة وتكوين مدرسته الاستشراقية التي تميزه سواء على الصعيد الأوروبي أو على الصعيد العالمي[2].

---

(1) Norman Cigar,Uloga srpskih orijentalista u opravdanju genocida na Muslimanima Balkana-The Role of Serbian Orientalists in Justification of genocide Against Muslims of the Balkan, Sarajevo 2000.

(2) Slobodan Grubacic (Urednik), Orijentalistika 70, Beograd (Filoloski fakultet) 1997, p.9.

معهد الاستشراق في سراييفو:
٦٥ سنة من التمايز والعطاء

بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس معهد الاستشراق في سراييفو أصدر المعهد في عام ٢٠٠٠م كتاباً مرجعياً بعنوان «معهد الاستشراق في سراييفو ١٩٥٠-٢٠٠٠م». ومع هذا الكتاب لا يملك المرء إلا أن يشعر بالاعتزاز والحزن في آن معاً. أما مصدر الاعتزاز فهو الإنجازات الكبيرة التي حققها معهد الاستشراق في سراييفو خلال خمسين سنة من وجوده، والتي جعلته يتمتع بالاحترام على مستوى البلقان وأوروبا بشكل عام. وأما مصدر الحزن فهو المصير المأساوي الذي تعرّض له المعهد في ١٩٩٢م، والذي يستحق أن يدخل في التاريخ الأسود.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المعهد قد تأسّس في ظروف مختلفة، وبدوافع مختلفة، عما كان عليه الأمر مع تأسيس أول قسم للاستشراق في بلغراد خلال ١٩٢٦م، فقد تأسست يوغسلافيا حينئذ (١٩١٨م) من عدة أطراف غير متجانسة من الناحية الثقافية/ التاريخية: من الصرب الأرثوذكس الذين ينتمون إلى الثقافة البيزنطية/ الشرقية ومن الكروات والسلوفيين الكاثوليك الذين ينتمون إلى ثقافة أوروبا الوسطى ومن البشانقة والألبان والأتراك المسلمين الذين كانوا تحت تأثير الثقافة العثمانية/ الإسلامية التي استمرت بقوة حتى ذلك الحين (١٩١٢م). ومن هنا فقد جاء تأسيس أول قسم للاستشراق في بلغراد، كما في بقية المراكز الأوروبية ليساهم في التعرّف على الآخر/ الشرق بمفهومه الواسع.

ومع قيام جمهورية يوغسلافيا الجديدة، التي أصبحت فيها البوسنة جمهورية فدرالية تعبيراً عن خصوصيتها، تأسس في ١٩٥٠م معهد الاستشراق في سراييفو لدراسة الذات وليس الآخر. فقد أصبحت الأجيال الجديدة في البوسنة منقطعة عن تراثها السابق نظراً لأنه كان يكتب إما في البوسنوية بحروف عربية أو باللغات الشرقية التي انتشرت في البوسنة خلال الحكم العثماني الطويل (العربية والتركية والفارسية). ومن هنا فقد حدّد المعهد لنفسه أهدافاً كانت تختلف عن أي معهد استشراق آخر في المنطقة، وكان له دوره في إبراز الخصوصية البوسنوية، ولذلك انتهى به الأمر إلى المصير المأساوي الذي تعرّض له.

ولا شك أن مثل هذا الكتاب قد جاء في وقته ليكشف عن كل هذه الظروف والإنجازات والمأساة المدمّرة التي لحقت به في ١٩٩٢م، وفشلت في أن تقضي عليه.

وهكذا يستعرض القسم الأول للكتاب، الذي كتبته المديرة الحالية للمعهد د.بهيّة زلاتار B.Zlatar، ظروف تأسيس المعهد والمهام التي كلف بها (جمع ونشر المخطوطات الشرقية والوثائق المتعلقة بتاريخ البوسنة، دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية وآدابها وتأثيرها في اللغة البوسنوية وثقافتها، دراسة ثقافة البوسنة في اللغات الشرقية، دراسة الفن الشرقي في البوسنة إلخ) مما يجعلها تنتهي إلى أن «دراسة الاستشراق، كما يُفهم لدينا، إنما هي دراسة تراثنا الثقافي والتاريخ الثقافي للبوسنة والبلقان بشكل عام خلال الحكم العثماني». وتستعرض د. زلاتار بعد ذلك أهم أنشطة وإنجازات المعهد وخاصة في مجال الندوات التي نظمها أو شارك بتنظيمها مثل ندوة «حول الثقافة العربية الإسلامية» في ١٩٧٢م، و«المؤتمر الدولي الثالث للدراسات قبل العثمانية » في ١٩٧٨م وندوة «الأدب البوسنوي» في اللغات الشرقية » في ١٩٨٩م.

وندوة «انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية في البوسنة» في ١٩٩١م وغيرها.

أما القسم الثاني من الكتاب فيحمل عنوان «تدمير معهد الاستشراق خلال العدوان على البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥م» لـ د.ليلى غازيتش L.Gazic الباحثة في

المعهد، حيث تستعرض فيه أولاً مقتنيات المعهد والنادرة التي شهرته على مستوى البلقان وأوروبا. فقد كان المعهد يحتوي على ٥٢٦٣ مخطوطة في اللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية). ومنها رسالة في الفقه تعتبر أقدم مخطوطة في البلقان إذ تعود إلى سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٣م، ومكتبة غنية بالمراجع المتخصصة (١٥ ألف كتاب في مختلف اللغات)، وأرشيف غني بالوثائق عن البوسنة خلال الحكم العثماني (حوالى ربع مليون وثيقة). ولا شك أن جهود إنجازات المعهد في إبراز الخصوصية البوسنوية جعلته هدفاً من أهداف الحرب/ العدوان على البوسنة. وهكذا فقد تعرّض المعهد في ١٧ أيار/ مايو ١٩٩٢م إلى قصف متعمّد ومتواصل أدى إلى تدميره، حيث لم ينجح من محتوياته النادرة إلا أقل من ١٪، ولذلك تنتهي د.غازيتش في هذا القسم إلى أن «ما حدث في ١٧ أيار/ مايو يجب أن يكتب بالحروف السوداء في تاريخ الثقافة والحضارة في البلقان».

ويتناول القسم الثالث إصدارات المعهد، حيث يستعرض بالتفصيل محتويات كل عدد من المجلة السنوية التي يصدرها المعهد (إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية) والتي حفلت بالدراسات الأصلية في مختلف المجالات وبالإضافة إلى ذلك فقد وردت في هذا القسم الإصدارات الأخرى التي يصدرها المعهد (السلسلة التركية، سلسلة إصدارات خاصة، سلسلة إصدارات أخرى). وفي ما يتعلق بالإصدارات الخاصة يكفي أن تذكر هنا بعض العناوين فقط كـ «الوثائق العربية في دار المخطوطات بمدينة دوبروفنيك» و«بيلوغرافيا الاستشراق اليوغسلافي» و«فهرس المخطوطات الشرقية في المعهد/ الأدب» وأول ترجمة مباشرة للقرآن الكريم إلى اللغة البوسنوية (التي أنجزها بسيم قرقوت) وغيرها.

وبالاستناد إلى هذه القاعدة العلمية تأتي الآن الذكرى الـ ٦٥ للمعهد لنرى أن ما تحقق خلال ٢٠٠٠-٢٠١٤م، يستحق التقدير بالنسبة للظروف الصعبة التي يعمل فيها الباحثون في المعهد . ففي خريف ٢٠١٣م سنحت لي فرصة لزيارة المعهد والالتقاء مع بعض العاملين فيه بحضورة د. زلاتار، حيث كان من

الواضح أن المعهد بحاجة ماسة إلى دعم مادي ومعنوي من المؤسسات المعنية بالثقافة العربية الإسلامية . ومع ذلك نجد أنه صدر خلال هذه السنوات ما يعبّر عن اهتمامات المعهد والباحثين خلال السنوات الأخيرة مثل كتاب «الأسلوبية العربية في البوسنة- أحمد بن حسن البوسنوي حول المجاز» (٢٠٠٠م) وكتاب «ملحمة مراد نامة لدرويش باشا بيازيدوفيتش» لعدنان كادريتش (٢٠٠٨م) وكتاب «الغازي خسرو بك» لبهية زلاتار (٢٠١٠م) وكتاب «النتاج العلمي والمهني لـ د.صفوت بك باشأغيتش» لليلى غازيتش (٢٠١٠م) وغيرها.

قسم الاستشراق في بريشتينا:
من الاستشراق اليوغسلافي إلى الاستشراق الألباني

في نهاية ٢٠١٣م، مرّت الذكرى الأربعون لتأسيس قسم الاستشراق في جامعة بريشتينا بجمهورية كوسوفا الآن، وإذا كان ثمة ما يميّز هذا القسم الثالث الذي أُسّس في يوغسلافيا السابقة فهو التحوّل الحثيث للقسم من الاستشراق اليوغسلافي إلى الاستشراق الألباني نتيجة للظروف التي مرّت فيها المنطقة.

وكانت صربيا في ١٩١٢م، قد ضمّت ولاية قوصوه (كوسوفا) العثمانية التي انتقل مركزها من بريزرن إلى سكوبيه، التي كانت من أهم مراكز الثقافة الشرقية، وشكّلت صربيا معها نواة يوغسلافيا في ١٩١٨م. وعلى الرغم من أن الولاية كانت بغالبية ألبانية إلا أن يوغسلافيا الملكية (١٩١٨-١٩٤١م) اتسمت بمفارقات عديدة. فالنظام الملكي اتّسم بسياسة تمييز بين الشمال والجنوب، حيث عمل في الجنوب على تشديد الضغوط على الألبان المسلمين لدفعهم إلى الهجرة إلى تركيا. وفي هذا السياق لم يعترف بلغتهم الألبانية ولم يسمح لهم بالتعلم فيها ولا بنشر أي شيء فيها، ولكنه لم يمانع في استمرار بعض المدارس الدينية الموروثة من الحكم العثماني التي بقيت تعلّم العلوم اللغوية والدينية بالعربية والتركية، والتي كانت جزءاً من التراث الثقافي للمنطقة خلال الحكم العثماني. وهكذا فقد استمر في كوسوفا عشرات الكتّاب يؤلفون باللغات

الشرقية (العربية والتركية والفارسية)، كما برز من هؤلاء من كتب باللغة الألبانية في الحروف العربية[1].

ولكن الوضع تغيّر مع يوغسلافيا الجمهورية (١٩٤٥-١٩٩٢م) حيث حظيت كوسوفا بحكم ذاتي ثم تحولت بالتدريج الى وحدة فدرالية حتى ١٩٧٤م، وبالتالي أصبحت هذه الوحدة الفدرالية تعبّر عن الأغلبية الألبانية فيها وعن ثقافتها ومشاركتها العامة في التطور الأكاديمي للبلاد. وفي هذا السياق تأسّست في بريشتينا في ١٩٦٢م كلية الآداب التي أصبحت نواة جامعة بريشتينا في ١٩٧٠م. ومن هنا يلاحظ أن قسم الاستشراق كان من أوائل الأقسام التي تأسّست في الجامعة الجديدة. وفي الواقع كان وراء تأسيس هذا القسم العالم حسن كلشي (١٩٢٢-١٩٧٦م) الذي يمكن اعتباره في آن عميد الاستشراق اليوغسلافي الجديد وعميد الاستشراق الألباني.

ولد كلشي عام ١٩٢٢م في أسرة ذات تقاليد علمية في مكدونيا الغربية ذات الغالبية الألبانية، حيث حرص أبوه الشيخ آدم على تعليمه العربية وحفظ القرآن الكريم الذي أتّمه في العاشرة، وبذلك كان من أصغر حفّاظ القرآن في جنوب يوغسلافيا آنذاك[2]. وقد تابع دراسته في المدرسة الإسلامية في سكوبيه (مدرسة الملك ألكسندر) التي كانت الوحيدة من نوعها بجنوب يوغسلافيا إلى أن أغلقت بسبب الحرب في ١٩٤١م، فانتقل إلى مدينة بريشتينا ليكمل دراسته الثانوية بالألبانية بعدما كانت أصبحت كوسوفا جزءاً من «ألبانيا الكبرى» ١٩٤١-١٩٤٥م. وبعد تشكّل يوغسلافيا الجمهورية التحق بقسم الاستشراق في جامعة بلغراد خلال ١٩٤٦م وتخرج منه عام ١٩٥١م، فعيّن معيداً فيه وناقش رسالة الدكتوراة «أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في مكدونيا» في ١٩٦٠م. ولكن مع شعوره بالتمييز ضده في القسم استقال وذهب في منحة ما بعد الدكتوراة

---

(١) للمزيد حول ذلك انظر كتابنا: كوسوفا – تجليات ثقافية بين الشرق والغرب، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٨م، ص ٣٥-٧٢.

(2) Mexhid Yvejsi, ‹Dr. Hasan Kaleshi (19221976-) studius i orientalistikes›, Ura 89-, Tirane 2012, p.36.

للتخصص في الدراسات التركية في ألمـانيا وعاد الى بريشتينا للعمل في معهد الدراسات الألبانية في ١٩٦٨م.

في غضون ذلك كان د. كلشي قد أصبح اسماً معروفاً في الدوائر الاستشراقية بأوروبا نتيجة لمشاركاته الكثيرة في الندوات والمؤتمرات العلمية وانتخب عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة. ويمكن القول إن كلشي، نتيجة عن عدم رضاه لواقع الحال في قسم الاستشراق في بلغراد، أصبح يمثّل ما يمكن تسميته «الاستشراق اليوغسلافي الجديد»، حيث إنه كان يمثّل بالفعل مدرسة مختلفة عن مدرسة بلغراد وأستاذه فهيم بايراكتاروفيتش «عميد الاستشراق اليوغسلافي». ويبدو هذا بوضوح في محاضرته التي ألقاها بمجمع اللغة العربية بالقاهرة في ١٩٦٥م، التي تناول فيها فهمه لـ«الاستشراق اليوغسلافي»، حين نأى بوضوح عن مفهوم «الأورينااليتزم» في الغرب الذي يسعى لدراسة الآخر المختلف وربط «الاستشراق اليوغسلافي» بدراسة الذات (ماضي وتراث شعوب يوغسلافيا) و«تعريف الشعوب اليوغسلافية بالعلوم العربية وحضارة العرب وآدابهم».

وبلغة كلشي العربية فقد ورد في محاضرته أن «أمام مستشرقي يوغسلافيا واجبين مهمين: أولهما دراسة ماضينا خلال العصر العثماني، وكل ما يتصل بالحضارة العربية في ذلك العهد بما يتضمن ذلك من جمع الوثائق العربية وبحثها ونشر تلك الوثائق التي باللغة العربية أثناء الحكم العثماني، وخاصة وثائق الأوقاف، ودراسة تاريخ المؤسسات الدينية والثقافية في ذلك العهد ثم دراسة المخطوطات التي يبلغ عددها حوالى ١٥ ألفا ووضع الفهارس لها لتصبح هذه الثروة في متناول جميع العلماء في أنحاء العالم»[١].

ومع تأسيس جامعة بريشتينا في ١٩٧٠م انتقل د.كلشي إلى قسم التاريخ بكليـة الآداب حيث كان يدرس اللغة العثمانية والتاريخ العثماني مما يمكن أن

---

(١) حسن كلشي، البحوث والمحاضرات للدورة الحادية والثلاثين، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤١-٤٢، أحمد إسماعيلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، القاهرة (دار المعارف)، ١٩٨٠م، ص٢٢٧-٢٢٨.

نعدّه نواة الدراسات الاستشراقية في جامعة بريشتينا. وفي العام اللاحق اقترح د.كلشي على الجهات المختصة في كلية الآداب تأسيس قسم للاستشراق وهو ما احتاج إلى حوالى العام حتى تتوّج بموافقة مجلس الشعب في ١٧/ ١٢/ ١٩٧٣م على تعديل قانون كلية الآداب لكي يتضمّن هذا القسم الجديد الذي بدأ عمله فعلياً في مطلع ١٩٧٤م[1].

وبالمقارنة مع القسم الأول (بلغراد) والقسم الثاني (سراييفو) جاء القسم الثالث ليعبّر عن خلطة يوغوسلافية إذ أسهم بتأسيسه واستمراره لفيف من الألبان والأتراك والصرب والبشناق (حسن كلشي وصباحات محمود وراده بوجوفيتش وأسعد دوراكوفيتش وحارث سيلاجيتش وفتحي مهدي وإسماعيل أحمدي وغيرهم) وجمع بين التدريس بالألبانية والصربوكرواتية، ولذلك كان يستقطب الطلاب من كوسوفا والبوسنة وصربيا.

ولكن مع تأزم الأوضاع في يوغسلافيا إثر بروز سلوبودان ميلوشيفيتش بمشروع «صربيا الكبرى» وإلغاء الحكم الذاتي الواسع لكوسوفا في ١٩٨٩م، وردّ الغالبية الألبانية عشية انهيار يوغسلافيا في ١٩٩١م بإعلان كوسوفا جمهورية مستقلة برئاسة إبراهيم روغوفا أصبح التعليم الجامعي في الألبانية مستقلاً وهو ما شمل قسم الاستشراق، الذي اقتصر الآن على المدرّسين والطلاب الألبان فقط بعدما عاد د.دوراكوفيتش ود.سيلاجيتش إلى البوسنة ولم يعد يأتيه طلاب من البوسنة بعد استقلالها واندلاع الحرب فيها ١٩٩٢-١٩٩٥م. وقد تعزّز الطابع الألباني للقسم بعد حرب ١٩٩٩م بعد انحسار السيطرة الصربية وتأسيس الإدارة الدولية التي أفضت إلى استقلال كوسوفا في ٢٠٠٨م. ونظراً لكون ألبانيا لم تحتضن بعد قسماً للاستشراق فقد أصبح قسم الاستشراق في كوسوفا بحكم موقعه الذي يتوسط العالم الألباني يستقطب الطلاب الألبان من مكدونيا وصربيا والجبل الأسود وألبانيا المجاورة.

---

(1) Prof. Dr. Feti Mehdiu, «Fillet e frytet te orientalistikes shqiptare», Hikmet 4, Prishtine 2013, p.125.

وفي هذا السياق يمكن القول إن مؤسّس القسم د.كلشي الذي كان أول من درّس مواد الاستشراق باللغة الألبانية حرص على استقطاب نواة ألبانية في القسم (إلياس رجا وشمسي أيوازي وفتحي مهدي وإسماعيل أحمدي) التي خرّجت بدورها الجيل الشاب من المستشرقين الألبان (مهدي بوليسي وعبدالله حميدي وعيسى ميميشي) الذين يتولون القسم الآن ويخرّجون بدورهم الجيل الرابع.

ومع الجيل الثاني والجيل الثالث يمكن القول إن الاستشراق الألباني قد تبلورت ملامحه بالاستناد إلى ما طرحه د. كلشي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، حيث كان فتحي مهدي أول من بلور بوضوح في مقالته «الاستشراق الألباني في خدمة الثقافة الألبانية» التي نشرها في صيف ٢٠٠٠م ضرورة فهم الاستشراق الألباني كمجال علمي لخدمة التاريخ الثقافي الألباني[1]. وهكذا أصبحت مهام الاستشراق الألباني تتركّز على دراسة التراث المحلي المكتوب باللغات الشرقية (العربية والتركية والفارسية) أو المكتوب بالألبانية في الحروف العربية باعتباره جزءاً من التراث الألباني وتدريس اللغة العربية ودراسة الآداب العربية وترجمتها إلى الألبانية إلخ. فقد اشتغل فتحي مهدي على تراث «الموالد» أو التراث الشعري الألباني المكتوب بالألبانية بالحروف العربية الذي يُنشد في المناسبات الاجتماعية المختلفة، وأخذ إسماعيل أحمدي موضوعاً لرسالة الدكتوراة العالم الألباني الحافظ علي كورتشا (١٨٧٤-١٩٥٧م) الذي كتب باللغات الثلاث وترجم من العربية والفارسية، واهتم مهدي بوليسي بمؤلفات شمس الدين سامي فراشري وترجم من «قاموس الأعلام» ما يتعلق بالألبان، بينما تابع ذلك الجيل الثالث فاشتغل عبدالله حميدي على أشهر شعراء الألبان الذي كتب بالألبانية في الحروف العربية (نظيمي) واشتغل عيسى ميميشي على اللغة العربية ونشر

---

(1) Dr. Feti Mehdiu, "Orientalistika shqiptare ne sherbim te kultures kombetare", Rilindja (Prishtine) 04.07.2000, p.14.

أول قاموس عربي ألباني حسب الأصول العلمية في ٢٠١٠م، كما اشتغل الجميع على ترجمة الأدب العربي إلى اللغة الألبانية وأصدروا عدة مختارات تعرّف بالأدب العربي من امرؤ القيس الى محمود درويش.

وقد جاء احتفال القسم بالذكرى الأربعين لتأسيسه في أواخر ٢٠١٣م ليعيد الاعتبار إلى د.كلشي باعتباره رائد الاستشراق الألباني ويسمح لفتحي مهدي أن ينشر دراسة بعنوان «بدايات وثمار الاستشراق الألباني» يكشف فيها عما حقّقه هذا القسم من بنية تحتية للمستقبل: حوالى عشرة دكاترة و١٥ ماجستير من أصل ٢٦٥ طالباً تخرجوا حتى ٢٠١٣م من القسم[1].

(1) Mehdiu, Fillet e frytet, p.130 - 136.

سليمان غروز دانيتش
حياة في خدمة الثقافة العربية الإسلامية

كان لمأساة الحرب في البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥م أثرها الكبير على المسلمين هناك الذين قاوموا الموت المفروض عليهم وصُدموا بما عايشوه. وفي هذا الإطار كانت صدمة المستشرقين كبيرة، بعد تعرّض معهدهم المعروف (معهد الاستشراق في سراييفو) إلى قصف صربي متعمّد دمّر كل محتوياته تقريباً. ونتيجة للمعاناة تحت الحصار والقصف فقد توفي عدد من كبار المستشرقين سواء خلال الحرب أو بعد الحرب مباشرة مثل عصمت كاسوموفيتش (١٩٩٥م) وأشرف كوفاتشوفيتش (١٩٩٦م) وآدم خانجيتش (١٩٩٨م) وغيرهم.

ومن هؤلاء الذين رحلوا بصمت، دون أن يعرف عن رحيلهم أو أن يُكتب عنهم، المستشرق سليمان غروزدانيتش (١٩٣٣-١٩٩٦م) مدير معهد الاستشراق في سراييفو، الذي قضى حياته في دراسة الأدب العربي القديم والحديث والتراث البوسنوي في اللغات الشرقية. ومن هنا فإن هذه السطور إنما تعكس نوعاً من الوفاء لهذا الباحث الذي عرفناه عن قرب نموذجاً للإنسان الذي يشعر أنه صاحب رسالة في خدمة ثقافة عظيمة/ الثقافة العربية الإسلامية.

ولد سليمان غروزدانيتش في مدينة بريدور Prijedor في البوسنة في ١٦/ ٧/ ١٩٣٣م، وبعد تخرّجه من المدرسة الثانوية انتسب فوراً الى قسم الاستشراق الذي كان افتتح حديثاً (١٩٥٠م). وبعد تخرجه من القسم في ١٩٥٨م عُيّن فيه معيداً للأدب العربي في السنة ذاتها، وتابع دراساته العليا حتى ١٩٧٠م

حين ناقش أطروحته للدكتوراه (المسرح الذهني عند توفيق الحكيم). وقد برز غروزدانيتش بسرعة خلال السنوات اللاحقة في مجال الاستشراق اليوغوسلافي بسبب أبحاثه وترجماته الكثيرة أو بسبب توليه لإدارة معهد الاستشراق خلال سنوات ١٩٧٤-١٩٨٢م، التي شهدت تحولاً نوعياً في عمل المعهد.

وفي ما يتعلق بعمله وإسهامه المعرفي يمكن أن نميّز بين ثلاث فترات/ مجالات مختلفة:

- الاهتمام بالأدب العربي قديمه وحديثه وترجمة مختارات منه.
- الاهتمام بتطوير العمل في معهد الاستشراق برؤية جديدة للاستشراق البوسنوي/ اليوغسلافي.
- الاهتمام بتراث البوسنة/ البشانقة في اللغات الشرقية، وخاصة في اللغة العربية، ونشر دراسات مرجعية حوله.

ومع أنه من الصعب تصور حدود ما بين الفترات والمجالات المذكورة إلا أنه يمكن القول إن غروزدانيتش بدأ الاهتمام بالأدب العربي قديمه وحديثه خلال الستينيات والسبعينيات، مع بعض الاستثناءات، ثم أخذ يهتم بموضوع الاستشراق اليوغوسلافي/ البوسنوي في السبعينيات والثمانينيات، لينتهي في الثمانينيات والتسعينيات إلى العمل في التراث الشرقي للبوسنة. ولا شك أن هذا التموّج أو التطور لا يمكن عزله عن التطورات السياسية في يوغوسلافيا خلال السبعينيات والثمانينيات. فقد شهدت البوسنة، بعد الاعتراف بالمسلمين كشعب مستقل للمرة الأولى في إحصاء ١٩٧١م، إلى انتعاش (الروح البوسنوية) التي انعكست على مفهوم الاستشراق، كما عبّر عنه غروزدانيتش، وإلى التمسك بالهوية البوسنوية خلال الحرب العدوانية على البوسنة ١٩٩٢-١٩٩٥م وما بعدها.

وهكذا فقد انشغل غروزدانيتش في البداية بالأدب العربي قديمه وحديثه، بالدراسة والترجمة. ولم يكن من المصادفة أن يبدأ في الأدب الحديث (١٩٦٤م) بنشر دراسة عن توفيق الحكيم نظراً لأن هذا كان موضوع أطروحته للدكتوراة،

على حين أنه بدأ بعد ثلاث سنوات (١٩٦٧م) بنشر أول دراساته عن الأدب العربي القديم. فقد نشر سنة ١٩٦٧م دراسة بعنوان «التصور الشعري عند العرب القدماء» وترجم بعد ذلك قصائد لعدد من الشعراء العرب القدامى في ١٩٦٩م، ثم نشر في ١٩٧٠م أول كتاب له في الأدب العربي القديم بعنوان «مختارات من الشعر العربي القديم» الذي صدر عن دار معروفة في سراييفو (سفيتلوست). وفي السنة ذاتها (١٩٧٠م) نشر دراسة عن عبدالله بن المقفع تتضمّن مختارات من رسالته عن الصداقة، كما نشر في السنة ذاتها دراسة عن المعرّي وأتبعها في ١٩٧٥م بكتاب أصدره في سراييفو عن «معراج أبي العلاء» تتضمّن مختارات ودراسة عنه.

وفي ما يتعلق بالأدب العربي الحديث فقد بدأ غروزدانيتش نشاطه بنشر دراسة عن مسرح توفيق الحكيم في ١٩٦٤م، ثم اتبعها بدراسة أخرى في ١٩٦٦م بعنوان (المسرحية المعاصرة في مصر). ويلاحظ أنه في نهاية الستينيات كانت «موضة» الاهتمام بعبدالوهاب البياتي في يوغسلافيا وأوروبا الشرقية، فنشر عنه دراسة في ١٩٦٦م، ثم نشر مختارات من شعره في ١٩٧٢م، وأتبعها بنشر ديوانه «قصائد حب إلى امــرأة» الذي صدر في سراييفو ١٩٧٥م.

وفي الوقت نفسه كان الأدب الفلسطيني يفرض نفسه أيضاً. وهكذا نشر غروزدانيتش دراسة عن الأدب الفلسطيني في ١٩٧٦م، ونشر مختارات من قصائد محمود درويش في ١٩٨٢م.

ومن ناحية أخرى بقي اهتمامه بالأدب المصري أقوى خلال تلك السنوات. فقد نشر دراسة في ١٩٧٧م عن يوسف إدريس ثم أتبعها تلك السنوات بمختارات من قصصه نشرت في كتاب صدر في بلغراد بعنوان «شيخ بابا وقصص أخرى». كما نشر في ١٩٨٣م ترجمة لقصائد من شعر صلاح عبدالصبور، الذي كان على علاقة شخصية معه. وبعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل نشر دراسة عنه في ١٩٨٨م، ثم نشر روايته «بين القصرين» في ١٩٩٠م.

وفي غضون ذلك، وبالتحديد في منتصف السبعينيات، أخذ غروزدانيتش يهتم بالدراسات الاستشراقية في يوغسلافيا ويعمل على بلورة مفهومه للاستشراق

في البوسنة. ولا شك أن ما أسهم في ذلك توليه إدارة معهد الاستشراق في سراييفو، الذي كان المعهد الوحيد من نوعه في يوغسلافيا. فعلى الرغم من أن أول قسم للاستشراق قد افتتح في جامعة بلغراد في ١٩٢٦م، حيث غلب عليه طابع التدريس، إلا ان الدراسات الاستشراقية ستشهد زخماً كبيراً مع تأسيس معهد الاستشراق في سراييفو وقسم الاستشراق في جامعة سراييفو.

وفي ما يتعلق بالمعهد فقد كان غروزدانيتش أول مدير مستعرب يتولى إدارته ويعطيه زخماً جديداً خلال إدارته الطويلة. فقد كان أول مدير للمعهد خلال ١٩٥٠-١٩٦٤م المؤرخ برانيسلاف جورجيف المعني بتاريخ الشعوب اليوغسلافية خلال الحكم العثماني، ثم جاء بعده المؤرخ نديم فيليبوفيتش (١٩٦٤-١٩٦٩م) المعني بتاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني، وجاء أخيراً المؤرخ عبدو سوتشسكا (١٩٦٩-١٩٧٤م) المعني بالتطور الإداري- القانوني للبوسنة خلال الحكم العثماني. وبعبارة أخرى كان غروزدانيتش أول مستشرق/ مستعرب (في تكوينه الأكاديمي وفي اهتمامه البحثي) يتولى إدارة المعهد، مما كان له أثره بطبيعة الحال على فتح آفاق جديدة في عمل المعهد. فقد كان المديرون الأوائل يعرفون العثمانية/ التركية ويركزون على الدراسات المتعلقة بالإدارة والمجتمع خلال الحكم العثماني، بينما كان غروزدانيتش يجيد العربية واهتماماته منصبة على الثقافة العربية الإسلامية. وقد استمر غروزدانيتش في إدارة المعهد على فترتين، إذ تولاه في الفترة الأولى خلال سنوات ١٩٧٤- ١٩٨٢م، ثم عاد وتولاه مرة ثانية خلال سنوات ١٩٨٥- ١٩٨٩م.

ففي مناسبة الذكرى الـ ٢٥ لتأسيس المعهد نشر غروزدانيتش مقالة افتتاحية في مجلة المعهد «إسهامات في الفيلولوجيا الشرقية» ضمّنها رؤيته للاستشراق في يوغسلافيا/ البوسنة بين الماضي والحاضر. فقد انطلق من أهمية الإنجاز المهم في ١٩٤٥م المتمثل في بروز البوسنة من جديد بعد محاولات تغييبها وتقسيمها خلال العهد اليوغسلافي ١٩١٨-١٩٤١م، حيث أصبحت «تتيح لكافة السكان تنمية ثقافتهم بحرية». وفي «مثل هذا المناخ من الحرية والمساواة، أصبحت الظروف مهيأة لانطلاقة جديدة في العمل البحثي بشكل

عام، وفي مجال الاستشراق بطبيعة الحال». ومع التوجه للتوسع في أعداد كوادر جديدة ركّز غروزدانيتش على أنه لم يعد المطلوب من الاستشراق (البوسنوي على الأقل) أن يقتصر في البحث على تاريخ البوسنة خلال الحكم العثماني، وإنما وسع من مفهومه لكي يشمل «حماية التراث الثقافي ونشره الذي أبدعه شعبنا خلال ذلك العهد»، باعتبار أن الاستشراق البوسنوي له دافع (قومي) خاص. وبعبارة أخرى أن الاستشراق البوسنوي لم يعد لدراسة الآخر/ الغريب بل لدراسة الذات/ التراث المحلي للتآلف معه من جديد.

وفي ما يتعلق بالتراث البوسنوي في اللغات الشرقية، وفي اللغة العربية بشكل خاص، فقد بدأ غروزدانيتش بنشر أبحاثه منذ ١٩٧٩م، إذ نشر حينئذ دراسة عن العالم البوسنوي حسن كافي الاقحصاري الذي اشتهر بكتابه الذي ألفه في اللغة العربية «أصول الحكم في نظام العالم». وعلى حين كانت الدراسة الأولى عنه عامة أتبعها بدراسة أخرى في ١٩٨٠م عن كتاب «أصول الحكم» بشكل خاص. ويبدو أن الاقحصاري بقي يجذب إليه غروزدانيتش باستمرار خلال السنوات اللاحقة. فقد نشر مختارات من أعماله مع دراسة عنه في سراييفو ١٩٨٨م، كما قدّم في ١٩٩٥م ورقة عنه في ندوة علمية بعنوان «الاقحصاري العالم والمفكر والمصلح الاجتماعي».

ومع الاقحصاري أخذ غروزدانيتش يتوسّع في مجال التراث البوسنوي في اللغات الشرقية، وخاصة في اللغة العربية. وهكذا نشر مقاله في ١٩٨١م بعنوان «الأدب المكتوب في اللغات الشرقية في البوسنة»، ونشر في ١٩٨٢م دراسة في مجلة اليونيسكو بعنوان «أدب مسلمي البوسنة والهرسك في اللغات الشرقية». وفي هذا الإطار اهتم غروزدانيتش بأديب بوسنوي مهم هو الملا مصطفى باشسكيا، الذي نشر عنه دراسة في ١٩٩١م.

وخلال فترة إدارته الثانية للمعهد ١٩٨٥-١٩٨٩م، أطلق مشروع «الأعمال التحضيرية لإنجاز تاريخ آداب شعوب وقوميات البوسنة والهرسك»، الذي اشتغل فيه مع زميله المستشرق د.أمير لوبوفيتش لإنجاز عمل مرجعي عن التراث الشرقي للبشانقة. وقد جاءت الحرب العدوانية على البوسنة لتدفع بها

إلى مزيد من العمل لإنجاز وإصدار هذا العمل في ١٩٩٥م في كتاب بعنوان «الأدب النثري للبوسنة والهرسك في اللغات الشرقية». وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم «الأدب» الوارد في العنوان قصد منه المعنى الواسع الذي يرادف «التراث»، إذ تناول غروزدانيتش مؤلفات البشانقة في مجالات اللغة والتاريخ والأدب بينما تناول لوبوفيتش مؤلفات البشانقة في مجالات الفلسفة والقانون وعلوم الدين.

ومع اهتمامه بطبع هذا الكتاب الأخير الذي صدر في حياته انشغل غروزدانيتش خلال سنوات الحرب العدوانية على البوسنة في إنجاز آخر عمل له عن البوسنة الضحية، الذي أكمله قبل وفاته بعنوان «البوسنة ليست حلماً ١٩٩٢-١٩٩٤م»، ولكنه لم يصدر إلا بعد سنوات عدة من وفاته (١٩٩٩م).

حسن كلشي
رائد الاستشراق الألباني في يوغسلافيا

صدر في يوغسلافيا ومكدونيا مجلدان عن حياة وأعمال المستشرق الراحل حسن كلشي، في الذكرى العشرين لوفاته (١٩٩٦م) مما ردّ نوعاً من الاعتبار إلى الرجل الموسوعي الذي توفي في قمة عطائه، والذي تمثل سيرته ووفاته كل المتناقضات في البلقان. فقد ولد في مكدونيا الغربية بعد أن أصبحت ضمن الدولة الجديدة التي تشكلت حينئذ (يوغسلافيا) وعايش دولة أخرى خلال الحرب العالمية الثانية (ألبانيا الكبرى)، وهاجرت كل أسرته خلال «موسم الهجرة إلى الشرق» إلى تركيا حيث أصبحوا هناك من «الأتراك»، وتزوج من صربية في تحدّ نادر للتابو الصربي - الألباني واشتغل في قلب صربيا (بلغراد) ليسهم هناك في نمو قسم الاستشراق ثم انتقل إلى بريشتينا عاصمة إقليم كوسوفو ذي الأغلبية الألبانية ليؤسس هناك قسم الاستشراق ويواجه الحصار السياسي.

وقد أتاحت له معرفته الممتازة باللغات المحلية (المكدونية، الألبانية، التركية، الصربية) والعربية واللغات الأوروبية (الألمانية، الإنكليزية، الفرنسية والإيطالية) وإسهاماته في كل هذه اللغات إلى أن يكون مستشرقاً من نوع خاص (بلقاني/ أوروبي) قلّ أن نجد له مثيلاً. لكن اهتمامه بالعلم والحقيقة العلمية في منطقة مليئة بالمحرّمات السياسية وضعه في حصار كان يضغط عليه باستمرار مما سبب له الوفاة المبكرة بالسكتة القلبية في ١٩ تموز ١٩٧٦م.

ولد حسن كلشي Hasan Kaleshi في ٧ آذار ١٩٢٢م، بقرية سربيتسا Srbica في مكدونيا الغربية في عائلة ألبانية ذات تقاليد ثقافية إسلامية. فقد كان جدّه علي كلشي قد أنهى دراسته الدينية الإسلامية في استانبول وأصبح من رجال الدين المعروفين في مسقط رأسه. وقد تابع هذا التقليد الأب أحمد كلشي الذي تخرّج في مدرسة الفاتح الشهيرة في استانبول، وأصبح أيضاً من رجال الدين المعروفين في منطقته. وقد بدأ حسن في طفولته بتعلّم اللغة العربية والقرآن الكريم على يد والده منذ أن كان في السادسة من عمره، ولم يبلغ العاشرة حتى أخذ بحفظ القرآن الكريم. وبموازاة هذا التعلّم البيتي التحق بالمدرسة الرسمية في بلدته ثم انتقل لمتابعة دراسته الإعدادية والثانوية في المدرسة الكبرى الإسلامية في سكوبي. ونظراً لإغلاق المدرسة بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية وانهيار يوغسلافيا في نيسان ١٩٤١م، فقد تابع دراسته في مدرسة «سامي فراشري» الثانوية في مدينة بريشتينا المجاورة التي أصبحت آنذاك (١٩٤١-١٩٤٤م) ضمن «ألبانيا الكبرى». وبعدما تخرّج في هذه المدرسة عام ١٩٤٢م عاد إلى مسقط رأسه حيث بدأ العمل مترجماً في إحدى الإدارات.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) وانبعاث يوغسلافيا ثانية ضمن حدودها السابقة وجد الشاب حسن نفسه ينساق تحت تأثير حبه للعربية إلى الالتحاق بقسم الاستشراق في جامعة بلغراد في خريف ١٩٤٦م، الذي كان القسم الوحيد من نوعه حتى ذلك الوقت، حيث تخرج فيه عام ١٩٥١م بتفوّق كبير. ونظراً لهذا التفوّق فقد عُين في العام التالي (١٩٥٢م) معيداً في القسم. وفي تلك السنوات زادت الضغوط على مسلمي جنوب يوغسلافيا لدفعهم إلى الهجرة باتجاه الشرق، حيث هاجر حينئذ مئات الألوف خلال ١٩٥٠-١٩٦٠م، ولم تستطع عائلة حسن الصمود أكثر، فهاجر أبوه مع أولاده الأربعة إلى تركيا تاركاً الخامس وحده في يوغسلافيا. ومع هذه الصدمة فقد تابع حسن دراسته في بلغراد، وفي سنة ١٩٦٠م دافع عن أطروحته للدكتوراة «أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في مكدونيا». ولكن تعيينه في القسم كأستاذ مساعد تعرقل خمس سنوات لأسباب سياسية، مما جعله يترك القسم احتجاجاً على ذلك.

لقد كان حسن حينئذ يمثّل كل ما هو غير مرغوب فيه. فقد كان مسلماً في وقت تمارس فيه الضغوط على المسلمين للهجرة إلى تركيا، وكان ألبانياً في وقت عصيب بالنسبة للألبان خلال احتدام النزاع بين ألبانيا ويوغسلافيا مما جعل كل ألباني مشكوكاً في أمره في بلغراد. وعلى الرغم من كسر حسن كلشي للتابو الصربي الأرثوذكسي/ الألباني المسلم بزواجه من صربية، إلا أنه بهذا خلق لنفسه مشكلة أخرى وسط هذين العالمين المتناقضين. ومن ناحية أخرى فقد كانت روح حسن التي تبحث دوماً عن الحقيقة لا تقبل القولبة الإيديولوجية، ولذلك لم يقترب في حياته من الحزب الشيوعي الحاكم، وهذا لم يكن بالأمر السهل على بلد يأخذ بنظام الحزب الواحد الحاكم.

وعلى الرغم من كل هذه الظروف فقد فرض د.كلشي نفسه كباحث بما كان ينشره من أبحاث في عدة لغات داخل يوغسلافيا وخارجها. وهكذا فقد أخذت أبحاثه في مجال الاستشراق تلفت انتباه المؤسسات العلمية فأقام في جامعة هامبورغ أستاذاً زائراً لمدة عامين (١٩٦٥-١٩٦٦م)، وفضّل بعد عودته إلى يوغسلافيا العمل في معهد الدراسات الألبانية، الذي كان قد افتتح من جديد في بريشتينا، عاصمة إقليم كوسوفو ذي الأغلبية الألبانية. وقد بقي يعمل في هذا المعهد حتى ١٩٧٣م، حين عُيّن رئيساً لقسم الاستشراق الجديد، الذي أسس حينئذ في إطار جامعة بريشتينا، وبقي رئيساً له حتى وفاته في ١٩ تموز ١٩٧٦م.

ولا شك أن التداخل الإثني- الثقافي (البلقاني من ناحية والشرقي- الغربي من ناحية أخرى) الذي وُجد ونشأ فيه د.كلشي، مع الحماس الدائم للبحث الذي سيطر عليه، قد ساعداه على أن يلفت النظر إليه في وقت مبكر. ومما يسّر له ذلك تردّده باستمرار على أهم مراكز الوثائق البلقانية والأوروبية (أرشيفات استانبول وأنقرة وفيينا وبرلين وميونيخ)، مما جعل أبحاثه تتميّز دوماً بالأصالة والجدّة. وهكذا بعدما نشر أول مقالة له في سنة ١٩٤٩م باللغة الألبانية أخذ ينشر مقالاته وأبحاثه في لغات بلقانية وأوروبية خلال الخمسينيات، وشارك في كثير من الندوات والمؤتمرات الدولية خلال الخمسينيات والستينيات، وأصبح

في الستينيات والسبعينيات عضواً في الكثير من المؤسسات العلمية وهيئات تحرير المجلات العلمية وبعض الموسوعات.

إلا أن هذه الميزة (نشر الأبحاث في عدة لغات) أعاقت في الواقع التعرّف على النتاج العلمي الشامل للمرحوم د.كلشي، إذ إن كل طرف كان يهتم فقط بالأبحاث المنشورة التي تهمّه في إحدى اللغات المذكورة. ونظراً لانشغال د.كلشي بالبحث والنشر في عدة لغات، حسب موضوع البحث، فلم يكن لديه الوقت لترجمة أبحاثه من لغة إلى أخرى. كما إن الحصار أو عدم الاهتمام الرسمي به أسهم أيضاً في عرقلة ترجمة وإعادة نشر أعماله، بل إن بعض مخطوطاته المقدمة للنشر فقدت في ظروف لا تصدق. ولكن بعد تغير الظروف الساسية، وصدور أهم أعماله في عدة مجلدات، أصبح في الإمكان الآن إلقاء نظرة تقييمية شمولية على مجمل نشاطه البحثي الذي يبلغ عدة مئات (حوالى ٣٥٠) من المقالات والدراسات المنشورة في عدة لغات.

وبالاستناد إلى ما نعرفه حتى الآن، وإلى أن يتم اكتشاف مخطوطات أو دراسات أخرى غير معروفة، يمكن لنا الآن التعرّف على المرحوم د.كلشي من خلال أهم المجالات البحثية التي اشتغل بها ونشر فيها مقالاته ودراساته:

١- اللغة الألبانية وأدبها:

كان الشاب حسن كلشي قد سجل في ١٩٤٦م في جامعة بلغراد بقسمين مختلفين (الاستشراق والأدب الأوروبي)، وهو ما كانت تسمح به الأنظمة حينئذ. ولا شك في أن المواد التي درسها، والتي تتعلق باللغة والأدب بشكل عام، قد ساعدته على دراسة اللغات والآداب التي كان مهتماً بها، سواء أكان في الإطار البلقاني أم المتوسطي (التركي والعربي). وهكذا فقد نشر أول دراسة له بالألبانية في سنة ١٩٤٩م بعنوان «ملاحظات حول اللغة في صحافتنا»، ثم أخذ يهتم بتتبع ونقد الأدب الألباني في يوغسلافيا حيث نشر في ١٩٥٢م دراسة بعنوان «الأدب المعاصر للألبان في يوغسلافيا» باللغة الصربية ليعرّف بهذا الأدب بقية شعوب يوغسلافيا، وتناول في دراسة ثالثة في ١٩٥٦م «الأدب الألباني المعاصر» بشكل

عام. وهناك جانب آخر اهتم به د. كلشي في وقت مبكر، وكان من الرواد فيه في الواقع، ألا وهو الأدب الألباني المكتوب بالأبجدية العربية، حيث نشر دراسة رائدة في سنة ١٩٥٧م.

٢- اللغة العربية وأدبها:

درس الطفل حسن اللغة العربية قبل أن يدرس لغة أخرى، وقد أجادها بعد ذلك خلال دراسته في المدرسة الشرعية وفي قسم الاستشراق ثم درّسها في ذلك القسم لطلابه. إلا أن الاهتمام الأكبر للمرحوم د. كلشي كان في التعريف بالأدب العربي سواء أكان من خلال الدراسات أم من خلال الترجمات. وهكذا فقد ترجم قصائد من شعر الشعراء العرب القدماء (ابن الرومي والمتنبي وغيرهم) والمعاصرين (أبو القاسم الشابي وجبران خليل جبران وبلند الحيدري ونزار قباني وسليمان العيسى وغيرهم) إلى عدة لغات (الألبانية والتركية والمكدونية والصربية). وبالإضافة إلى ذلك فقد نشر عدة دراسات متخصصة كـ «الأدب المصري المعاصر» في سنة ١٩٥٦م، و«ظواهر جديدة في الشعر العربي الحديث» في سنة ١٩٦٥م إلخ. وفي هذا الإطار فقد اهتم د. كلشي بشكل خاص بالكاتب القصصي محمود تيمور، حيث ترجم له عدة قصص في عدة لغات خلال الخمسينيات ثم نشر له مجموعة كاملة بعنوان «الحاج شلبي» في سنة ١٩٦٨م. وقد توّج د. كلشي اهتمامه في هذا المجال بإعداد كتاب جامعي عن الأدب العربي قدمه للنشر إلى رئاسة جامعة بريشتينا، إلا أن هذا المخطوط فقد بعد وفاته ولم ير النور حتى الآن على الرغم من أهميته كأول كتاب جامعي في هذا المجال.

٣- القرآن الكريم:

في إطار الاهتمام المتزايد بالقرآن/ الإسلام بعد انعطاف ١٩٦٦م، كلّفت دار النشر المعروفة في بلغراد «فوك كراجيتش» د.كلشي بكتابة مقدمة تعريفية واسعة بالقرآن الكريم لطبعتها المختارة التي أصدرتها في ١٩٦٧م. وتعتبر هذه الدراسة الواسعة (٢٥ صفحة) من أفضل الدراسات التي نشرت في يوغسلافيا

عن القرآن الكريم، ولذلك فقد أعيد نشرها كمقدمة للترجمة الجديدة للقرآن الكريم في اللغة الألبانية التي صدرت في ١٩٨٤م.

٤- المعاجم:

كانت معرفة د. كلشي لعدد من اللغات وراء اهتمامه بالمعاجم الثنائية بين اللغات التي يعرفها. وقد بدأ اهتمامه في هذا المجال بتتبع وتقييم المعاجم الصادرة كما في مقالته حول «المعجم الصربي-الألباني» في سنة ١٩٥٢م، ومقالته الأخرى حول «المعجم التركي-البلغاري» ١٩٦٨م، ودراسته المهمّة «الأعمال المعجمية والموسوعية لسامي فراشري». وفي غضون ذلك كان قد أنجز أهم إسهام له في هذا المجال ألا وهو «المعجم الصربوكرواتي- العربي»، الأول والوحيد من نوعه الذي أتمّه في سنة ١٩٦٧م، بالتعاون مع الباحث المصري د. كامل البوهي خلال عمله في قسم الاستشراق بجامعة بلغراد، والذي لم يصدر إلا في عام ١٩٨٨م. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المعجم متوسط الحجم يضم حوالى ٥٠ ألف كلمة، ولا يستطيع المرء بسهولة تفسير تأخر طبع معجم مهم من هذا النوع طيلة عشرين سنة مع أن الحاجة كانت ماسة إليه.

٥- اللغة التركية وأدبها:

نشأ المرحوم كلشي في وسط متعـدّد اللغات (مكدونيا) ولذلك فقد تعلّم التركية خلال دراسته في سكوبيه ثم خلال دراسته وإقامته في بلغراد وهامبورغ، حيث عمل هناك في الدراسات التركية/ العثمانية مع أشهر الباحثين كفون غابن Von Gabin وغيره. وهكذا فقد اهتم د.كلشي باللغة التركية الأخرى وأدبها حيث نشر عدة دراسات في اللغات الأخرى (الألبانية، الصربية إلخ) ليسهم بهذا في التعريف بالأدب التركي في الأوساط الأخرى. وفي هذا الإطار فقد نشر في سنة ١٩٥٢م أول دراسة بعنوان «الشعر التركي القديم»، ونشر في سنة ١٩٥٣م دراستين، الأولى بعنوان «الأدب التركي المعاصر»، والأخرى بعنوان «في الشعر التركي المعاصر»، كما نشر في العام ذاته دراسة في اللغة التركية عن «أدب عصر التنظيمات»، وترجم لعدد من الشعراء والأدباء الأتراك أيضاً.

٦- الأدب الشعبي:

اهتم د. كلشي بالأدب الشعبي منذ وقت مبكر وقدّم فيه إسهامات أصيلة نظراً لمعرفته بالأداب الشرقية والبلقانية، حيث ساعده هذا على إجراء الدراسات المقارنة والتوصل إلى نتائج جديدة في هذا المجال. وفي هذا الإطار فقد نشر في سنة ١٩٥٣م دراسة له بعنوان «جحا – نصر الدين المسكين»، ونشر في سنة ١٩٥٤م دراسة أخرى بعنوان «نوادر سامي فراشري»، وبعد سنتين (١٩٦٥م) نشر دراسة «الروايات الشعبية عن أصل الألبان» ثم دراسة «الحكايات الشعبية الألبانية عن صاري صالتق» في سنة ١٩٦٧م، وفي سنة ١٩٧١م نشر «المؤثرات الشرقية في القصص الشعبية الألبانية» التي تعتبر من أهم دراساته في هذا المجال.

٧- الشخصيات الألبانية في التاريخ العثماني:

مكّنت معرفة د.كلشي للغة العثمانية/التركية ومراكز الوثائق في تركيا (استانبول وأنقرة) من إنجاز أبحاث أصيلة في هذا المجال. وفي الحقيقة لقد جاء اهتمام د. كلشي في هذا المجال بشكل يتعارض مع التاريخ الرسمي سواء في يوغسلافيا أم في ألبانيا، حيث كان التاريخ الرسمي يركز على القطيعة بين التاريخ المحلي (الوطني/القومي) والعثماني، ولذلك فقد طرح د. كلشي في دراساته معطيات غير معروفة سواء بالنسبة للشخصيات المذكورة في التاريخ الرسمي أو بالنسبة لشخصيات المحظورة في التاريخ الرسمي. وفي هذا الإطار يمكن ذكر مقالاته في «موسوعة تاريخ جنوب شرق أوروبا» عن الشخصيات الألبانية التي نشطت في الإطار العثماني كشمس الدين سامي فراشري وعلي باشا غوسيا وفريد باشا وثريا باشا فلورا وغيرهم. حتى أن دراساته عن شمس الدين سامي فراشري تستحق أن تطبع في كتاب لوحدها نظراً لأهميتها. وتجدر الإشارة هنا إلى واحدة من أهم دراساته في هذا المجال التي تتناول د.إبراهيم تيمو مؤسس جمعية الاتحاد والترقي إنما نشرت بالألمانية والصربوكرواتية في ١٩٧٥م، ولم تنشر بالألبانية لا في ألبانيا ولا في يوغسلافيا آنذاك.

٨- التاريخ الألباني في العهد العثماني:

دخل د. كلشي في مواجهة غير مباشرة مع التاريخ الرسمي سواء في ألبانيا أو يوغسلافيا، حيث كانت الصورة عن الدولة العثمانية أحادية وسلبية وغير موضوعية. ولذلك فقد حاول د.كلشي بالعودة إلى الوثائق والمصادر العثمانية والبلقانية أن يصحّح بعض القضايا في التاريخ الألباني/ العثماني. وفي هذا الإطار نشر في سنة ١٩٦٨م دراستين الأولى بعنوان «مقاومة الشعب الألباني في مرحلة اسكندر بك حسب الحوليات التركية القديمة» والثانية بعنوان «الحرب الألبانية - التركية في القرنين ١٤-١٥ حسب ثلاث حوليات تركية»، وأصدر في سنة ١٩٦٩م «ما هي المعطيات التي تقدمها الحوليات العثمانية عن الحرب الألبانية التركية في القرن ١٥»، ثم نشر في سنة ١٩٧١م «وثائق أرشيف فيينا عن عصبة بيا» و«مصدر تركي حول انتفاضة الألبان في ١٩٠٩-١٩١٢م» وغيرها من الدراسات.

٩- التاريخ العثماني في مناطق يوغسلافيا:

يُعتبر هذا المجال من أهم المجالات التي أسهم فيها د. كلشي بدراسات أصيلة بفضل معرفته باللغة العثمانية التركية ومراكز الوثائق في استانبول وأنقرة. وهكذا فقد أخذ منذ سنة ١٩٥٧م بنشر أبحاثه حول بعض القانون نامات المتعلقة ببعض الولايات العثمانية في يوغسلافيا، ونشر في سنة ١٩٦١م «معطيات حول ماضي بريزرن في العهد التركي» و«ولاية بريزرن في سنة ١٩٦٧م»، وأصدر في ١٩٦٣م «أولى المطابع التركية الصربية وبداية الصحافة في كوسوفو»، ونشر في ١٩٧٥م دراستين مهمتين الأولى بعنوان «التوبونيمات العثمانية في الأراضي اليوغسلافية» و«الثقافة الشرقية في الأراضي اليوغسلافية»، وغيرها من الدراسات التي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

١٠- الوقف:

في إطار اهتمامه بدراسة التاريخ الاقتصادي- الاجتماعي والثقافي ليوغسلافيا في العهد العثماني بدأ د. كلشي يهتم منذ وقت مبكر بهذا الجانب،

وبالتحديد دور الوقف والوثائق الوقفية في كتابه التاريخ المحلي. وهكذا فقط كان د.كلشي من الرواد الذين اهتموا وعلّموا الآخرين كيف يدرسون ويستفيدون وينشرون الوثائق الوقفية (الوقفيات) من العهد العثماني. وفي الواقع لقد ركّز د. كلشي فيما بعد على جانب محدد ألا وهو الوقفيات المكتوبة في اللغة العربية. وهكذا فقد نشر في ١٩٥٦م أول بحث مشترك له مع محمد محمدوفسكي» وقفية حواء بنت أدهم جلبي الاسكوبي»، وفي ١٩٥٨م نشر لوحده «ثلاث وقفيات لمحمد باشا» ثم «بريزنلي قوقلي بك وأوقافه» (١٩٥٨م) و«أقدم وقفية في يوغسلافيا» (١٩٦١م) و«وقفية في اللغة العربية من أوهريد من سنة ١٩٤١م» (١٩٦٥م) وغيرها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الموضوع طغى على اهتمام المؤلف في ذلك الوقت، حتى إنه اختاره موضوعاً لرسالة الدكتوراه التي دافع عنها بنجاح في ١٩٦٠م. وقد أغنى هذه الرسالة بإضافات أخرى وطبعها في كتاب في ١٩٧٢م بعنوان «أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغسلافيا». وقد اعتبر صدور هذا الكتاب في حينه حدثاً علمياً وأشادت به أهم المجلات الاستشراقية في أوروبا.

ومن الصعب أن يسمح لنا المجال بالاستمرار في استعراض كل المجالات البحثية للمرحوم د.كلشي، ولذلك نكتفي هنا أن نشير بالاسم إلى أهم المجالات الأخرى كالإسهام الألباني في الأدب العثماني/ التركي، والمؤثرات التركية في لغات وآداب يوغسلافيا، وإسهام مسلمي يوغسلافيا في الكتابة باللغة العربية، وكتابة الآداب المحلية بالأبجدية العربية وغير ذلك.

داركو تاناسكوفيتش وثنائية الذات والآخر/الإسلام

يعتبر داركو تاناسكوفيتش D.Tanaskovic من أشهر المستشرقين الصرب لثقافته الواسعة وتواصله مع مراكز الاستشراق في أوروبا وإنتاجه المتنوع سواء في صربيا/ يوغسلافيا أو في الخارج. وعلى الصعيد الصربي/ اليوغسلافي فقد عُرف تاناسكوفيتش بتسيّسه أكثر من غيره، وهو ما برز بشكل واضح في الثمانينيات والتسعينيات خلال صعود المد القومي الصربي مع تولي سلوبودان ميلوشيفتش للسلطة، وانتهى به الأمر إلى تعيينه سفيراً ليوغسلافيا في تركيا (١٩٩٥-١٩٩٩م) وفي أذربيجان ١٩٩٨-١٩٩٩م وغيرها، بينما عُيّن مؤخراً ممثلاً لصربيا في اليونسكو.

ونظراً إلى أن تاناسكوفيتش كان هو المستشرق الأقرب إلى النظام الحاكم في بلغراد، نظام ميلوشيفيتش، الذي مارس سياسات قمعية سواء ضد المسلمين في البوسنة أو في كوسوفو، فإن صدور كتاب له بعنوان «الإسلام ونحن» (بلغراد ٢٠٠٠م) يكفي في حد ذاته لكي يكون مطلوباً ومرغوباً وأن يصدر في أكثر من طبعة[1].

وفي الواقع لقد كان تاناسكوفيتش من بين المستشرقين الصرب هو الذي فتح منذ منتصف الثمانينيات في القرن الماضي «المعركة» في صربيا

(1) Darko Tanaskovic, Islam i mi, Beograd (Partenon) 2000, 2006.

ضد «الأصولية الإسلامية» التي أصبحت تعتبر «الخطر» الذي يهدّد البوسنة ويوغسلافيا، مما أصبح ذلك يبرّر كل سلوك لاحق لصربيا أو للصرب سواء في البوسنة أو السنجق أو كوسوفو. ولذلك فمن الأهمية بمكان أن يطلع المرء على آخر ما لدى تاناسكوفيتش حول هذا الموضوع.

ومع أن المرء سرعان ما يكتشف أن الكتاب لا يحمل جديداً إذا صح التعبير، إذ إنه يجمع مختارات من أوراق قدمت لندوات ومقالات نشرت في الصحف والمجلات ومراجعات الكتب، إلا أن صدور كل هذه الدراسات/ المقالات في كتاب واحد بالعنوان المذكور يجعل المرء يتوقف عنده من جديد، ويجعله يعود إليه من حين إلى آخر ليستعيد تلك الفترة الصعبة.

فالدراسات والمقالات الموجودة في هذا الكتاب قد نشرت في السنوات العصيبة، وبالتحديد خلال الثمانينيات والتسعينيات، ولذلك فإن بعضها كتب تحت تأثير هذه السنوات أو كتب ليوصل «رسالة» معينة ومهمّة بالنسبة لتلك السنوات. أما وقد انقضت تلك السنوات بمآسيها فإنه كان من المتوقع أن يقوم تاناسكوفيتش بتناول هذا الموضوع (الصرب والإسلام) من جديد، وهو الأقدر على ذلك، وأن يقدم جديداً في هذا المجال يساعد صربيا (ما بعد ميلوشيفيتش) على فتح صفحة جديدة مع الشعوب المجاورة وخاصة البشانقة والألبان.

وفي ما يتعلق بالعنوان، ألا وهو الجديد الذي يستحق التوقف عنده، يلاحظ هنا أن تاناسكوفيتش يعطي لنفسه كمستشرق المرجعية التي يتحدث فيها باسم الصرب (نحن) عن الآخر (الإسلام). ولا شك أن مثل هذا «التمثيل» لا يفيد الصرب ولا الإسلام، إذ إنه يمثل وجهة نظر شخصية لا تعبّر بالضرورة عن المستشرقين الصرب، ولا عن كل المثقفين الصرب بطبيعة الحال، كما إنها تتعامل بانتقائية وإيديولوجية مع الموضوع الذي تتناوله (الإسلام) بما في ذلك خطورة التعميم على علاقات الصرب بالإسلام. وإذا كان من شيء يستحق القول فهو أن هذا الكتاب، وبالتحديد العنوان الجديد لما تضمّنه، يؤكد على أهمية وراهنية هذا الموضوع في الوقت الذي تتحرك فيه صربيا للخروج من عزلتها الميلوشيفية والانفتاح على جوارها البلقاني المسلم وغير المسلم، ولا

شك أن مثل هذا التحرك لا يمكن أن ينجح إلا بقطيعة مع الماضي الإيديولوجي والسياسي لصربيا القديمة التي لم تحسن التعامل مع المسلمين سواء في صربيا ذاتها أو في جوارها، وهو الذي لا يزال موجوداً في مثل هذا الكتاب.

فالقارئ الصربي لهذا الكتاب، الذي قد يكون قد فاته مما كان ينشره تاناسكوفيتش في السابق، يساق بسرعة إلى ما يريده المؤلف: وعي الاختلاف مع الآخر/ الإسلام باعتباره الخطر الذي كان يهدّد الصرب. فعلى الرغم من هذا العنوان، الذي يتوقع المرء منه علاقة الصرب بالإسلام خارج الميتولوجيا والإيديولوجيا المشحونة بالعداء للإسلام والمسلمين، نجد أن الكتاب يقتصر (باستثناء المقالة المتعلقة بتركيا) على العلاقة بين الصرب والبشناق. وحتى هذه العلاقة يتم تناولها بانتقائية وإيديولوجية واضحة تحاول أن تحمّل الطرف الآخر (الإسلام/ المسلم) مسؤولية الحرب/ المأساة التي حصلت في البوسنة دون أن يكون هناك أي نقد للذات بعد كل ما حصل.

وهكذا نجد أن المؤلف ينطلق في الدراسة الثانية «صرب بتقاليد تركية أم أتراك بلغة صربية» من اللقاء المشهور لتيتو مع قادة البوسنة في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٩م، الذي يعتبر اللقاء الأخير لتيتو على هذا المستوى لأن حالته الصحية تدهورت بسرعة بعد ذلك إلى حين وفاته، حيث يركّز فيه على ما يعتبره نقداً لنشاط رجال الدين المسلمين. وهكذا يقفز المؤلف عن أهم الأشياء التي قيلت في هذا اللقاء العاصف، والتي لم تعد مخفية[1]، ليركّز على جملة لتيتو فيها نقد عام لنشاط «بعض رجال الدين» حيث يعتبر أن المقصود بذلك هم رجال الدين المسلمين الذين أصبحوا يشكّلون خطراً على النظام بعدما «أخذ يشعر بالأرض تميد تحت أقدامه». (ص٢٤).

---

(١) كان ممن حضر هذا اللقاء وكتب عنه بالتفصيل في مذكراته رئيف دزداريفيتش وزير خارجية ثم رئيس جمهورية يوغسلافيا، حيث لا تكاد هذه الجملة المبتورة لتيتو تشكل شيئاً مما ورد في هذا اللقاء المهم الذي صارح فيه تيتو المجتمعين بخطورة الأوضاع في البلاد. للمزيد عن ذلك انظر عرضنا لهذه المذكرات: من موت تيتو إلى موت يوغسلافيا، قضايا استراتيجية، عدد ٧، دمشق ٢٠٠١م، ص١٨٧ - ١٩٧.

وللتأكيد على ذلك يذكر ردة فعل النظام، الذي أراد أن يثبّت أنه سيد البلاد، التي تمثّلت في محاكمة سرايفو المشهورة في ١٩٨٣م التي حوكم فيها ١٣ مثقفاً على رأسهم علي عزت بيغوفيتش بتهمة «القيام بنشاط عدائي على أساس القومية الإسلامية». ولكن تاناسكوفيتش لا يذكر هنا بطبيعة الحال أن هذه المحاكمة كانت مفبركة، كما ثبت ذلك لاحقاً، بل إنه يتندّر على أن الشخص الذي حكم بالسجن لمدة ١٤عاماً (علي عزت بيغوفيتش) «انتخب بشكل ديمقراطي زعيماً للشعب المسلم ورئيساً للبوسنة». (ص٢٥).

ومن هذه «النتيجة» يعود تاناسكوفيتش إلى الوراء ثانية لكي يثبت أن ما حصل (وصول «مسلم أصولي» إلى رئاسة البوسنة) كان مبرمجاً منذ سنوات طويلة وعمل لأجله «المسلمون» في البوسنة على اختلاف مواقعهم، سواء أولئك الذين كانوا في قيادة الحزب الشيوعي (نياز دوراكوفيتش وغيره) أو في زعامة الجماعة الإسلامية (المؤسسة التي تمثّل المسلمين في البوسنة/ يوغسلافيا والتي ترعى شؤونهم الدينية والتعليمية). وفي هذا الإطار يستشهد بزميله المستشرق الصربي المقيم في باريس ألكسندر بوبوفيتش، الذي يكيل له المديح باعتباره «العالم الواقعي والموضوعي»، حيث يوضّح أن قادة الجماعة الإسلامية كان لهم دورهم في ذلك «نتيجة للسياسة الانتهازية التي مارسوها إزاء النظام الشيوعي... والتي استفادوا منها إلى أقصى حد في توظيف الدين في النشاط السياسي» (ص٣١-٣٢). ويلاحظ هنا أن تاناسكوفيتش حين يصف بوبوفيتش بأنه «العالم الواقعي والموضوعي»، مما يجعل لآرائه صدقية، لا يتورّع عن أن يضيف أنه يصنّف (لذلك) «ضمن أعداء الإسلام والمسلمين». (ص٣١).

وهنا يتوقف تاناسكوفيتش ليضيف جديداً يستحق الذكر، ألا وهو أن السياسة الصربية الكرواتية إزاء المسلمين في الماضي أسهمت بدورها في تفعيل النظرة/ العلاقة ما بين الإسلام والدولة. وهكذا فهو يذكر أن الحزب الفلاحي الكرواتي الجمهوري قد استند في حملته الانتخابية الموجهة إلى

المسلمين في البوسنة خلال ١٩٢٣م، بالتركيز على أن برنامج الحزب ينسجم تماماً مع الإسلام (ص٣٨-٣٩). وفي المقابل حين كان زعماء المسلمين في البوسنة يصرّون على هويتهم الخاصة (غير الصربية وغير الكرواتية) ويطالبون بالحكم الذاتي للبوسنة كانت بلغراد ترد عليهم بأن الإسلام «دين بانٍ للدولة»، أي أنه ليس مع إضعاف الدولة بحكم محلي (ص٣٩). ويتابع تاناسكوفيتش أنه حتى في يوغسلافيا الجمهورية/ الاشتراكية والإسلام (محمد فيليبوفيتش) من يروّج إلى الانسجام بين الاشتراكية والإسلام (ص٣٩). أما بعد وصول عزت بيغوفيتش إلى رئاسة الجمهورية فقد أمكن لوزير خارجية البوسنة حارث سيلاجيتش أن يقول صراحة في ١٩٩١م أن «الإسلام لعب وسيلعب دوراً بناءً في العالم الحديث». (ص٤٠).

ومع هذه «الحصيلة» التي وصل إليها تاناسكوفيتش عن دور الإسلام في حياة البشانقة، دون أن يوضّح معارضة بلغراد لهم بالتعبير عن أنفسهم كشعب متميّز باسمه التاريخي طيلة الخمسينيات والستينيات، إلى الحد الذي سمح أخيراً بالاعتراف بالبشانقة في يوغسلافيا كشعب باسم جديد (الشعب المسلم Muslimani/ Muslimnski narod)، يتوقف تاناسكوفيتش ليتساءل عن توافر الظروف الآن التي يمكن فيها تحديد هوية قومية للمسلمين من الأصول السلافية، وذلك من خلال استعراض نظرة الآخرين لهم ونظرتهم إلى أنفسهم.

وفي ما يتعلق بنظرة الآخرين (الصرب) للبشانقة المسلمين يعترف تاناسكوفيتش أنه كان هناك (ولا يزال حتي الآن) موقفان مختلفان. فالأول كان يعتبر البشانقة المسلمين «من الصرب الذين أخذوا بالعادات التركية» بينما يعتبرهم الآخر «من الأتراك الناطقين باللغة الصربية» (ص٤٣).

والمهم هنا أن تاناسكوفيتش يعبّر عن استغرابه لاعتراض بعض البشانقة على الموقف الأول الذي كان أول من عبّر عنه الباحث فوك كاراجيتش (١٧٨٧-١٨٦٤م) باعتباره يمثّل «الشوفينية الصربية التوسعية»(ص٤٣). ومن

الواضح هنا أن تاناسكوفيتش يعبّر عن موقف صربي استشراقي برز من جديد خلال تسعينيات القرن الماضي[1].

ومع أن تاناسكوفيتش يقول في النهاية إن المسلمين في البوسنة قد لا يكونون «من الصرب من ذوي العادات التركية» ولا «من الأتراك الناطقين باللغة الصربية»، مع «وجود من يعتبرون أنفسهم من هؤلاء أو أولئك» بل إنهم «في معظمهم في الوسط»، إلا أنه ينتهي أخيراً إلى القول إن «البشنقة» الحالية (القومية البشناقية) كان يمكن أن تكون هي الحل «في ظروف يوغسلافية وأوروبية أفضل».(ص٤٧). والمقصود هنا، كما سيوضّحه تاناسكوفيتش لاحقاً، أن البشنقة المبكرة كانت تقوم على أن القومية شيء والدين شيء آخر، أي أن يكون لكل واحد مساره، بينما يرى تاناسكوفيتش أن كلاهما امتزج في البشنقة الحالية (ص٥٣) التي هي السبب برأيه للحرب المأساة التي تعرّضت لها البوسنة. وهكذا ينتهي في هذا السياق إلى أن الإسلام هو الذي فاز، وبقي علينا أن نعرف ماذا سيترتب على ذلك.

وفي الواقع لقد تناول تاناسكوفيتش ذلك في الدراسة اللاحقة «الجهاد في البوسنة: وهم أو واقع- الإسلام والحرب في البوسنة»، والتي كانت قد نشرت أولاً في الفرنسية خلال ذروة الحرب في ١٩٩٤م[2].

ومع أن الحرب في البوسنة كانت الثالثة في يوغسلافيا السابقة بعد الحرب الأولى في سلوفينيا والحرب الثانية في كرواتيا، إلا أن تاناسكوفيتش يؤكد منه

---

(١) في لقاء مع المستشرق الصربي المعروف راده بوجوفيتش R.Bozovic يلاحظ أنه يمتدح الروائي البوسنوي ميشا سليموفيتش لأنه كان «يعلن دوماً أنه ينتمي إلى القومية الصربية أما ديانته ولحدٍّ ما ثقافته فهي الإسلام»، ويضيف عنه قائلاً: «لقد أعطانا درساً ومضى ولكنه ويا للأسف كم هناك من تلامذة فاشلين لا يتعلمون»: المستعرب اليوغسلافي راده بوجوفيتش: اليوغسلاف يحبون الشعر مثل العرب، جريدة «الرأي» عمان، ١٤/ ١٠/ ١٩٩٤م.

(٢) نشرت هذه الدراسة لأول مرة في «مجلة أوروبا الوسطى» التي تصدر عن مركز ستراسبورغ للدراسات الألمانية:

Revue d'Europe Cenrale, no.1,2, 1994, P.69 - 77.

وقد نشرت في هذا الكتاب باللغة الصربية لأول مرة.

البداية على أن هذه الحرب كانت مختلفة نظراً لـ «دخول العامل الإسلامي في الصراع السياسي المسلح مما أعطى النزاع منذ البداية طابعاً خصوصياً، داخلياً وخارجياً وحضارياً» وجعله يتحول إلى «حرب إثنية وأهلية ودينية».(ص٦١).

ولتوضيح ذلك يعتبر تاناسكوفيتش أن البداية كانت مع محاولة «أسلمة البوسنة» التي أخذها على عاتقه بالمفهوم السياسي «حزب العمل الديمقراطي» الذي تأسّس في ١٩٨٩م. وذلك بالانسجام مع «أفكار زعيمه عزت بيغوفيتش الأصولية الإسلامية الشاملة التي عبّر عنها منذ ١٩٧٠م في البيان الإسلامي» (ص٦٦). ولتأكيد هذا الترابط لا يعتبر تاناسكوفيتش أنه من المصادفة إعادة طباعة هذا الكتاب في خضم الانتخابات الأولى الديمقراطية التي جرت في البوسنة (١٩٩٠)، كما إنه يؤكد على أن هذا الحزب الجديد «لم يخف طموحاته الإسلامية الشاملة»(ص٦٦).

وبعد تأكيد هذه التهم الخطيرة على هذا الحزب وزعيمه لا يتوانى تاناسكوفيتش عن القول بنوع من الارتياح «إن الله لم يشأ لكل يوغسلافيا أن تتدمقرط حسب رغبات الإسلاميين الشموليين في البوسنة ولا أن تتحقق خططهم حتى في البوسنة والهرسك»(ص٦٦). وهكذا يحمل تاناسكوفيتش القادة المدنيين والدينيين المسلمين في البوسنة مسؤولية «اللجوء إلى السلاح لتحقيق الدمقرطة على النمط الإسلامي» في الوقت الذي كانوا يتظاهرون فيه أمام العالم بأنهم «ضحية العدوان الصربي». (ص٦٧).

وبعبارة أخرى، إن تاناسكوفيتش هنا لا يختلف كثيراً عن زميله ميرولوب يفتيش M.Jevtic الذي حاول في دراساته وكتبه مثل «الجهاد المعاصر كحرب» و«من البيان الإسلامي إلى الحرب الدينية في البوسنة» أن يثبت أن مسؤولية الحرب في البوسنة إنما تقع على «الأصوليين المسلمين» (حزب العمل الديمقراطي وزعيمه عزت بيغوفيتش) الذين أرادوا أسلمة البوسنة أو إقامة دولة إسلامية في البوسنة، وأن الصرب دافعوا عن أنفسهم فقط أمام هذا

«الخطر الإسلامي»[1]. وهكذا ينتهي تاناسكوفيتش في هذه الدراسة إلى التأكيد على ما ورد في العنوان على أن «الجهاد» (الذي يترجمه إلى الصربية «الحرب المقدسة») في البوسنة إنما هو واقع وليس وهماً كما يتصور البعض، حيث يقول: «إن الحرب في البوسنة إنما هي حرب دينية، وقد خاضها الكثير من المسلمين باعتبارها جهاداً».(ص٦٩).

وبشكل عام يمكن القول إن القارئ الصربي الذي ينتهي من قراءة هذا الكتاب للمستشرق تاناسكوفيتش، الذي يعتبر في بلغراد «أحد خبراء الصرب في ما يتعلق بالإسلام»، إنما يخرج بتلك الصورة النمطية السلبية عن الآخر/ الإسلام (الذي يمثّله البشانقة هنا) التي كان لها دورها في نسف التعايش الموجود في يوغسلافيا خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي. وبعبارة أخرى فقد كان من المأمول من الاستشراق الصربي أن يقوم بمراجعة نقدية لما قام به الجيل الأول من تكريس لهذه الصورة النمطية السلبية عن الآخر/ الإسلام. وإذا كان ذلك مستحيلاً في عهد ميلوشيفيتش، فإن المناخ الجديد في صربيا ما بعد ميلوشيفيتش قد يشجع على ذلك.

---

(١) للمزيد حول آراء يفتيتش هذه انظر كتابنا: الاسلام من بلغراد إلى سراييفو، عمان (دار البشير) ١٩٩٣م، ص٢٤١-٢٤٥.

أسعد دوراكوفيتش
وترجمة «ألف ليلة وليلة»

«لا يمكن تصوّر تحضّر أية لغة ليست فيها ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة»

الأديب البوسنوي جواد قرا حسن

في كل عام تقريباً تصدر ترجمة أو طبعة أو دراسة جديدة لـ «ألف ليلة وليلة» في مختلف اللغات، وهي بهذا لا تزال تسحر بعالمها الدارسين والمترجمين والمبدعين. وفي هذا الإطار صدرت في صيف ١٩٩٩م ترجمة جديدة لـ «ألف ليلة وليلة» في سراييفو، واحتفت بها الأوساط الثقافية والسياسية على نحو غير مألوف مما يشير إلى أنها كانت أكثر من ترجمة عادية لـ «ألف ليلة وليلة».

لقد صدرت هذه الترجمة عن دار نشر «ليليان» في سراييفو في أربعة مجلدات ضمت حوالى ٢٥٠٠ صفحة، وظهرت في أبدع ما يمكن من التنفيذ الفني التي يجعلها متميّزة بالفعل في صف مثيلاتها من الترجمات التي صدرت مؤخراً.

وفي ما يتعلق بالترجمة ذاتها يمكن القول إن هذا العمل يمثّل إنجازاً فردياً متميّزاً للمترجم د. أسعد دوراكوفيتش بعد ربع قرن من الانشغال بترجمة الأدب العربي. وكان د. دوراكوفيتش المولود في ١٩٤٨م في غلافيتسا/

البوسنة يحلم منذ صباه بتعلم العربية وترجمة «ألف ليلة وليلة». ولأجل ذلك التحق بقسم الاستشراق في جامعة بلغراد، وكتب رسالة الماجستير عن «الأدب العربي في حديث الأربعاء لطه حسين» بينما تناول في رسالة الدكتوراة «نظرية الإبداع المجهرية». وفي ١٩٧٦م بدأ عمله في قسم الاستشراق الجديد في جامعة برشتينا، حيث بدأ مشواره الطويل في ترجمة الأدب العربي المعاصر من شعر وقصة ورواية. وفي هذا الإطار بدأ بترجمة قصص جورج سالم وزكريا تامر ثم أشعار محمود درويش وأعمال خليل جبران وجبرا إبراهيم جبرا وغيرها ، حتى تجاوز ما أصدره عشرة كتب، منها ما هو مختارات شعرية لعدة بلدان عربية (الشعر السوري المعاصر، الشعر الكويتي المعاصر، الشعر الأردني المعاصر).

ولكن بعد تفاقم الوضع في يوغسلافيا، بعد وصول ميلوشيفيتش للسلطة وإلغاء الحكم الذاتي الواسع في كوسوفو في ١٩٨٩م، اختار د. درواكوفيتش أن يعود إلى البوسنة الأم بعدما تفاقمت ظاهرة «كل في بيته» التي كانت تعبّر عن التخوف مما هو آت. وهناك انضم د.دوراكوفيتش إلى معهد الاستشراق في سراييفو في ١٩٩١م للعمل كباحث، وعمل أيضا منذ ١٩٩٤م كأستاذ للغة العربية في قسم الاستشراق في جامعة سراييفو.

كان د.دوراكوفيتش خلال دراسته وعمله في صربياوكوسوفو يوغسلافياً في انتمائه وهويته، وكان يمثّل في هذا اتجاهاً متنامياً في يوغسلافيا منذ ١٩٧١م يرى في الانتماء ليوغسلافيا الحل الأمثل. وفي الواقع لم يكن هذا بغريب عن د.دوراكوفيتش البوسنوي لأن البوسنة كانت بمثابة «يوغسلافيا مصغرة»، وكانت النزعة اليوغسلافية عند البشانقة قوية لأنهم كانوا يعتبرون ويخشون أن قدر البوسنة أن تكون ضحية أي صراع صربي- كرواتي، ولذلك فهي لا يخشى عليها ما دام الكيان اليوغسلافي بخير. ولكن بعد عودته إلى البوسنة بدأ ما يمكن تسميته «النهضة البوسنوية الجديدة» نتيجة للتطورات الجديدة التي فرضت نفسها، والتي جعلت ترجمة «ألف ليلة وليلة» تعبيراً عنها.

لقد صُدم د.دوراكوفيتش كغيره من المثقفين «اليوغسلاف» بالعدوان الصربي العنيف على البوسنة الذي أدى إلى أكبر مجازر جماعية تعرفها أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي هذا الإطار كان حصار سراييفو خلال ١٩٩٢م، والقصف والقنص اليومي يدفع من بقي على قيد الحياة إلى اكتشاف مبرر آخر لحياتهم، ألا وهو اكتشاف هويتهم والدفاع عنها.

وهكذا فقد صُدم د. دوراكوفيتش بشكل خاص حين رأى بأم عينه القصف الصربي يطول معهد الاستشراق بالذات خلال ١٧-١٨ أيار/مايو ١٩٩٢م، ويحرق مكتبته التي كانت تضم أغنى مجموعة للمخطوطات الشرقية في البلقان. وهكذا مع هذا القصف المتعمّد للمعهد والمنشآت الثقافية الأخرى (جوامع، مدارس، مقابر إلخ) لم يعد الأمر يتعلق بـ «تطهير عرقي» كما كان يقال بل بـ «تطهير ثقافي» للتخلص من كل ما يذكر بالآخر غير المرغوب فيه.

وفي مواجهة هذا الهجوم على الذات انبعث لدى د. دوراكوفيتش وغيره من المثقفين مشاعر التحدي والاستعداد لعمل أي شيء للحفاظ على الذات/ الهوية البوسنوية. وهكذا استيقظ لدى د.دوراكوفيتش حلم الشباب بترجمة «ألف ليلة وليلة» ولكن بدوافع جديدة. فقد كان من هذه الدوافع تحدي خطر الموت اليومي، الذي كان يوحّد الجميع، ولذلك فقد عمل تحت هذا الشعور بخطر الموت بشكل جنوني خشية أن يصله الموت قبل أن يحقق هذا العمل. ومن ناحية أخرى فقد كانت البوسنة المحاصرة تبحث لنفسها عن تواصل مباشر مع العالم، ومع العالم العربي الإسلامي بشكل خاص، لتثبيت هويتها/ استقلالها. وهكذا أخذ يعم الآن استخدام تعبير «اللغة البوسنوية»، وليس «اللغة الصربو كرواتية» كما كان يقال في السابق، دلالة عما يميّز الذات/ الهوية (اللغة/ الثقافة) البوسنوية الجديدة التي تريد تأكيد استقلاليتها عن الآخرين. وفي هذا الإطار كان عمل د.دوراكوفيتش يكسب بعداً جديداً، في أنه أول ترجمة مباشرة من اللغة العربية إلى «اللغة البوسنوية».

ومن المفارقات أن الترجمة والحرب في البوسنة انتهت في وقت واحد مع التوقيع على اتفاقية دايتون في خريف ١٩٩٥م، ولكن سرعان ما بدأت حرب

أخرى: تثبيت كيان البوسنة وتأمين ناشر مستعد في ظروف ما بعد الحرب أن يخصص معظم ما لديه لنشر كتاب جديد. وقد وافقت بعد جهود حثيثة دار النشر «ليليان» في سراييفو على تبني نشر هذا الكتاب/ الإنجاز الكبير الذي استغرق سنتين من الإعداد لينتهي إلى حدث ثقافي/ سياسي على مستوى البوسنة.

وهكذا فقد نُظِّم بمناسبة صدور هذا الكتاب احتفال كبير في قلب سراييفو (دار الجيش) في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٩٩م شارك فيه نخبة من السياسيين والمثقفين كرئيس الوزراء حارث سيلاجيتش وفخر الدين رضوان بيغوفيتش وجواد قرا حسن وغيرهم. وإذا كان حضور سيلاجيتش طبيعياً باعتباره «رفيق الدرب»(ممن عملوا أيضاً في قسم الاستشراق في بريشتينا) ومن رموز «النهضة البوسنوية الجديدة»، إلا أن حضوره وكلمته الافتتاحية أعطت للحدث بعده السياسي أيضاً. وفي هذا الاحتفال عبر الأديب البوسنوي المعروف جواد قرا حسن عمّا تعنيه هذه الترجمة للبوسنة الجديدة التي ولدت خلال الحرب «لا يمكن تصور تحضّر أية لغة ليست فيها ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة».

وبعبارة أخرى لقد كانت قد ولدت خلال الحرب «اللغة البوسنوية» في إطار الدفاع عن الذات/ الهوية البوسنوية، وجاءت أول ترجمة مباشرة من العربية لهذه اللغة لكي تؤشر على أن هذه اللغة (البوسنوية) قد لحقت بغيرها، بل قد تجاوزت غيرها من اللغات اليوغسلافية المجاورة (الصربية والكرواتية والمكدونية إلخ) لأنها أصبحت تمتلك أول ترجمة مباشرة من اللغة العربية.

وفي هذا الإطار، لم يكن من المستغرب أن يبادر الرئيس البوسنوي نفسه علي عزت بيغوفيتش، الذي هو من رموز «النهضة البوسنوية الجديدة»، إلى استقبال وتكريم المترجم والناشر في مقر رئاسة البوسنة في ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٩م. وبهذا تكون ترجمة «ألف ليلة وليلة» قد تحولت إلى لحظة مهمة في سيرورة تبلور وتطور الهوية البوسنوية الجديدة على المستوى الثقافي والسياسي، وجعل منها حدثاً على مستوى البوسنة.

معطيات أساسية عن دول البلقان

ألبانيا

العاصمة: تيرانا

المساحة: ٢٨،٧٤٨ كم

السكان: ٣،٠٢٠،٢٠٩ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: ألبان (٩٥٪) وأقليات أخرى (يونانية وغجرية وسلافية مكدونية)

اللغة الرسمية: الألبانية

الدين: مسلمون (٦٠٪) وأرثوذكس (٢٠٪) وكاثوليك (١٠٪)

العملة: الليك

الناتج القومي الإجمالي: ١٢،٨ مليار دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ١٠،٧٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

بلغاريا

العاصمة: صوفيا

المساحة: ١١٠،٩٩٤ كم

السكان: ٦،٩٢٤،٧١٦

المكونات الإثنية: سلاف بلغار (٨٤٪) وأتراك (٩٪) وغجر (٥٪)

اللغة الرسمية: البلغارية وتستخدم التركية

الدين: أرثوذكس (٨٥٪) ومسلمون (١٢٪) إلخ .

العملة:اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ١٠٤،١ مليارات دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ١٤،٤٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

البوسنة والهرسك

العاصمة: سراييفو

المساحة: ٥١،١٩٧ كم

السكان: ٣،٨٧١،٦٤٢ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: بشناق (٤٨٪) وصرب (٣٧٪) وكروات (١٥٪)

اللغة الرسمية: البشناقية والصربية والكرواتية

الدين: مسلمون (٥٠٪) وأرثوذكس (٣٧٪) وكاثوليك (١٥٪)

العملة: المارك البوسنوي

الناتج القومي الإجمالي: ٣٣،٢٥١ مليار دولار

حصة الفرد: ٨٩٥٠ دولاراً

نظام الحكم: جمهوري فدرالي برلماني

الجبل الأسود

العاصمة: بودغوريتسا (تيتوغراد سابقاً)

المساحة: ١٣،٨١٢ كم

السكان: ٦٥٠،٠٣٦ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: مونتنغريون (٤٥٪) وصرب (٢٩٪) وبشناق (١٢٪) وألبان (٥٪)

اللغة الرسمية: المونتنغرية وتستخدم الصربية والبشناقية والألبانية

الدين: أرثوذكس (٧٥٪) ومسلمون (٢٠٪)

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ٧،٤٢٩ مليارات دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ١١،٩٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

تركيا

العاصمة: أنقرة

المساحة: ٧٨٣،٥٦٢ كم

السكان: ٨١،٦١٩،٣٩٢ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: أتراك (٧٥٪) وأكراد (١٨٪) وأقليات أخرى .

اللغة الرسمية: التركية وتستخدم الكردية

الدين: مسلمون (٩٩٪)

العملة: الليرة التركية

الناتج القومي الإجمالي: ١،٤٢٦ بليون دولار

حصة الفرد: ١٩،٠٨٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

رومانيا

العاصمة: بوخارست

المساحة: ٢٣٨،٣٩١ كم

السكان: ٢١،٧٢٩،٨٧١ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: رومانيون (٨٩٪) ومجر (٦،٥٪) وغجر (٣،٣٪)

اللغة الرسمية: الرومانية وتستخدم المجرية

الدين: أرثوذكس (٨١٪) وبروتستانت (٦،٤٪) ومسلمون (١٪)

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ٢٨٥،١٣١ مليار دولار

حصة الفرد: ١٣،٣٩٥ دولار

نظام الحكم: جمهوري رئاسي برلماني

سلوفينيا

العاصمة: لوبليانا

المساحة: ٢٠،٢٧٣ كم

السكان: ٢،٠٦١،٠٨٥ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: سلوفين (٨٣٪) وصرب (٢٪) وكروات (٢٪) وبشناق (١٪)

اللغة الرسمية: السلوفينية

الدين: كاثوليك (٦٠٪) ومسلمون (٢،٤٪) وأرثوذكس (٢،٣٪) إلخ

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ٥٧،٣٦ مليار دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ٢٧،٤٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

صربيا

العاصمة: بلغراد

المساحة: ٧٧،٤٧٤ كم

السكان: ٧،٢٠٩،٧٦٤ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: صرب (٨٣٪) ومجر (٣،٥٪) وبشناق (٢،١٪) إلخ

اللغة الرسمية: الصربية

الدين: أرثوذكس (٨٥٪) ومسلمون (٤٪)

العملة: الدينار الصربي

الناتج القومي الإجمالي: ٨،٤٧ مليارات دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ١١،١٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

كرواتيا

العاصمة: زغرب

المساحة: ٥٦،٥٩٤ ككم

السكان: ٤،٤٧٠،٥٣٤ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: كروات (٩٠٪) وصرب (٥٪) إلخ .

اللغة الرسمية: الكرواتية

الدين: كاثوليك (٨٧٪) وأرثوذكس (٥٪) ومسلمون (١،٥٪)

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ٨٠،٦٢٠ مليار دولار

حصة الفرد: ١٨،٣١٤ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

كوسوفا

العاصمة: بريشتينا

المساحة: ١٠،٩٠٨ كم

السكان: ١،٨٥٩،٢٠٣ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: ألبان (٩٢٪) وصرب (٥٪) وأقليات أخرى

اللغة الرسمية: الألبانية والصربية

الدين: مسلمون (٩٤٪) وأرثوذكس (٥٪) وكاثوليك (١٪)

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ١٤،١١ مليار دولار

حصة الفرد: ٧،٦٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

اليونان

العاصمة: أثينا

المساحة: ١٣١،٩٥٧ كم

السكان: ١٠،٧٧٥،٥٥٧ (تقديرات ٢٠١٤)

المكونات الإثنية: يونان (٩٨٪) وأتراك (١،٥٪)

اللغة الرسمية: اليونانية

الدين: أرثوذكس (٩٧٪) ومسلمون (٢٪)

العملة: اليورو

الناتج القومي الإجمالي: ٢٦٧،١ مليار دولار (تقديرات ٢٠١٣)

حصة الفرد: ٢٣،٦٠٠ دولار

نظام الحكم: جمهوري برلماني

كتب أخرى للمؤلف

- الثقافة العربية في الأبجدية العربية، الكويت (عالم المعرفة) ١٩٨٣م.
- تاريخ بلغراد الإسلامية، الكويت (دار العروبة) ١٩٨٧م.
- الألبانيون في العالم العربي (بالألبانية)، بريشتينا ١٩٩٠م.
- ملامح عربية إسلامية في الأدب الألباني، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ١٩٩٠م.
- الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، عمان (دار البشير) ١٩٩٣م.
- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر- وقفية سنان باشا، دمشق (دار الحصاد) ١٩٩٣م.
- دراسات في التاريخ الحضاري لبلاد الشام في القرن السادس عشر، دمشق (دار الأبجدية) ١٩٩٥م.
- دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، تونس/ دبي (مؤسسة التميمي/ جمعة الماجد) ١٩٩٥م.
- كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني- الصربي في القرن العشرين، القاهرة (مركز الحضارة للدراسات السياسية) ١٩٩٨م.
- مداخلات عربية- بلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ٢٠٠٠م.

- دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، دمشق (دار الفكر) ٢٠٠٠م.
- دراسات حول وقف النقود، تونس (مؤسسة التميمي) ٢٠٠٠م.
- التأليف في اللغة العربية في البوسنة، عمان- إربد (الشروق - حمادة) ٢٠٠١م.
- مراجعة الاستشراق: الذات والآخر/ تجربة يوغسلافيا، بيروت (دار المدار الإسلامي) ٢٠٠٢م.
- من دار الإسلام إلى الوطن ومن الوطنية إلى القومية، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٤م.
- البوسنة بين الشرق والغرب، دمشق (اتحاد الكتاب العرب) ٢٠٠٥م.
- الإسلام في أوروبا المتغيرة: تجربة ألبانيا في القرن العشرين، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٧م.
- كوسوفو ما بين الماضي والحاضر، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٨م.
- الوثائق العربية في مركز المحفوظات بدوبروفنيك، القاهرة (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٨م.
- الصلات الأدبية الألبانية العربية (بالألبانية)، تيرانا ٢٠٠٩م.
- كوسوفا تجليات ثقافية بين الشرق والغرب، بيروت (الدار العربية للعلوم) ٢٠٠٩م.
- الوقف في العالم الإسلامي الماضي والحاضر، بيروت (جداول) ٢٠١١م.
- من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، بيروت (جداول) ٢٠١٢م.
- دراسات في الصلات العربية البلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، بيروت (جداول) ٢٠١٢م.
- وقف المرأة في عالم الإسلام: مقاربة جديدة لمكانة المرأة في المجتمع، بيروت (دار جداول) ٢٠١٤م.
- الإسلام في البلقان (بالاشتراك)، دبي (مركز المسبار) ٢٠١٤م.

مطبعة كركي

قريطم ـ بيروت ـ تلفاكس: 862500 1 961+

E–mail: print@karaky.com